المعهد الدولي للدراسات الإسلامية

# الصراع على فلسطين

## في ضوء سورة الإسراء

### الماضي والحاضر والمستقبل

تأليف الدكتور

**خالد نصر**

عميد المعهد الدولي للدراسات الإسلامية

المعهد الدولي للدراسات الإسلامية

# الصراع على فلسطين
## في ضوء سورة الإسراء
## الماضي والحاضر والمستقبل

تأليف
**الدكتور خالد نصر**
عميد المعهد الدولي للدراسات الإسلامية

طبعة خاصة بالمعهد
تُـوزع مجانًا

حقوق الطبع محفوظة للمعهد

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ- ٢٠٢٤م

## ۞ إهـــــداء ۞

إلـــى أهـــل غـــزة أهـــل العـــزة...

إلى من أحيوا فينا الأمل بعد تطاول السنين

الذين جعلوا من موتهم بعثًا ونشرًا لهذا الأمة

وإلـــى الوعـــد الحـــق واليـــوم الموعـــود

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# المقدمة

بسم اللَّه، والحمد للَّه، والصلاة والسلام على رسول اللَّه، محمد بن عبد اللَّه، وعلى آله وصحبه ومَن والاه، واستن بسنته واتبع هداه.

فمنذ مرحلة الطلب والتي كان جزءًا منها حفظ القرآن الكريم ودراسة قراءاته وتفسيره وتوجيه مفرداته، حُبِّبَ إليَّ قراءةُ سورة الإسراء، ومدارستها، حتى إني قمت بتدريس تفسيرها عدة مرات، واستغرق ذلك مني سنوات، وكثيرًا ما كنت أعجب من تَبَنِّي جمهور المفسرين أوجهًا في التفسير لا تستقيم مع المعنى الإجمالي لسياق ونظم السورة.

كنت أتساءل كيف فسر العلماء قوله تعالى: ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ بقوم بابل أو آشور أو الفرس أو الرومان وكلهم من عباد الأصنام؟!

كنت أتساءل كيف فسر العلماء قوله تعالى: ﴿وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ﴾ في أول السورة بخلاف ما فسروه به في آخر السورة مع اتفاق السياق ومن نزلت فيهم؟!

كنت أتساءل كيف فسر العلماء قوله تعالى: ﴿ٱلْمَسْجِدَ﴾ بالمعبد أو الهيكل مع أن هذه الكلمات في التراث العربي، ومع خصوصية لفظ المسجد عندنا نحن المسلمين؟!

كنت أتساءل كيف لم يُولِ المفسرون اهتمامًا كافيًا لتنوع الاستعمال القرآني لصيغة الأفعال بين المضي والاستقبال في سياق الآيات التي تتحدث عن إفساد بني إسرائيل وعقوبتهم؟!

إن سورة الإسراء تكاد تنطق بمضمونها، فهي من أوضح السور معنًى حتى

لغير اللغوي، وهي بنظمها جاءت مخاطبة للقلوب والعقول.

هذا من جانب، ومن جانب آخر، تكاد أحداث التاريخ الحديث والمعاصر تعطينا تفسيرًا عمليًّا واقعيًّا للآيات في السياق المشار إليه، فإفساد بني إسرائيل في ظل الإسلام بدأ في العصر الأول ولكنه كان محجمًا، لقوة المسلمين، وضعف اليهود.

أما الإفساد الثاني فهو بحق يستحق الوصف القرآني، ﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ علوًّا لم تصل إليه مملكة يهودية من قبل، بل بالكاد وصلت إليه إمبراطوريات كبيرة في التاريخ.

إننا نزعم أن كل ما يخص بني إسرائيل في سورة الإسراء هو تعبير عن الصراع الإسلامي اليهودي، وأن سورة الإسراء سورة خبر المستقبل لا خبر الماضي، على ما سنبينه إن شاء اللَّه.

ومع أني مسبوق في هذه الفكرة بعلماء كبار من أمثال الشيخ الشعراوي، والشيخ عبد المعز عبد الفتاح، وبعض علماء فلسطين، إلا أنني توسعت في دراسة الصراع في ضوء سورة الإسراء من كافة الجوانب، لا سيما جانب التفسير.

وقد جاءت قسمة الكتاب لتمهيد ومباحث:

جاء التمهيد للحديث عن التعريف بسورة الإسراء وبني إسرائيل واليهودية والصهيونية.

ثم الحديث عن الجمع بين أمة النبي محمد ﷺ وأمة نبي اللَّه موسى عليه السلام بصورة المقابلة في سياق السورة.

وأخيرًا القواعد العامة التي تحكم قيام الدول وانهيارها على حسب نظرة ابن خلدون في المقدمة.

أما المباحث: فقد جعلتها على نظم آيات السورة محل الدرس:

**المبحث الأول**: من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

**المبحث الثاني**: وآتينا موسى الكتاب، وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب.

**المبحث الثالث**: لتفسدن ... مرتين.

**المبحث الرابع**: في الأرض – من الأرض – اسكنوا الأرض.

**المبحث الخامس**: ثم رددنا لكم الكرة عليهم.

**المبحث السادس**: وعد الآخرة.

**المبحث السابع**: ليسوءوا وليدخلوا وليتبروا.

**المبحث الثامن**: مستقبل الصراع.

وكما ذكرت أن هذا هو اجتهادنا في تفسير الآيات في ضوء السياقات التاريخية واللغوية، وهو اجتهاد نزعم أنه يوافق صريح المقال وواقع الحال.

اجتهاد أفاد من واقع لم يعشه سلفنا من المفسرين، بل لعله لم يخطر ببال أحدهم أن هذه الجالية الصغيرة التي تعيش هنا وهناك في شبه عزلة عن الآخرين، قد تتسلط على أمة الإسلام يومًا، ما دفعهم للبحث في الماضي، دون ترقب أو توقع المستقبل، ولهم كل العذر، أما نحن فليس لنا عذر أن نستمر في اجترار ما كتبه السابقون بعد مصادمته لواقع الحال ووقائع التاريخ.

لقد كتبت هذا الكتاب وأنا على قناعة تامة بأن الجولة القادمة لنا، ولا أقول هذا من باب التبشير أو رفع روحنا المعنوية، ولكن أقوله بإيمان كامل، قائم على الاستقراء، استقراء أحوالنا، وأحوال عدونا، وأحوال سنن التاريخ.

ولعلِّي هنا لست بدعًا، فقد سبقني البعض، بل إن منهم بعض الكتاب

اليهود، الذين كتبوا عن عقدة الثمانين أو الجيل الثالث، وفيها ذكروا بعضًا مما ذكرناه في كتابنا، وأن بعض عوامل هزيمة المستوطنة الإسرائيلية ستكون عوامل داخلية وبعضها خارجي كما سنبينه إن شاء اللَّه .

أسأل اللَّه العلي العظيم ألا يقبض هذا الجيل حتى يرى ما وعد ربنا حقًّا، وأن ندخل المسجد الأقصى كما دخله أولنا وثانينا، وأن يجعل نصره قريبًا غير بعيد، عاجلًا غير آجل .

فمنه النصر وإليه، ومنه المدد والمعتمد عليه .

**خالد نصر**

**بوسطن ٢٠٢٤**

# التمهيد

سنقدم في هذا التمهيد بين يدي الكتاب عدة مقدمات مهمة سنحتاجها في ثنايا الكتاب.

## أولا: سورة الإسراء وبني إسرائيل

سورة الإسراء من السور المكية في الجملة، ورد ذلك عن ابن عباس وابن الزبير، وهو قول الجمهور(١).

وقال البعض: إنها مكية إلا بضع آيات كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾(٢).

نزلت سورة الإسراء بعد سورة القصص، وقبل سورة يونس، فهي السورة الخمسون في ترتيب النزول، والسابعة عشرة في ترتيب المصحف(٣)، وعدد آياتها مائة وعشر آيات على العد البصري، ومائة وإحدى عشرة آية على العد الكوفي والشامي.

الاسم الأشهر لهذه السورة هو سورة بني إسرائيل، وهو ما ورد في عدة روايات، منها حديث عائشة أنه ﷺ: «كان يقرأ كل ليلة ببني إسرائيل والزمر»(٤)، وما ورد عن ابن مسعود أنه قال: «بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول، وهن من تلادي»(٥). و(العتاق الأول) أي

(١) روح المعاني (١٥/ ٢).
(٢) تفسير القرطبي (١٠/ ٢٠٣).
(٣) «المصحف الإلكتروني».
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٩٠٨)، وابن خزيمة في صحيحه (١١٦٣).
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٩٩٤).

من السور المقدمات المفضلات، و(من تلادي) يعني ما حفظته قديمًا، من الشيء التليد.

كما أن السورة اشتهرت باسم الإسراء لما ورد في مطلعها من الإشارة إلى حادثة الإسراء، وتسمى أيضًا سورة «سبحان» لابتدائها بالمصدر «سبحان».

وتسمية السورة بسورة بني إسرائيل مناسب لما ورد من شأن بني إسرائيل في هذه السورة من حيث التفرد، والقوة وخبر المستقبل عطفًا على خبر الماضي.

إن ما جاء من خبر بني إسرائيل في هذه السورة أوقع اختلافًا كبيرًا في تفسير الجزء الخاص بهم في أول السورة وفي آخرها، ليس فقط من جهة التواريخ والأحداث، ولكن من جهة تفسير مقتضى النظم القرآني.

وما زال البعض يجتهد في تفسير آيات بني إسرائيل في هذه السورة، ولعلنا الآن في موقع أفضل يسمح لنا بفهم الآيات في ضوء ما اكتمل من أحداث التاريخ، وفي ضوء ربط آيات السورة بغيرها مما ورد في شأن بني إسرائيل في القرآن، وربط ذلك بالواقع المعاصر وما جرت به الأحداث في واقعنا المعاصر.

إن الرجوع للقرآن الكريم مهم جدًّا لفهم تطور الصراع بين أمة الإسلام وبني إسرائيل؛ حيث فصل القرآن الحديث عن بني إسرائيل ووصف أحوالهم وسلوكهم وجزءًا مهمًّا من تاريخهم، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1]. ومع ذلك فالقرآن ليس كتاب تاريخ، بل كتاب هداية وإرشاد، يشير إلى أحداث وقعت أو ستقع، ولكنه لا يربطها بتأريخ محدد، وهذا يقتضي من المفسر معرفة واسعة بأحداث التاريخ وتطور الأمم

(١) سورة النمل: ٧٦.

وسنن الدفع.

ولعله من المناسب في هذا التمهيد أن نعرف ببني إسرائيل وببعض ما يتعلق بهم.

إسرائيل كلمة عبرية مركبة من مقطعين «إسرا»، «إيل»، وقد اختلف المحققون في معنى المقطع الأول، وإن اتفقوا تقريبًا على أن المقطع الثاني يعني الإله، فذهب البعض إلى أن «إسرا» بمعنى العبد، فيكون المعنى: «عبد اللَّه»، أو أن يكون المعنى الصفوة: أي صفوة اللَّه، والبعض يرى أنها تعني: المصارع، إشارة إلى ما ورد في سفر التكوين من مصارعة يعقوب للرب، وأنه هو الذي منحه هذا الاسم بعد هذه المصارعة[١]. والمشار إليه هنا في كل ما سبق هو نبي اللَّه يعقوب الذي جاء من نسله الأسباط المشهورة، ومنهم جاءت الأمة اليهودية، فبنو إسرائيل هم أبناء يعقوب ومن نسل منهم.

وقد ورد اسم إسرائيل منفردًا في القرآن مرتين في سورة آل عمران، وفي سورة مريم، ويشير إلى نبي اللَّه يعقوب، وورد اسم بني إسرائيل في القرآن إحدى وأربعين مرة للدلالة على قوم إسرائيل.

ترك يعقوب عليه السلام اثني عشر ولدًا، ومنهم جاء الأسباط[٢]، قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾[٣]. فهؤلاء هم جملة بني إسرائيل، وهم الذين عاشوا في مصر أكثر من مائتي سنة، وهم الذين خرجوا مع سيدنا موسى

(١) راجع في ذلك: «بنو إسرائيل في القرآن» (١/ ٦)، «بنو إسرائيل» (١/ ٣٥)، توراة اليهود: مقال بمجلة المجلة، العدد ١٥٧، ص ٤، سنة ١٩٧٠.

(٢) كلمة (الأسباط) في بني إسرائيل كالقبائل في العرب كما نقل السمين الحلبي، وقال الأزهري: الأسباط في ولد إسحاق بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل. تهذيب اللغة (١٢/ ٢٤٠).

(٣) سورة الأعراف: ١٦٠.

في معجزة الخروج المذكورة في القرآن وفي التوراة.

أما اليهود فهم أتباع الديانة التي غلبت على بني إسرائيل قبل سيدنا عيسى، والأصل في هذه الكلمة مختلف فيه، فذهب البعض إلى أن كلمة «يهود» جمع هائد وهو التائب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾[١]. وذهب البعض إلى أن التسمية جاءت من التهود أي الحركة أثناء قراءة النص الديني[٢]. أو أنهم انتسبوا إلى الابن الرابع ليعقوب واسمه يهوذا، أو إلى مملكة يهوذا التي تقابل مملكة إسرائيل بعد قبض النبي سليمان وانقسام مملكته، ففي إرميا: (لأن بني إسرائيل وبني يهوذا إنما صنعوا الشر في عيني منذ صباهم)[٣]. وفيه أيضًا: (من أجل كل شر بني إسرائيل وبني يهوذا الذي عملوه ليغيظوني به، هم وملوكهم ورؤساؤهم وكهنتهم وأنبياؤهم ورجال يهوذا وسكان أورشليم)[٤].

لقد شاع استعمال كلمة اليهود للإشارة لبني إسرائيل، أثناء السبي البابلي حتى غدت لقبًا لكل الأمة[٥].

ومع انتشار اليهود في البلدان دخل بعض هذه الأمم في اليهودية من العرب والروم والفرس وغيرهم، وصار يطلق عليهم يهود أيضًا[٦]. وعلى ذلك فاليهود أعم من بني إسرائيل، وإن شكل بنو إسرائيل الأغلبية الساحقة لصعوبة التحول للديانة اليهودية.

---

(١) انظر في ذلك: الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٢٠٩)، تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٥)، تفسير القرطبي (١/ ٤٣٣).

(٢) بنو إسرائيل في القرآن (١/ ٨).

(٣) إرميا: ٣٢/ ٣٠.

(٤) إرميا: ٣٢/ ٣٢.

(٥) بنو إسرائيل (١/ ٣٩).

(٦) المختصر في أخبار البشر (١/ ١١٢).

أما في القرآن فنجد أنه أشار إلى هؤلاء القوم بعدة إشارات؛ منها الاسم الشائع (اليهود)، ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ﴾(١). ومنها (بنو إسرائيل)، ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾(٢)، ومنها (أهل الكتاب)، ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾(٣)، ومنها (الذين هادوا)، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾(٤).

وأكثر ما ارتبط إطلاق اسم بني إسرائيل في القرآن كان في فترة نبي اللَّه موسى عليه السلام وما بعده من عصر الأنبياء إلى ميلاد المسيح عليه السلام، وأكثر ما ارتبط اسم اليهود في القرآن كان بمقابل الإسلام أو النصرانية، وأكثر ما ارتبط اسم أهل الكتاب في القرآن كان في معرض الصراع الفكري والحربي بين المسلمين واليهود.

## علاقة الصهيونية ببني إسرائيل واليهودية:

الصهيونية هي حركة سياسية تستمد أصولها من تعاليم توراتية وشرائع التلمود، وهي الفكرة التي تريد ربط اليهودية بواقع سياسي واجتماعي معين، يعتمد في جزء منه على تاريخ مزعوم ومستقبل موهوم.

وصهيون هو جبل يشرف على مدينة القدس، جاء ذكره في التوراة ففي «صموئيل الثاني»: (وأخذ داود حصن صهيون، هي مدينة داود... وأقام داود في الحصن وسماه مدينة داود)(٥).

---

(١) سورة المائدة: ٨٢.
(٢) سورة الدخان: ٣٠.
(٣) سورة الأحزاب: ٢٦.
(٤) سورة البقرة: ٦٢.
(٥) صموئيل الثاني [٥/ ٧، ٩].

اشتقت الحركة الصهيونية اسمها من هذا الموقع للإشارة إلى الهدف الذي من أجله نشأت الحركة، وهو إعادة بني إسرائيل إلى ذات المكان الذي أخرجوا منه عدة مرات.

نشأت الحركة الصهيونية في مرحلة مبكرة، وهي مرحلة السبي البابلي حيث صدرت فتوى من الكهنة اليهود تبيح لكل يهودي أن يعلن عن امتلاكه لأربعة أفدنة من أرض فلسطين[١]، ولكن مع الضربات التي وجهت لليهود عبر التاريخ ضعفت الحركة الصهيونية حتى القرن التاسع عشر، حيث بدأت حركة قومية عالمية انبثق عنها دول صغيرة من رحم إمبراطوريات أكبر، وحينها برزت الفكرة القومية اليهودية بصورة منظمة، لا سيما مع بروز ما يسمى بالمشكلة اليهودية في أوربا[٢].

لكن المتأمل يجد أن الصهيونية ارتبطت ببني إسرائيل أكثر من ارتباطها باليهود، فمن لهم حق الرجوع هم بنو إسرائيل وليس كل اليهود، وهذا له دلالة مهمة ستساعدنا في فهم آيات سورة الإسراء.

لقد جاء الحديث عن بني إسرائيل في سورة الإسراء في أولها وفي آخرها، ففي أول السورة يخبر اللَّه أنه كتب في التقدير بعلمه المسبق بسلوك هؤلاء القوم أنه سيقع منها فساد في الأرض، وعلو لم يصلوا إليه من قبل، وينص القرآن على مرتين، يعقب كل مرة عقوبة، وسنتكلم في ثنايا هذا البحث عن تفسير ما ورد بشأن الإفساد والعقوبة.

أما في آخر السورة فقد جاء السياق للتذكير بما كان بين سيدنا موسى وبني إسرائيل من جهة، وفرعون من جهة أخرى، وما وقع من إغراق فرعون وجنده،

---

(١) بنو إسرائيل (١/ ٤٢).

(٢) فلسطين لحسن صبري الخولي (ص ٦).

ونجاة بني إسرائيل، مع وعدٍ من اللَّه أنه سيجمعهم مرة أخرى بعد أن يتفرقوا في الأرض، وسنتكلم عن مقصود ذلك أيضًا وعلاقته بما كان وما سيكون.

***

## ثانيًا: الأمتان في سياق سورة الإسراء

إن سورة الإسراء أو بني إسرائيل هي السورة الأهم التي جمعت بين طرفي الصراع الحقيقي على فلسطين، المسلمون والعرب من جانب، وبنو إسرائيل من جانب، ولا نقصد هنا بالجمع ما ورد في سياق الإفساد والعقوبة والحرب فقط، بل تعدى إلى غير ذلك في ربط بين الأمتين بصورة لم تقع في سورة أخرى.

**وسنذكر هنا بعض عناصر الربط:**

**أولًا:** بداية السورة والتي ذكرت قصة الإسراء والمعراج إشارة، وثنت ذلك بالحديث عن نبي اللَّه موسى عليه السلام وما كان معه من إنزال الكتاب، وربط ذلك بالحديث عن القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[1].

فالحديث هنا عن نبيين وكتابين وأمتين، فالمقابلة حاضرة من بداية السورة ومستمرة في أجزائها.

**ثانيًا:** فكرة الوصايا والنصائح التي وردت في سورة الإسراء بداية من قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[2] إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾[3]، تتشابه مع الوصايا العشر

(١) سورة الإسراء: ٩.
(٢) سورة الإسراء: ٢٣.
(٣) سورة الإسراء: ٣٩.

التي نزلت على موسى والتي مثلت قلب الوحي الموسوي.

١) «لا يكن لك آلة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالًا منحوتًا، ولا صورة مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت، لا تسجد لهن ولا تعبدهن».

يقابله قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾[١].

٢) «لا تنطق باسم الرب إلهك باطلًا، لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلًا».

يقابله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[٣].

٣) «أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك».

يقابله قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[٤] إلى قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[٥].

٤) «لا تقتل».

يقابله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[٦].

---

(١) سورة الإسراء: ٣٩.
(٢) سورة الإسراء: ٣٦.
(٣) سورة الإسراء: ٣٤.
(٤) سورة الإسراء: ٢٣.
(٥) سورة الإسراء: ٢٤.
(٦) سورة الإسراء: ٣٣.

٥) «لا تزن».

يقابله قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[١].

٦) «لا تسرق».

يقابله قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾[٣].

٧) «لا تشته بيت قريبك، لا تشته امرأة قريبك، ولا عبده ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره، ولا شيئًا مما لقريبك».

يقابله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ ﴾[٤]. وقوله: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾[٥].

فهذه الوصايا التي أنزلت على موسى عليه السلام كأنما أنزلت مرة أخرى ولكن بصورة موسعة ومفصلة لأمة الدعوة، ومنهم بنو إسرائيل، فكان نوعًا من التذكير وإسقاط الحاضر على الماضي، ويكون الخطاب مستمرًّا لهم أيضًا، فكما تكلم عن فسادهم وعقوبتهم ذكرهم بالوصايا التي فارقوها.

**ثالثًا:** تركيز السورة على أمرين: مواجهة قريش مع النبي ﷺ وفيهم فرعون هذه الأمة أبو جهل على ما رواه أحمد بسنده عن عبد اللَّه بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «هذا فرعون أمتي»[٦]، ويقابله مواجهة موسى عليه السلام مع فرعون

---

(١) سورة الإسراء: ٣٢.
(٢) سورة الإسراء: ٣٤.
(٣) سورة الإسراء: ٣٥.
(٤) سورة الإسراء: ٣٤.
(٥) سورة الإسراء: ٣٦.
(٦) مسند الإمام أحمد، حديث رقم (٣٨٢٥).

المذكورة بعد ذلك مباشرة، وهو ربط بين الأمتين من خلال وحدانية النبوة ووحدانية العداء والتحدي.

**رابعًا:** ذكر الأمر بالصلاة والكلام على مواقيتها في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ...﴾[١]، ومع أن الآية لا تذكر صراحة عدد الصلوات إلا أنها أشارت إلى الأوقات الرئيسية، وقت النهار ووقت الليل ووقت الفجر.

وهذا يتناسب مع ما وقع في المعراج من أمر الصلاة وعلاقة ذلك بموسى عليه السلام الذي استثقل الخمس صلوات بخبرته السابقة مع بني إسرائيل، فطلب من النبي ﷺ أن يسأل ربه التخفيف، فاستحى النبي أن يراجع ربه في أمر قضاه[٢].

فالصلاة عند بني إسرائيل هي أيضًا مقسمة على ثلاثة أوقات؛ وهي الصبح وتسمى عندهم «شحاريت»، وصلاة نصف النهار وتسمى عندهم «منحة»، وصلاة المساء، وتسمى عندهم «عربيت».

وهذا أيضًا يؤيد أن سياق السورة إنما هو مقابلة بين الأمتين.

**خامسًا:** تحدي كفار مكة وما طلبوه من النبي ﷺ أن يكون لهم، يشبه ما وقع مع موسى عليه السلام وتحدي بني إسرائيل له مرارًا وتكرارًا.

فقد قال كفار مكة: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾[٣]، وقال بنو إسرائيل لموسى: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾[٤].

وقال كفار مكة: ﴿أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ﴾[٥]، وقال

(١) سورة الإسراء: ٧٨.
(٢) انظر: صحيح البخاري (٣٤٩)، وصحيح مسلم (١/ ١٤٥ رقم ١٦٢).
(٣) سورة الإسراء: ٩٠.
(٤) سورة البقرة: ٥٥.
(٥) سورة الإسراء: ٩١.

بنو إسرائيل: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا﴾[١].

وقال كفار مكة: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾[٢]، وقال بنو إسرائيل: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[٣]. تشابهت القلوب فتشابهت الألسن.

**سادسًا:** سجلت السورة سؤالا من كفار مكة للنبي ﷺ عن ماهية الروح، وأصل هذا السؤال كان تعليمًا من أحبار بني إسرائيل لكفار مكة، وأصل القصة رواها ابن إسحاق في السيرة[٤]، والبيهقي في دلائل النبوة[٥]، وابن حجر في موافقة الخبر الخبر[٦]، وفيه: «أن مشركي مكة بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجا حتى قدما المدينة فسألوا أحبار اليهود عن رسول اللَّه ﷺ، فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم.

سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنه كان لهم حديث عجب، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح، ما هي؟...» إلى آخر الخبر.

وهناك رواية أخرى في البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود قال: «بينا أنا مع النبي ﷺ في حرث، وهو متكئ على عسيب، إذ مر اليهود، فقال بعضهم

---

(١) سورة الإسراء: ٦١.
(٢) سورة الإسراء: ٩٢.
(٣) سورة النساء: ١٥٣.
(٤) السيرة النبوية (١/ ٣٠١).
(٥) دلائل النبوة (٢/ ٢٦٩).
(٦) موافقة الخبر الخبر (٢/ ٧٠-٧١).

لبعض: سلوه عن الروح، فقال: ما رابكم إليه؟ وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه. فقالوا: سلوه.

فسألوه عن الروح: فأمسك النبي ﷺ فلم يرد شيئًا، فعلمتُ أنه يوحى إليه، فلما نزل الوحي قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

فالسورة سجلت أيضًا صفحة من الصراع الإسلامي اليهودي بتلك المناظرة.

وبعد، فهذه بعض الصور التي ربطت بين أمة الإسلام وأمة بني إسرائيل، وهي إشارات تدل على أن السورة نزلت بخبر المستقبل، لا بخبر الماضي، وأن الإفساد والعقوبة والكرة والعودة في الكرة، كلها أمور ستدور بين هاتين الأمتين، ومن ثم أخبرت عمن سيكون له النصر في كل مرحلة ومن له العاقبة.

***

## ثالثًا: الدول الأيدلوجية وعقدة الجيل الثالث

في كتابه الرائع والعلم ذكر ابن خلدون عدة مقدمات في نشأة الدول وهرمها وذهابها، وهي وإن كانت مقدمات معتمدة على خبرة عصره وما قبله بصورة كبيرة، إلا أنها ما زالت صالحة بعد عصر ابن خلدون ويمكن تطبيقها على حالات جاءت بعد سطر مقدمته.

ونحن هنا لا نريد أن نعيد ما ذكره ابن خلدون كاملًا حتى لا يخرج التمهيد عن مقصده، ولكن سنذكر فقط بأهم ما ذكره في باب: «الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية»، مسقطين ذلك على واقع الحال.

---

(١) البخاري (٤٧٢١)، ومسلم (٤/ ٢١٥٢ رقم ٢٧٩٤).

لقد قرر ابن خلدون في مقدمته عدة أمور منها:

١ - أن الملك والدولة إنما يحصلان بالقبيل والعصبية[١].

والقبيل هنا يمكن أن يكون نسبًا مشتركًا مثل العوائل التي تحكم في الممالك العربية، أو جنسًا مشتركًا يأخذ حكم القبيلة مثل ما وقع لليهود في مستوطنة إسرائيل، أما العصبية، فهي وإن عرفها ابن خلدون على مقتضى وقته، إلا أنها يمكن أن تشمل الآن الأحزاب الكبيرة مثل الحزب الديموقراطي أو الجمهوري في أمريكا، أو عصبية الدين كما هو في الفاتيكان وإيران، أو عصبية اللون كما كان الحال في جنوب أفريقيا.

٢ - أن الدول إذا استقرت وتمهدت قد تستغني عن العصبية[٢]:

ويشبهها في الزمن الحالي تحول الدول للنظام الديموقراطي التعددي، ومنه مثلًا بريطانيا التي مرت بمراحل حتى استغنت عن عصبية الأسرة الحاكمة لصالح التداول الديموقراطي مع بقاء الرمز الجامع ممثلًا في الملكية.

٣- أن الدول العظيمة ترجع في أصل تأسيسها إلى الدين[٣]:

والدين هنا المقصود به المعتقد سواء كان وحيًا أم غيره، فقيام الدولة الإسلامية كان بقوة دفع دينية، وقيام الاتحاد السوفيتي كان بقوة دفع الشيوعية، وكلاهما اعتقاد.

٤ - أن الدعوة الدينية تزيد الدولة قوة حتى وإن أسست على العصبية[٤]:

وذلك أن الدعوة الدينية توحد الهدف خلف الوعد أو الوعيد، وتخاطب

---

(١) مقدمة ابن خلدون (٥٢١-٥٢٢).
(٢) السابق (٥٢٢-٥٢٤).
(٣) السابق (٥٢٦).
(٤) السابق (٥٢٧-٥٢٨).

المشاعر والقلوب كما تخاطب العصبية العقول.

٥- أن الدعوة الدينية بغير عصبة لا تتم[١]:

واستدل لذلك ابن خلدون بما رواه الترمذي وغيره فيما رواه أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «ورحمة اللَّه على لوط إن كان ليأوى إلى ركن شديد، إذ قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[٢] فما بعث اللَّه من بعده نبيًّا إلا في ذروة من قومه»[٣].

ودلل على ذلك بفشل حركات الفقهاء والعلماء في الخروج على السلطان مثلًا، ومنها مثلًا ثورة ابن الأشعث فقد كان فيها كبار الفقهاء، وكانت على أساس ديني، ولكنها هزمت أمام الأمويين.

٦- أن كل دولة لها حصة من الممالك والأرض لا تزيد عليها[٤]:

وذلك أن الدولة لها قدرة بشرية لا بد أن تتناسب مع حجم الأرض، وإلا توزعت وذابت في محيطها.

«فإن تكلفت الدولة بعد ذلك زيادة على ما بيدها بقي دون حامية، وكان موضعًا لانتهاز الفرصة من العدو المجاور، ويعود وبال ذلك على الدولة بما يكون فيه من التجاسر وخرق سياج الهيبة»[٥].

٧- أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة[٦].

---

(١) مقدمة ابن خلدون (٥٢٨-٥٣٢).
(٢) سورة هود: ٨٠.
(٣) الترمذي برقم (٣١١٦).
(٤) مقدمة ابن خلدون (٥٣٢-٥٣٤).
(٥) السابق (٥٣٣).
(٦) مقدمة ابن خلدون (٥٣٤-٥٣٦).

وأعطى ابن خلدون لذلك أمثلة من الدول الإسلامية كالعباسيين في الشرق والأمويين في الأندلس والعبيديين في مصر وأفريقيا وغيرهم.

٨- أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصب قل أن تحكمهم دولة أخرى[١]، ولذلك سهل حكم العراق والشام مثلًا من قبل المسلمين، وكان أكثر صعوبة في بداياته مع البربر في شمال أفريقيا، حتى استقر الإسلام في قلوبهم وصاروا جزءًا من الدولة فصاروا لها لا عليها.

٩- أن من طبيعة الملك الترف والدعة والسكون[٢]:

وذلك أن الملك يقع بالمطالبة والسعي، فإذا حصل انقضى السعي، فإذا حصل الملك أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه وآثروا الراحة والدعة.

١٠- أن الدول لها أعمار مثل البشر لهم أعمار[٣]:

وهنا يؤسس ابن خلدون لما يسميه بالجيل الثالث، والجيل عنده يقدر بأربعين سنة أخذًا من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾[٤]، يقول ابن خلدون: «وإنما قلنا إن عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال، لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها، والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به، وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن، فيصيرون عيالًا على الدولة، ومن

(١) السابق (٥٣٦-٥٣٩).
(٢) السابق (٥٤٠-٥٤١).
(٣) السابق (٥٤٥-٥٤٨).
(٤) سورة الأحقاف: ١٥.

جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم، وتسقط العصبية بالجملة»[١].

فيرى ابن خلدون متوسط عمر الدول هو مائة وعشرين سنة، فإن زادت عن ذلك، فليس بسبب قوتها، بل بسبب خارجي لعدم وجود الطالب، فهي هرمة ولكنها باقية بقوة الدفع الذاتي، وغياب الطامع.

هذه من أهم عشر مقدمات لفهم نشأة الدول وبقائها، ومنها نستطيع أن نقيم تجربة الدول التي قامت على أساس عقدي سواء كان دينيًّا أم غيره.

**المثال الأول: دولة المرابطين:**

تأسست هذه الدولة على أساسين هما الدعوة الدينية، والعصبية القبلية، وعاشت حوالي قرنًا من الزمان، ولكنها أصابها الضعف في الجيل الثالث، وانهارت بسرعة كبيرة أمام دعوة الموحدين التي اعتمدت أيضًا على ذات الأسباب، بعد أن ضعف كلا العاملين اللذين قامت عليهما دولة المرابطين.

**المثال الثاني: الاتحاد السوفيتي:**

تأسس الاتحاد على أساس فكرة الماركسية والاشتراكية، وكانت عصبته هي العمال والفلاحين، ولكنه انهار تمامًا مع الجيل الثالث، بعد أن تفرقت العصبة، وانهارت العقيدة الماركسية لعوامل كثيرة.

أما الدول التي استمرت لأزمنة أطول تاريخيًّا، فإنها لم تقم على أساس فكرة عقدية، بل على أساس عقد اجتماعي يجمع أطيافًا كثيرة فتفيد منه مجموعات كثيرة ذات عصبة أيضًا، يتبادلون على قيادة الدولة فيعطونها مزيدًا من العمر والتعمير.

---

(١) مقدمة ابن خلدون (٥٤٦).

نجد هذا جليًّا في الدولة الرومانية، والدولة العباسية، والدولة العثمانية، وأمريكا ما بعد الحرب الأهلية .

أما الدول التي قامت على أساس الدعوة الدينية مع العصبة المؤسسة مثل مستوطنة إسرائيل، وإيران ما بعد الثورة ١٩٧٩م، وبعض الممالك في العالم الإسلامي، فهي عرضة بصورة كبيرة للقاعدة التي ذكرها ابن خلدون والمتمثلة في «الجيل الثالث» على أن نهاية هذه الدول والممالك قد تكون بصور مختلفة، وذلك باختلاف العوامل المؤثرة في نهايتها، وأشدها عرضة للزوال هي الدولة التي يتحد عليها عوامل الزوال الداخلية والخارجية، والخارجية متمثلة في وجود الطالب[1] .

***

(١) سنتكلم في المبحث الأخير من هذا الكتاب عن مستقبل الصراع الإسلامي الصهيوني، في ضوء هذه الحقائق والمقدمات بصورة تطبيقية واقعية .

# المبحث الأول

## «من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى»

جاء الربط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى في فاتحة سورة الإسراء، وفي سياق تمجيد اللَّه سبحانه، وذكر إنعامه على نبيه ﷺ، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾[١]. وارتبط هذا الجمع بواحدة من أهم البلاغات النبوية، وهي حادثة الإسراء والمعراج، وما وقع فيها من أحداث وأحكام.

هذا الربط الذي ربط بين مكانين، يستدعي أسئلة منها على سبيل المثال: ما المقصود بالمسجد الحرام؟ وما المقصود بالمسجد الأقصى؟ وما الجامع بينهما؟ وهل هذا الربط له علاقة بما مضى؟ أو هو مستمر مستصحب؟ إلى غير ذلك من الأسئلة، والتي سنحاول الإجابة عنها في هذا المبحث.

### أولًا: المسجد الحرام:

اختلف المفسرون في تحديد المقصود بالمسجد الحرام في سياق الآية، فذهب البعض إلى أن المقصود هنا هو كل مكة، ومكة كلها حرم، ومن هؤلاء الفراء الذي قال: «يعني مكة وحرمها»[٢]. وذكر ذلك الجصاص الرازي في أحد الروايتين حيث قال: «لأن الحرم كله مسجد»[٣]، وجزم به السمرقندي، فقال في موضع: «أي: مكة»[٤]، وقال في موضع: «من الحرم من بيت أم هانئ

---

(١) سورة الإسراء: ١.
(٢) معاني القرآن (٢/ ١١٥):
(٣) أحكام القرآن (٥/ ١٧).
(٤) بحر العلوم (٢/ ٢٩٩).

بنت أبي طالب»[١]، وتبعه الثعلبي[٢]، وفصل مكي بن أبي طالب بقوله: «أي المسجد الممنوع من الصيد فيه، لأن الحرم ممنع، والحرم كله مسجد»[٣]، وذكر ذلك الماوردي في أحد وجهيه[٤]، ومثله الطوسي[٥]، وجعله الواحدي هو الوجه بقوله: «يعني مكة، ومكة كلها مسجد»[٦]، ونسب السمعاني ذلك لابن عباس حين قال: «والقول الثاني أنه أسرى به من بيت أم هانئ بنت أبي طالب، وهذا في رواية أبي صالح عن ابن عباس»[٧]، ومن الذين ذكروه وجهًا في التفسير الزمخشري[٨]، وابن عطية[٩]، وابن الجوزي[١٠].

وذهب البعض إلى أن المقصود هنا هو عين المسجد، وهو المقصود عند الإطلاق.

قال الطبري: «وأما قوله: من المسجد الحرام فإنه اختلف فيه وفي معناه، فقال بعضهم: يعني من الحرم، وقال: الحرم كله مسجد... وقال آخرون: بل أسرى به من المسجد، وفيه كان حين أسري به، ... وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، أن يقال: إن اللَّه ﷻ أخبر أنه أسرى بعبده من المسجد الحرام،

---

(١) بحر العلوم (٢/ ٣٠٠).

(٢) الكشف والبيان (٦/ ٥٤، ٥٥).

(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية (٦/ ٤١٢٤).

(٤) النكت والعيون (٣/ ٢٢٥).

(٥) التبيان في تفسير القرآن (٦/ ٤٣٩).

(٦) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي (ص ٦٢٧).

(٧) تفسير السمعاني (٣/ ٢١٣).

(٨) الكشاف (٢/ ٦٠٤، ٦٠٥).

(٩) المحرر الوجيز (٣/ ٤٤٢).

(١٠) زاد المسير (٣/ ٨).

والمسجد الحرام هو الذي يتعارفه الناس بينهم إذا ذكروه»[١].

ونقل الجصاص الرازي هذا المعنى وجهًا في التفسير[٢]، ومثله مكي بن أبي طالب[٣]، والماوردي[٤]، والبغوي[٥]، والزمخشري[٦]، وقال ابن عطية: «وقوله: من المسجد الحرام، قال أنس بن مالك: أراد المسجد المحيط بالكعبة نفسها... وروى الحسن بن أبي الحسن عن النبي عليه الصلاة والسلام: «بينما أنا نائم في الحجر إذ جاءني جبريل» الحديث»[٧]، ونقل ابن الجوزي ذلك باعتباره وجهًا[٨]، ومثله الفخر الرازي[٩]، وقال البقاعي: «أي من الكعبة المشرفة مسجد إبراهيم عليه السلام»[١٠].

والذي في البخاري ومسلم وغيرهما أنه نص على أنه كان عند البيت[١١]، وعند مسلم من حديث أبي ذر أنه كان في بيته قال: «فرج سقف بيتي وأنا بمكة»[١٢]، والأقوى هو ما رواه أنس بن مالك ومالك بن صعصعة، ومفاده أنه أسري به من المسجد الحرام، ويحمل حديث أبي ذر على أنه رحلة أخرى وقع فيها العروج مباشرة، أو أنه أتى الكعبة أولًا: ومنها كان الإسراء.

(١) تفسير الطبري (١٤/ ٤٢٠).
(٢) أحكام القرآن (٥/ ١٧).
(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية (٦/ ٤١٢٤، ٤١٢٥).
(٤) النكت والعيون (٣/ ٢٢٥).
(٥) معالم التنزيل (٥/ ٥٧، ٥٨).
(٦) الكشاف (٢/ ٦٠٥).
(٧) المحرر الوجيز (٣/ ٤٤٢).
(٨) زاد المسير (٣/ ٨).
(٩) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٩٢).
(١٠) نظم الدرر (٤/ ٣٢٨).
(١١) صحيح البخاري (٣٨٨٧)، وصحيح مسلم (١/ ١٤٩ رقم ١٦٤).
(١٢) صحيح مسلم (١/ ١٤٨ رقم ١٦٣).

وجملة (المسجد الحرام) هي تعريف وصفي للبقعة، ولكنه غلب فصار علمًا على المكان، ومثله المسجد النبوي بدلًا من مسجد النبي، والمسجد الأقصى بدلًا من مسجد القدس، والجامع الأزهر، بدلًا من جامع الأزهر.

وكلمة (الحرام) يعني الممنوع، ومنه التحريم والحرمة كما في قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾[١]. أي: صارت ممنوعة، ومنه قول عنترة:

حرمت علي وليتها لم تحرم[٢]

وعلى ذلك فهناك متعلق مقدر بعد كلمة (الحرام)، وهو يحتمل الكثير أي المسجد الحرام القتال فيه، أو البغي فيه، أو الإلحاد فيه، أو الظلم فيه، أو التقاط المتروك فيه، إلى غير ذلك.

فالمسجد الحرام هو الكعبة والفناء المجعول حرمًا لها.

وقد وردت الإشارة للبيت المقدس في القرآن بعدة أسماء هي:

١) الكعبة: ورد ذكرها مرتين وكلتاهما في سورة المائدة: ﴿ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ﴾[٣]، ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾[٤].

٢) البيت: ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾[٥]. وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾[٦].

---

(١) سورة المائدة: ٣.

(٢) ديوان عنترة (ص ٨٣). وذلك أنها كانت زوجة أبيه فصارت ممنوعة عليه، أو لأن حربًا قامت مع قبيلتها فجعلتها ممنوعة.

(٣) سورة المائدة: ٩٥.

(٤) سورة المائدة: ٩٧.

(٥) سورة آل عمران: ٩٦.

(٦) سورة آل عمران: ٩٧.

٣) البيت العتيق: ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾[١].

٤) البيت الحرام: ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾[٢].

٥) المسجد الحرام: ومنه قوله تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾[٣].

وكل هذه الأسماء تدل على المكان الذي جعله اللَّه للصلاة في مكة.

أما ما يخص المسجد الحرام فقد ورد ذكره في القرآن ١٥ مرة، بعضها يدل على المسجد، وبعضها يدل على حرم مكة.

فمن الأول: ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾[٤]. أي: إلى الكعبة، ومن الثاني قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ ﴾[٥]. يعني حرم مكة، ومنه: ﴿ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ ﴾[٦]. وهم أُخرجوا من مكة.

ووصف الكعبة بالمسجد وصف انتشر مع ظهور الإسلام وانتشار القرآن، ولا يكاد يذكر فيما مضى من كلام العرب إلا ما ندر، ومن ذلك قول قيس بن الخطيم في قصيدة له مطلعها[٧]:

رد الخليطُ الجمالَ فانصرفوا ... ماذا عليهم لو أنهم وقفوا

فيقول في أحد أبياتها:

---

(١) سورة الحج: ٢٩.
(٢) سورة المائدة: ٢.
(٣) سورة البقرة: ١٤٤.
(٤) سورة البقرة: ١٤٤.
(٥) سورة البقرة: ١٩١.
(٦) سورة البقرة: ٢١٧.
(٧) ديوان قيس بن الخطيم، ص(٣٨-٤٣)، الأصمعيات (ص ١٩٧، ١٩٨).

واللَّه ذي المسجد الحرام وما جُلِّل من يُمْنَة لها خنف[١]

إني لأهواك غير ذي كذب قد شفَّ مني الأحشاء والشغف

وقوله: ذي المسجد الحرام أي: صاحب البيت الحرام، وكانوا كثيرًا ما يحلفون بالكعبة تغليظًا للأيمان فيقول: والكعبة، والبيت، أو ربما أضافوا لها لفظ الخالق فقالوا: ورب الكعبة، أو ورب البيت.

وقيس بن الخطيم من الشعراء المخضرمين، إذ أدرك الإسلام، ولم يسلم، ونُقِلَ أنه نوى الإسلام من قابل، ولكنه قُتِلَ قبل أن يشهر إسلامه، وذلك قبل هجرة النبي ﷺ بسنة، قال المرزباني: «وقدم قيس على النبي ﷺ بمكة فعرض عليه الإسلام، فقال: إني لأعلم أن الذي تأمرني به خير مما تأمرني به نفسي، وفيها بقية من ذاك، فأذهب فأستمتع من النساء والخمر، وتقدم بلدنا فأتبعك، فقتل قبل أن يتبعه»[٢].

ولعله تأثر بتعاليم الإسلام في هذه الفترة، فقد كان مصعب بن عمير قد هاجر واستعمل دار أسعد بن زرارة، أو منطقة البياضة في المدينة المنورة لإقامة الجمعة، كما أن من ينظر إلى شعره يجد به ما يوافق النص القرآني، ومن ذلك قوله:

متى ما تقُد بالباطل الحق يأبه وإن قدت بالحق الرواسي تنقد[٣]

وقوله:

وكل شديدة نزلت بقوم سيأتي بعد شدتها رخاء[٤]

---

(١) الخنف: الثياب من الكتان، واليمنة: ضرب من ثياب اليمن، والكل أوصاف في سياق القسم.

(٢) معجم الشعراء: (ص ٢٣٨).

(٣) ديوان قيس بن الخطيم: (ص ١٣٠)، وهو يشبه: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾.

(٤) السابق (ص ١٥٦)، وهو يشبه: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾.

أما البيت نفسه فقد اختلف في تاريخ بنائه، ومن بناه لأول مرة، فقيل: إن أول من بناه هم الملائكة ليكون لآدم وذريته بيتًا في الأرض، كالذي شاهده آدم في مرحلة الخلق في السماء، وقد ذكر ذلك الأزرقي في أخبار مكة(١)، وقد روى فيه رواية طويلة لا تصح.

وقيل: إن أول من بناه هو آدم نفسه، نقله الأزرقي ونسبه لابن عباس حيث قال: «فكان أول من أسس البيت وصلى فيه وطاف به آدم حتى بعث اللَّه الطوفان»(٢)، وهذه الرواية أيضًا لا تصح.

وقيل: إن أول من بنى الكعبة هو شيث بن آدم أو بعض أبناء آدم، نقل ذلك الأزرقي أيضًا في رواية عن وهب بن منبه أنه قال: «لما رفعت الخيمة التي عزى اللَّه بها آدم عليه السلام من حلية الجنة حين وضعت له بمكة في موضع البيت، ومات آدم عليه السلام فبنى بنو آدم من بعده مكانها بيتًا بالطين والحجارة، فلم يزل معمورًا يعمرونه هم ومن بعدهم، حتى كان زمن نوح عليه السلام فنسفه الغرق وغير مكانه، حتى بُوِّئَ لإبراهيم عليه السلام»(٣).

والحقيقة أن كل هذه الأخبار لا تسلم من الطعن في السند وأحيانًا في السند والمتن(٤)، وقد خلا القرآن من الإشارة إلى هذه البنايات، وأول ما ذكره القرآن هو بناء إبراهيم عليه السلام المذكور في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾(٥)، وقد بناها إبراهيم عليه السلام من الحجارة وجعل

(١) أخبار مكة (ص ٦٨-٧٠)، وانظر: شفاء الغرام للفاسي (١/ ٣٤٤)، والروض الأنف (٢/ ١٧٤ - ١٧٥)، والدر المنثور (١/ ٣١٠).

(٢) أخبار مكة (ص ٧٣)، وانظر: شفاء الغرام للفاسي (١/ ١٧٦).

(٣) أخبار مكة (ص ٩٤)، وذكره البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٣٥)، والفاسي في شفاء الغرام (١/ ١٧٧-١٧٨).

(٤) المقدمة لابن خلدون (ص ٨٥٥).

(٥) سورة البقرة: ١٢٧.

لها بابين، ونزل جبريل بالحجر الأسود فوُضِعَ في مكانه من الركن[١].

قال ابن كثير: «فإن ظاهر القرآن يقتضي أن إبراهيم أول من بناه مبتدئًا، وأول من أسسه، وكانت بقعة معظمة قبل ذلك معتنًى بها مشرفة في سائر الأعصار والأوقات»[٢].

وقال: «ولم تجئ في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنيًّا قبل الخليل، ومن تمسك في هذا بقوله «مكان البيت، فليس بناهض ولا ظاهر»، لأن المراد مكانه المقدر في علم اللَّه، المقرر في قدرته، المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم»[٣].

وقد وقع بناء للكعبة بعد ذلك لأسباب متنوعة قبل الإسلام وبعده، ومنه بناء العماليق وجرهم، وبناء قريش قبل الإسلام بخمس سنين، ومنه بعد الإسلام بناه ابن الزبير فترة خلافته على مكة، وبناء الحجاج، وبناء العثمانيين.

وقد كان البيت في سلطان العرب منذ بنائه، وبقي ذلك في أبناء إسماعيل حتى مجيء الإسلام فانتقل للمسلمين بحق الفتح في السنة الثامنة من الهجرة، وبقي في سلطانهم حتى الساعة.

وعند إطلاق كلمة «المسجد الحرام» فإنها تنصرف إلى الكعبة وما حولها من مكان الصلاة والطواف والسعي، وصرفها إلى مطلق الحرم المكي يحتاج إلى قرينة، وعلى هذا فمن قال: علي نذر أن أصلي في المسجد الحرام، فلا ينفعه الصلاة في منى أو مزدلفة، أو غيرها من حدود حرم مكة، بل يلزمه الصلاة فيما يعرف بالمسجد الحرام عرفًا.

---

(١) تاريخ الكعبة المعظمة (٧٠-٧٩).

(٢) البداية والنهاية (٣/ ٤٧٥).

(٣) السابق (١/ ٣٧٨).

**ثانيًا: المسجد الأقصى:**

ذهب جمهور المفسرين إلى أن المقصود بـ«المسجد الأقصى» في الآية، هو بيت المقدس، وهم يقصدون مسجد بيت المقدس كما صرح بعضهم، وسأنقل هنا بعض ما جاء في كتب التفسير:

مقاتل بن سليمان: «يعني بيت المقدس»(١).

يحيى بن سلام: «يعني بيت المقدس»(٢).

الفراء: «إلى المسجد الأقصى بيت المقدس»(٣).

الطبري: «وقوله إلى المسجد الأقصى يعني: مسجد بيت المقدس، وقيل له الأقصى لأنه أبعد المساجد التي تزار»(٤).

السمرقندي: «إلى المسجد الأقصى أي الأبعد، يعني: إلى مسجد إيلياء وهو بيت المقدس»(٥).

وجرى على هذا ابن أبي زمنين(٦)، والثعلبي(٧)، ومكي في الهداية(٨)، أما الماوردي فقد فصل القول فقال: «إلى المسجد الأقصى يعني بيت المقدس وهو مسجد سليمان بن داود عليهما السلام، وسمي الأقصى لبعد ما بينه وبين المسجد الحرام»(٩).

---

(١) تفسير مقاتل (٢/ ٥١٣).
(٢) تفسير يحيى بن سلام (١/ ١٠١).
(٣) معاني القرآن (٢/ ١١٥).
(٤) تفسير الطبري (١٤/ ٤٢٠).
(٥) بحر العلوم (٢/ ٣٠٠).
(٦) تفسير ابن أبي زمنين (٣/ ٥).
(٧) الكشف والبيان (٦/ ٥٥).
(٨) الهداية إلى بلوغ النهاية (٦/ ٤١٣١).
(٩) النكت والعيون (٣/ ٢٢٥).

وفسره الزمخشري أيضًا بأنه: «بيت المقدس لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد»[١].

ومثل ذلك البيضاوي[٢]، والنسفي[٣]، وابن عطية[٤]، وابن الجوزي[٥]، ونقل الفخر الرازي اتفاق المفسرين وأهل اللغة على أنه بيت المقدس[٦]، كما فصل البقاعي بقوله: «إلى المسجد الأقصى، أي الذي هو أبعد المساجد حينئذ، وأبعد المسجدين الأعظمين مطلقًا من مكة المشرفة، بينهما أربعون ليلة»[٧].

وقال ابن عجيبة: «إلى المسجد الأقصى لأن هناك الآية الكبرى، من بركة أنوار تجلية لأرواح الأنبياء، وأشباههم، وهناك بقربه طور سيناء، وطور زيتا، والمصيصة، ومقام إبراهيم وموسى وعيسى، وفي تلك الجبال مواضع كشوف الحق»[٨].

وقال محمد أبو زهرة: «والمسجد الأقصى هو بيت القدس، قيل: إن الذي بناه يعقوب بن إسحاق عليهما السلام، ومهما يكن تاريخ بنائه فهو مسجد مقدس»[٩]، وقال محمد سيد طنطاوي: «من المسجد الحرام الذي بمكة، إلى المسجد الأقصى الذي بفلسطين، ووصف مسجد فلسطين بالأقصى لبعده

(١) الكشاف (٢/ ٦٠٦).
(٢) أنوار التنزيل (٣/ ٢٤٧).
(٣) مدارك التنزيل (٢/ ٢٤٥).
(٤) المحرر الوجيز (٣/ ٤٤٣).
(٥) زاد المسير (٣/ ٨).
(٦) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٩٢).
(٧) نظم الدرر (٤/ ٣٢٨، ٣٢٩).
(٨) البحر المديد (٣/ ١٨٢).
(٩) زهرة التفاسير (٨/ ٤٣١٩).

عن المسجد الحرام»[١].

وقال الطباطبائي: «هو بيت المقدس بقرينة قوله: ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾»[٢].

والسؤال هنا: هل المسجد الأقصى هو بيت المقدس؟

إذا نظرنا إلى ما ورد في القرآن نجد أن الإشارة الوحيدة للأقصى وبهذه التسمية وردت في سورة الإسراء، وأن كلمة بيت المقدس لم ترد في القرآن بلفظها.

أما في السنة فنجد أن النبي ﷺ استعمل بيت المقدس لمعنى خاص وهو المسجد ومحيطه، ومعنى عام وهو مدينة القدس.

فمن المعنى الخاص ما رواه مسلم من حديث أنس في الإسراء، قال: «فركبته حتى أتينا بيت المقدس، قال فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء، قال: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين...»[٣].

ومن المعنى الخاص أيضًا حديث عبد اللَّه بن عمر عند البخاري وفيه: عن عبد اللَّه بن عمر أنه كان يقول: إن ناسًا يقولون: إذا قعدت على حاجتك فلا تستقبل القبلة ولا بيت المقدس، فقال عبد اللَّه بن عمر: لقد ارتقيت يومًا على ظهر بيت لنا، فرأيت رسول اللَّه ﷺ على لبنتين، مستقبلًا بيت المقدس لحاجته[٤].

أما المعنى العام فمنه ما رواه البخاري من حديث عوف بن مالك

---

(١) التفسير الوسيط (٨/ ٢٨٢).
(٢) الميزان في تفسير القرآن (١٣/ ٧).
(٣) صحيح مسلم (١/ ١٤٥ رقم ١٦٢).
(٤) صحيح البخاري (١٤٥).

الأشجعي قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة من أدم، فقال: «اعدد ستًّا بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس»(١). ويقصد هنا مدينة إيلياء لا عين البقعة.

ومنه أيضًا ما جاء في حديث النواس بن سمعان عن مسلم وهو خبر طويل وفيه يقول ﷺ: «من خبر آخر الزمان، ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر، وهو جبل بيت المقدس»(٢).

ومنه ما رواه سمرة بن جندب أن النبي ﷺ قال: «إنكم تحشرون إلى بيت المقدس ثم تجمعون يوم القيامة»(٣).

وبالنظر إلى استعمالهم لهذين العلمين «المسجد الأقصى» و«بيت المقدس»، نجد أن أكثر الاستعمال يشير إلى أنهما شيء واحد، وأن التوسع في الإشارة لمدينة القدس ببيت المقدس، هو نفسه من باب التوسع في استعمال المسجد الحرام للإشارة إلى حرم مكة، وأن من قصد الصلاة أو نذرها في بيت المقدس فلا يوفي قصده أو نذره إلا أن يصلي في المسجد الأقصى، وليس سائر المدينة، والدليل على ذلك ما رواه مسلم بسنده عن ابن عباس قال: «إن امرأة اشتكت شكوى، فقالت: إن شفاني اللَّه لأخرجن فلأصلين في بيت المقدس، فبرأت ثم تجهزت تريد الخروج، فجاءت ميمونة زوج النبي ﷺ فأخبرتها ذلك، فقالت: اجلسي فكلي ما صنعت وصلي في مسجد الرسول»(٤).

وعلى هذا يكون استعمال المسجد الأقصى إشارة إلى بيت اللَّه المقدس،

(١) صحيح البخاري (٣١٧٦).
(٢) صحيح مسلم (٤/ ٢٢٥٥ رقم ٢٩٣٧).
(٣) أخرجه البزار في مسنده (٤٦٧٠)، والطبراني في المعجم الكبير (٧/ ٢٦٤ رقم ٧٠٧٦).
(٤) صحيح مسلم (٢/ ١٠١٤ رقم ١٣٩٦).

كما كان استعمال المسجد الحرام إشارة إلى بيت اللَّه الحرام.

أما عن تاريخ بناء بيت المقدس أو المسجد الأقصى، فقد اختلفت الروايات في ذلك أيضًا ومنها:

من ذكر أن المسجد الأقصى قد بني منذ العهد الأول للخليقة، ونقل ابن الجوزي ما ذكره ابن عساكر أن من أسس المكان هو سام بن نوح، والأساس الذي أسسه سام بن نوح عليهما السلام ثم بناه داود وسليمان عليهما السلام(١).

وقال ابن الجوزي: «ثم روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن آدم عليه السلام أول من أسس وصلى فيه -أي البيت الحرام- وطاف به، ثم درس موضع البيت من الطوفان حتى بعث اللَّه إبراهيم وإسماعيل فرفعا قواعده، وإذا كان الأمر كذلك، وكان بينه وبين المسجد الأقصى أربعون سنة، كان ابتداء المسجد الأقصى قبل سام عليه السلام»(٢).

ونقل أيضًا أن الذي بنى المسجد أولًا بعض أولياء اللَّه قبل سليمان، قال ابن الجوزي: «ونبه الإمام الخطابي في كتاب الأعلام(٣) له على أن من بنى المسجد بعض أولياء اللَّه تعالى قبل داود وسليمان عليهما السلام، ثم بناه داود وسليمان وزادا قبة ووسعاه»(٤).

وذكر مجير الدين الحنبلي في الأنس الجليل عدة روايات حيث قال: «وقد اختلف في أول من بنى مسجد بيت المقدس قبل داود عليه السلام، فروى بعض

(١) تاريخ بيت المقدس (ص ٣٦-٣٧).
(٢) تاريخ بيت المقدس (ص ٣٧).
(٣) الخطابي هو: أبو سليمان حمد بن محمد المتوفى سنة ٣٨٨هـ، والكتاب هو أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري، وقد طبعته جامعة أم القرى (١٤٠٨هـ).
(٤) تاريخ بيت المقدس (ص ٣٧).

العلماء أن أول من بناه الملائكة بأمر اللَّه تعالى، ويقال: إن الذي بناه إسرافيل عليه السلام»[١].

وقال في موضع آخر: «قال أبو العباس القرطبي: يجوز أن يكون بناه، - يعني مسجد بيت المقدس- الملائكة بعد بنائها البيت المعمور بإذن اللَّه تعالى، وظاهر الحديث[٢] يدل على ذلك»[٣].

وقال: «ومن العلماء من قال: بنى بيت المقدس آدم عليه السلام، ومنهم من قال: أسسه سام بن نوح عليهما السلام»[٤].

وينقل الحنبلي في الأنس الجليل أيضًا قصة تزعم أن الذي بناه هو يعقوب عليه السلام، وفيها: «أن أباه إسحاق أمره ألا ينكح امرأة من الكنعانيين، وأمره أن ينكح من بنات خاله، فلما توجه إلى خاله لينكح ابنته أدركه الليل في بعض الطريق فبات متوسدًا حجرًا فرأى فيما يرى النائم أن سلمًا منصوبًا إلى باب من أبواب السماء، والملائكة تعرج فيه وتنزل، فأوحى اللَّه إليه: إني أنا اللَّه لا إله إلا أنا، وقد ورثتك هذه الأرض المقدسة، وذريتك من بعدك، ثم أنا معك أحفظك حتى أردك إلى هذا المكان فاجعله بيتًا تعبدني فيه، فهو بيت المقدس»[٥].

ولا يخفى ضعف ما في هذه الرواية، وظهور انتحال الروايات الإسرائيلية فيها، فالواقع يقول: إن يعقوب وبنيه كانوا يعيشون في الصحراء وليس المدينة، وهو ظاهر في سورة يوسف: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾[٦]، وكذلك لم يورث

(١) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (١/ ٢٩).
(٢) يعني حديث أبي ذر: وسنذكره بعد.
(٣) الأنس الجليل: (١/ ٢٩).
(٤) السابق.
(٥) السابق.
(٦) سورة يوسف: ١٠٠.

يعقوب هذه الأرض البتة، لا هو ولا أبناؤه ولا أجيال بعدهم، بل خرجوا إلى مصر، ومات يعقوب وأبناؤه فيها، فلمن أقام هذا البيت؟ والذي يبدو أن أهل الرواية والإخباريين هم الذين روجوا لهذا، وما ذاك إلا لظاهر معنى حديث أبي ذر حيث نص أن الفارق الزمني بين بناء المسجد الحرام والمسجد الأقصى، أربعون سنة، ولما كان إبراهيم هو من بنى المسجد الحرام مع ابنه إسماعيل في مكة، فيكون يعقوب هو من بنى المسجد الأقصى في القدس الشريف بعد أربعين سنة، وقد قلنا: إن يعقوب لم يكن له سلطان في فلسطين، وفلسطين كانت في حكم اليبوسيين في ذلك الوقت، والأغلب أنهم كانوا من عبدة الأصنام، فكيف يقيم معبدًا كبيرًا للرب بينهم وفي عاصمتهم؟

أما ابن خلدون فيقول في المقدمة: «وأما بيت المقدس وهو المسجد الأقصى فكان أول أمره أيام الصابئة موضع الزهرة[١]، وكانوا يقربون إليه الزيت فيما يقربونه، يصبونه على الصخرة التي هناك، ثم دثر ذلك الهيكل، واتخذها بنو إسرائيل حين ملكوها قبلة لصلاتهم»[٢].

وقد ذهب الطاهر بن عاشور إلى أن أول لبنة في المسجد كانت على زمن سيدنا إبراهيم ونقل عن سفر التكوين[٣] في الإصحاح الثاني عشر: «أن إبراهيم لما دخل أرض كنعان وهي بلاد فلسطين نصب خيمته في الجبل شرقي بيت إيل (بيت إيل مدينة على بعد أحد عشر ميلًا من أورشليم إلى الشمال وهو بلد كان اسمه عند الفلسطينيين «لوزا»، فسماه يعقوب: بيت إيل..) وغربي بلاد عاي (مدينة عبرانية تعرف الآن «الطيبة»)، وبنى هناك مذبحًا للرب، وهم يطلقون المذبح على المسجد... ولا شك أن مسجد

(١) الكوكب الثاني من جهة الشمس، أي موضع عبادة الكوكب.
(٢) مقدمة ابن خلدون (٨٦١).
(٣) راجع سفر التكوين: الإصحاح الثاني عشر: الآيات (١-٨).

إبراهيم هو الموضع الذي توخى داود عليه السلام أن يضع عليه الخيمة وأن يبني عليه محرابه، أو أوحى اللَّه إليه بذلك، وهو الذي أوصى ابنه سليمان عليه السلام أن يبني عليه المسجد»(١).

وذكر البعض أن الذي بنى المسجد هو داود عليه السلام وابنه سليمان من بعده:

قال السيوطي في الدر المنثور: «وقال الواسطي عن وهب بن منبه قال: إن داود عليه السلام أراد أن يعلم عدد بني إسرائيل كم هم، فبعث نقباء وعرفاء وأمرهم أن يرفعوا إليه ما بلغ عددهم، فعتب اللَّه عليه لذلك... فمات منهم في ساعة ألوف كثيرة ما يُدرى عددهم... ورفع عنهم الموت، فرأى داود عليه السلام الملائكة عليهم السلام سالين سيوفهم يغمدونها، يرفعون في سلم من ذهب من الصخرة، فقال داود: هذا مكان ينبغي أن يبنى فيه للَّه مسجد أو تكرمة، وأراد أن يأخذ في بنائه، فأوحى اللَّه إليه، هذا بيت المقدس، وإنك بسطت يدك في الدماء فلست ببانيه، ولكن ابن لك بعدك اسمه سليمان أسلمه من الدماء...»(٢).

ولا يخفى طبعًا تأثر الواسطي بالرواية الإسرائيلية والنقل عنها، والقصة التي ذكرها ونقلها السيوطي مذكورة بتمامها في سفر صموئيل الثاني. الإصحاح ٢٤، وهي قصة أيضًا تناقض التوراة في موضع آخر حيث أمر اللَّه موسى بإحصاء بني إسرائيل ولم يعتب عليه، وجاء ذلك في سفر العدد، في الإصحاح الأول والثاني.

ويروي السيوطي قصة أخرى تشير إلى نية داود بناء بيت الرب وحرمانه من ذلك، وهي جزء من قصة توسعة المسجد النبوي الشريف، وما وقع بين الخليفة عمر بن الخطاب والعباس حين أراد عمر أن ينزع عنه بيته ليضمه إلى

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ١٦).

(٢) الدر المنثور (٩/ ٢٣٣).

المسجد فأبى عليه فحكما أبي بن كعب، فروى لهم هذه القصة: «إن اللَّه أوحى إلى داود: ابن لي بيتًا أذكر فيه، فخط له هذه الخطة، فإذا بربعها زاوية بيت من بني إسرائيل، فسأل داود أن يبيعه إياه، فأبى، فحدث داود نفسه أن يأخذه منه، فأوحى اللَّه إليه: أن يا داود أمرتك أن تبني لي بيتًا أذكر فيه، فأردت أن تدخل في بيتي الغصب، وليس من شأني الغصب، وإن عقوبتك ألا تبنيه، قال: يا رب فمن ولدي. قال من ولدك»[(١)]، وهذه الرواية وردت من عدة طرق كلها ضعيفة، فذكرها ابن سعد[(٢)]، وابن عساكر[(٣)]، ويعقوب الفسوي[(٤)]، ومدار الرواية على علي بن زيد بن جدعان، ضعفه أبو زرعة، وأبو حاتم، والبخاري، وابن خزيمة، وابن عيينة، ويحيى بن سعيد، وأحمد بن حبل، والعجلي، والدارقطني، والذهبي[(٥)].

كما أن هذه القصة رويت بتقارب شديد ولكنها استبدلت سليمان بداود، فكان سليمان هو الذي أُمر وهم بشراء البيت، والرواية عند ابن حزم في المحلى وفيها يقول أبي بن كعب في حكمه: «لما أمر سليمان ببناء بيت المقدس كانت أرض لرجل اشتراها منه سليمان، فلما اشتراها قال الرجل: الذي أخذت منك خير أم الذي أعطيتني؟ قال سليمان: بل الذي أخذت منك، قال: فإني لا أجيز البيع. فرده، فزاده ثم سأله فأخبره، فأبى أن يجيزه، فلم يزل يزيده ويشتري منه فيسأله فيخبره، فلا يجيز البيع حتى اشتراها منه بحكمه، على ألا يسأله، فاحتكم شيئًا كثيرًا، فتعاظمه سليمان، فأوحى اللَّه إليه: إن كنت

(١) الدر المنثور (٩/ ٢٣٦).
(٢) طبقات ابن سعد (٤/ ١٥).
(٣) تاريخ دمشق (٢٦/ ٣٦٧).
(٤) المعرفة والتاريخ (١/ ٥١٢).
(٥) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٠٦-٢٠٨).

إنما تعطيه من عندك فلا تعطه، وإن كنت إنما تعطيه من رزقنا فأعطه حتى يرضى»[١].

ولا يخفى ما في هذه الرواية أيضًا من الضعف، ففضلا عما فيها من جهة السند من الإرسال بين سعيد بن المسيب والصحابي أبي بن كعب، كما نص على ذلك الذهبي[٢]، فإن فيها ما يقدح في المتن وهو مساومة نبي اللَّه سليمان لرجل يجهل القيمة، وقبول سليمان أن يغبن الرجل مرات، وفيها استكثار الثمن مع أن اللَّه أعطاه ملكًا لا يكون لأحد من بعده، وكانت الجن مسخرة بأمره، فأظهرته الرواية ممسكًا شحيحًا مع ما أعطاه اللَّه، وهذه لا تكون صفة لنبي.

وقد وردت روايات صحيحة وضعيفة تذكر أن سليمان بنى بيتًا له في القدس الشريف، وأنه بيت المقدس.

منها: ما رواه عبد اللَّه بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «إن سليمان بن داود عليه السلام سأل اللَّه ثلاثا، أعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن تكون له الثالثة: فسأله حكما يصادف حكمه، فأعطاه اللَّه إياه، وسأله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه إياه، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه، فنحن نرجو أن يكون اللَّه عز وجل قد أعطاه إياه»[٣].

ولم يذكر القرآن مسألة بناء داود أو سليمان عليهما السلام بيت المقدس كما ذكر بناء المسجد الحرام على يد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام،

---

(١) المحلى بالآثار (٧/ ٢٣٥-٢٣٦).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢١٨).
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦٦٤٤)، والنسائي في سننه (٦٩٣).

والسنة أيضًا وإن ذكرت مسألة البناء إلا أنه لم يرد في حديث صحيح تفصيل مسألة البناء، اللهم إلا بعض الأوصاف في روايات حكم عليها بالضعف.

وقد نقل كثير ممن كتب روايات وأوصاف في بناء بيت المقدس في عهد سليمان بن داود عليهما السلام، كلها مأخوذة من العهد القديم ومن روايات إسرائيلية[١].

لكنه استوقفني وصف البناء لبيت الرب في سفر الأيام الثاني[٢]، وفيه أن سليمان أحضر سبعين ألف رجل حمال، وثمانين ألف رجل نحات في الجبل، وعليهم وكلاء ٣٦٠٠، وأرسل لملك صور فأرسل له الأرز والبخور إلى غير ذلك، ومع ذلك فقد جاء البيت بطول ستين ذراعًا وعرضه عشرون ذراعًا، كما جاء في الإصحاح الثالث، فإذا اعتمدنا أن الذراع التوراتي يساوي ١٧,٥ بوصة، فيكون طول المعبد حوالي ١٠٥٠ بوصة وهو ما يساوي ٢٦,٦٧ مترًا، وثلث ذلك للعرض، وهذه مساحة صغيرة جدًّا قياسًا بقدرة النبي سليمان، وقياسًا بالأعداد التي عملت في بناء المعبد، لا سيما إن علمنا أن العمل قد استمر لسبع سنوات.

وهذا ما دفع جوستاف لوبون أن يقول: «هيكل سليمان المشهور الذي نشر حوله الكثير من الأبحاث المملة لا يزيد عن بناء متواضع أقيم على الطراز الأشوري- المصري من قبل بنائين أجانب كما تدل عليه التوراة»[٣].

ويقول ديورانت في قصة الحضارة: «ولم يكن هذا الهيكل كنيسة بالمعنى الصحيح، بل كان سياجًا مربعًا يضم عدة أجنحة، ولم يكن بناؤه الرئيسي كبير

(١) راجع سفر أخبار الأيام الأول: «الإصحاح ٢٢».
(٢) راجع سفر أخبار الأيام الثاني: الإصحاح الثاني والثالث والرابع.
(٣) اليهود في تاريخ الحضارات الأولى (ص ٣٥).

الحجم، فقد كان طوله حوالي مائة وأربعة وعشرين قدمًا، وعرضه حوالي خمسة وخمسين قدمًا، وارتفاعه اثنتين وخمسين»[١]، ويقول: «كان هؤلاء العبرانيون يعتقدون أنه إحدى عجائب الدنيا، ومن حقهم علينا ألا نلومهم على هذا الاعتقاد، لأنهم لم يروا هياكل طيبة وبابل ونينوى التي لا يعد هيكلهم إلى جانبها شيئًا مذكورًا»[٢].

وقد تعرض هذا البناء للتدمير في عهود لاحقة فقد دمره نبوخذنصر البابلي، وأعيد بناء بعضه ثم دمره الرومان بعد ذلك، ولم يبق منه إلا جزء صغير في منطقة الصخرة، فلما تحولت هيلانة أم الإمبراطور الروماني قسطنطين إلى المسيحية اعتبرت اليهود من أشد أعدائها، فزارت أورشليم، وأمرت أن تتحول منطقة المعبد إلى مزبلة تلقى فيها القمامة، وصارت إلى ذلك حتى جاء الفتح الإسلامي[٣].

بعد الفتح الإسلامي وانعقاد الصلح مع نصارى المدينة، قام الخليفة عمر ومعه جيش الفتح بتنظيف المنطقة، وقد جمع المنهاجي السيوطي الروايات المتنوعة التي تحدثت عن فتح إيلياء ومجيء عمر وما وقع بينه وبين أهل المدينة من عهد في كتابه «إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى»[٤]، ما يغنينا عن إعادة الكلام، كما أنه موثق في كتب التاريخ والسير.

وقد روى الوليد بن مسلم عن شيخ من ولد شداد بن أوس عن أبيه عن جده قصة دخول عمر رضي اللَّه عنه للقدس الشريف والصلاة في محراب

---

(١) قصة الحضارة (٢/ ٣٣٥).
(٢) قصة الحضارة (٢/ ٣٣٥).
(٣) انظر: التحرير والتنوير (١٥/ ١٧).
(٤) إتحاف الأخصا (١/ ٢٢٥-٢٣٥).

داود، وهذه القصة أيضًا ذكرها الطبري[١]، وذكرها الحسن المهلبي صاحب المسالك والممالك[٢]، ومجير الدين الحنبلي[٣]، وغيرهم، وفيها أن عمر سأل صفرونيوس بطريرك القدس أن يدله على مسجد بيت المقدس، ولما وصل إليه قال عمر: هذا والذي نفسي بيده الذي وصفه لنا رسول اللَّه ﷺ[٤]، وفي رواية أخرى: «هذا والذي لا إله إلا هو مسجد سليمان بن داود الذي أخبرنا رسول اللَّه ﷺ أنه أسري به إليه»[٥].

بعد تنظيف المكان الذي كان فيه مسجد سليمان، لم يقم عليه المسجد حتى جاء زمن عبد الملك بن مروان فبنى القبة[٦] المعروفة والتي هي جزء من الحرم القدسي الشريف.

فلما جاء عهد الوليد أعاد بناء المسجد الأقصى وجعل له صورته، وقد كان عهد الوليد هو عهد الفتوحات والخيرات وقد سبل له خراج مصر لسنين لينفق على البناء والتوسعة.

وقال البعض: إن العمل كله تم في عهد عبد الملك بن مروان واستمر لسنوات تحت إشراف رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام، وقد اشتمل البناء على سقف من ستة آلاف خشبة، واحتوى المسجد على خمسين بابًا، وستمائة عمود من الرخام، واشتمل على سبعة محاريب، وخمسة آلاف قنديل للإضاءة، وخمس عشرة قبة غير قبة الصخرة، وكان يقوم على الخدمة

---

(١) تاريخ الرسل والملوك (٣/ ٦١٠، ٦١١).
(٢) المسالك والممالك (ص ٨١).
(٣) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (١/ ٢٥٦).
(٤) إتحاف الأخصا (١/ ٢٣٦).
(٥) إتحاف الأخصا (١/ ٢٣٧).
(٦) تاريخ اليعقوبي (٢/ ٢٦١).

ثلاثمائة خادم[١].

وقد وقعت عدة ترميمات للمسجد الأقصى منذ بناء الأسرة المروانية، ووقع الاهتمام به من جملة من الحكام العباسيين والفاطميين والأيوبيين والعثمانيين.

بقي المسجد الأقصى تحت سلطان المسلمين منذ الفتح، ولم يخرج عن سلطانهم إلا فترة الحروب الصليبية مدة تسعين سنة، حتى حرره صلاح الدين، ومدة عشر سنوات وقت الكامل الأيوبي، واسترده ولده الصالح نجم الدين بمعاونة الخوارزميين، وفي سنة ١٩١٧ احتلت بريطانيا فلسطين وفرضت الحماية على فلسطين حتى سنة ١٩٤٨، وانتقلت ولاية الحرم القدسي للأردن حتى عام ١٩٦٧ حين احتل الصهاينة باقي مدينة القدس وفيها الحرم الشريف.

**والحرم القدسي يشمل:**

١) المسجد الأقصى المسقوف المعروف.

٢) المسجد القديم ويقع أسفل المسجد المسقوف.

٣) قبة الصخرة.

٤) المصلى المرواني.

## ثالثًا: الجمع بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى في القرآن والسنة:

جمعت النصوص القرآنية والنبوية بين المسجدين في مواطن ولأغراض متنوعة، ولهذا الربط دلالته:

ومن هذه النصوص آية سورة الإسراء والتي جعلت أحدهما مبتدأ والثاني منتهى لرحلة الإسراء المشهورة.

---

(١) الأنس الجليل (١/ ٢٨٠، ٢٨١)، إتحاف الأخصا (١/ ٢٤٤).

ومنها أيضًا ما ورد بالإشارة وليس بالتصريح في سورة التين من الجمع بين التين والزيتون والبلد الأمين، وقد أشار جمع من أهل التفسير إلى العلاقة بين المذكورين وأن المقصود هو مكان المسجد الأقصى وحاضنة المسجد الحرام.

قال الصنعاني: «عن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ﴾ قال: الجبل الذي عليه دمشق، ﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾ الذي عليه بيت المقدس»(١).

وعن محمد بن كعب قال: «التين» مسجد أصحاب الكهف، و«الزيتون» مسجد إيلياء(٢)، ونقل مثل ذلك إمام الهدى(٣).

**ومن نصوص السنة:**

ما رواه البخاري ومسلم بسندهما عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: عن النبي ﷺ أنه قال: «تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي والمسجد الأقصى»، قال سفيان: «ولا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد سواء»(٤).

ومنه ما رواه البخاري ومسلم بسنديهما عن أبي ذر قال: قلت يا رسول اللَّه، أي مسجد وضع في الأرض أولًا؛ قال: «المسجد الحرام» فقلت: يا رسول اللَّه، ثم أي؟ قال: «ثم المسجد الأقصى»، قلت: كم كان بينهما، قال: «أربعون سنة»(٥).

---

(١) تفسير الصنعاني (٢/ ٣٨٢).
(٢) تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٤٤٧).
(٣) تأويلات أهل السنة (١٠/ ٥٧١).
(٤) صحيح البخاري (١١٨٩)، صحيح مسلم (٢/ ١٠١٤ رقم ١٣٩٧).
(٥) صحيح البخاري (٣٣٦٦)، صحيح مسلم (١/ ٣٧٠ رقم ٥٢٠).

ومنه ما رواه أحمد بسنده عن ابن عباس قال: «كان رسول اللَّه ﷺ يصلي وهو بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه»(١).

ومنه ما رواه أحمد بسنده عن رجل من أصحاب رسول اللَّه ﷺ ما ذكره في قصة الدجال وأنه لا يأتي أربعة مساجد: الكعبة ومسجد الرسول والمسجد الأقصى والطور(٢).

ومنه أن من نذر الصلاة في الأقصى أجزأته الصلاة في الحرم المكي كما في حديث جابر: أن رجلًا قال يوم الفتح: يا رسول اللَّه، إني نذرت إن فتح اللَّه عليك مكة أن أصلي في بيت المقدس. فقال: «صل ههنا»(٣).

**رابعًا: الذي باركنا حوله:**

وهذا وصف بيان لئلا ينصرف المعنى إلى أي مسجد بعيد، وقد تنوعت التفاسير في ذكر أنواع البركة.

قال الفراء: «بالثمار والأنهار»(٤).

وقال إمام الهدى: «سماه مباركًا لكثرة أنزاله وخيراته وسعته، وقيل: سماه مباركًا لأنه مكان الأنبياء ومقامهم، فبورك فيه، ببركتهم ويمنهم»(٥).

وقال ابن عطية: «والبركة حوله هي من جهتين: إحداهما النبوة والشرائع والرسل الذين كانوا في ذلك القطر وفي نواحيه وبواديه، والأخرى النعم من

---

(١) المسند (٢٩٩١). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ١١٨، ١١٩): «رواه أحمد والطبراني في الكبير والبزار ورجاله رجال الصحيح».

(٢) المسند (٢٣٠٩٠): وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٦٥٩): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٩١٩)، وأبو داود في سننه (٣٣٠٥).

(٤) معاني القرآن (٢/ ١١٥).

(٥) تأويلات أهل السنة (٧/ ٣).

الأشجار والمياه والأرض المفيدة التي خص اللَّه الشام بها»[١].

وأرض فلسطين التي هي حول المسجد أشار اللَّه لها بالبركة في مواطن منها: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾[٢].

و﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾[٣].

وهي الأرض التي ولد فيها كثير من الأنبياء منهم داود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام.

وفيها نزلت الكرامة على السيدة مريم.

ومنها رفع عيسى إلى السماء، وإليها ينزل في آخر الزمان.

والذي يراجع معظم فترات التاريخ يلحظ شيئًا مهمًّا، ألا وهو أن من يحكم هذه الأرض يتحكم في مصير العالم وتكون له الغلبة على غيره.

وقع هذا للمصريين حين حكموا المنطقة، ووقع للفرس حين حكموا المنطقة، ووقع للإسكندر حين حكمها، ووقع من بعد للرومان، ثم لما استولى الفرس عليها عشر سنين صارت لهم القوة في الأرض، ووقع هذا للمسلمين حين فتحوها، فكانت لهم الغلبة على غيرهم، حتى داخل الدولة الإسلامية، من كان يحكم هذه الأرض تكون له القوة والمنعة، وقع هذا للطولونيين، ومن بعدهم الإخشيديون، ثم الفاطميون، والسلاجقة، ثم لما استولى عليها الصليبيون صارت لهم القوة على الممالك حولهم، ولما استردها الأيوبيون صارت لهم السلطة والقوة، ومن بعدهم المماليك، ولما فقدوها للعثمانيين، فقدوا معها دولتهم، وصارت الدولة العثمانية أقوى دولة في المنطقة بل

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٤٤٣).
(٢) سورة الأنبياء: ٧١.
(٣) سورة الأعراف: ١٣٧.

والعالم، ونفس الأمر وقع للإنجليز حين سيطروا على فلسطين كانت إمبراطوريتهم تحكم معظم الأرض مع أن عددهم كان لا يتجاوز الثلاثين مليونًا، وبعد أن احتلها الصهاينة ظهرت قوتهم على العرب مجتمعين، فهذه ميزة أعطاها اللَّه لهذه الأرض التي باركها وبارك حولها.

**خامسًا: لفظ المسجد وزمن الوحي:**

كما ذكرنا في التمهيد أن سورة الإسراء مكية، وأنها ارتبطت بحادثة الإسراء والمعراج التي حدثت قطعًا قبل الهجرة، وبالتالي قبل فتح مكة، وتحويل البيت الحرام لاسم المسجد الحرام، وقبل فتح بيت المقدس وبناء المسجد الأقصى في زمن الإسلام، وهنا يأتي سؤال: لماذا ذكر اللَّه الموضعين بلفظ المسجدية مع أنه لم يكونا كذلك وقت نزول الوحي؟

وأقول: إن لفظ المسجد والأصل الذي صيغ منه قد عرف في التراث العربي قبل الإسلام، وإن لم يكن بكثرة أو بنفس الموارد التي توسع الاستعمال فيها بعد ظهور الإسلام.

فمن ذلك قول عنترة في قصيدته التي مطلعها[1]:

هـذه نـار عبلـة يـا نـديمي ... قـد جلـت ظلمـة الظـلام البهـيم

وفيها يقول عنترة:

ومعينـي علـى النوائـب ليـث ... هـو زخـري وفـارج لهمـومي

ملـك تـسجد الملـوك لـذكرا ... ه وتـومي إليـه بـالتفخيم

والسجود هنا ليس فعل عبادة، ولكنه فعل إجلال وتعظيم كما يبدو من السياق، والملك هو زهير بن جزيمة العبسي.

---

(١) ديوان عنترة: (ص ٧٥).

وقال أيضًا في موضع آخر أكثر تفصيلًا:

شمس إذا طلعت سجدتُ جلالة لجمالها وجلا الظلام طلوعها[١]

وفيها أيضًا:

يا عبل لو أن المنية صُوِّرت لغدا إليَّ سجودها وركوعها[٢]

وقال أمية بن أبي الصلت:

مليك على عرش السماء مهيمن لعزته تعنو الوجوه وتسجد[٣]

وقال تبع:

قد كان ذو القرنين جدي مسلمًا ملكًا تدين له الملوك وتسجد[٤]

وقال أمية بن أبي الصلت:

وبإذنه سجدوا لآدم كلهم إلا لعينًا خاطئًا مدحورا[٥]

وقال أبو طالب بن عبد المطلب عم النبي ﷺ:

وحتى رأوا أحبار كل مدينة سجودًا له من عصبة وفُراد[٦]

فهذه بعض الأشعار الجاهلية التي استعملت مادة «سجد» بمعنى العبودية والخضوع، بل والعبادة كما في بيت أمية بن أبي الصلت.

أما كلمة مسجد فقد ذكرنا بيت قيس بن الخطيم في «أولًا» من هذا المبحث.

---

(١) ديوان عنترة: (ص ٥١).
(٢) السابق (ص ٥٢).
(٣) مسائل نافع بن الأزرق (ص ٩١)، جمهرة أشعار العرب (ص ٢٥).
(٤) إعراب القراءات السبع وعللها (١/ ٤١٥).
(٥) التفسير البسيط (٩/ ٥٩)، وإيضاح الوقف والابتداء (٢/ ٨٥٧).
(٦) ديوان أبي طالب (٣٨).

وورد أيضًا لفظ المسجد في شعر لأبي طالب بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، في قصيدة يمدح فيها النبي ﷺ يقول أبو طالب مفاخرًا:

ولنـــا الـــسقاية للحجيـــ ـــج بهـــا يمـــاث العُنجُـــد

والمأزمـــان ومـــا حـــوت عرفاتهـــا والمـــسجد[1]

والمسجد هنا هو المسجد الحرام.

وعلى ذلك فإن العرب عرفت ألفاظ المسجد والسجود، وقد كانوا على بقية دين سيدنا إبراهيم، كما عرفوا بعض مناسك الحج، وعرفوا الصوم، فلا يمتنع معرفتهم بلفظ المسجد، ودليل ذلك أن سورة الإسراء مكية، ونزلت على أهل مكة قبل الهجرة، ولم ترد رواية واحدة تظهر اعتراضهم على صياغة الآية، أو إطلاق لفظ المسجد على البقعتين، وإنما أنكروا إمكانية وقوع الحادثة في ليلة كما هو معلوم، ولو كان اللفظ غريبًا على أسماعهم لأنكروه، كما فعلوا مع لفظ «الرحمن» مثلًا، لأنهم لم يعرفوا اللَّه بلفظ الرحمن كما ورد في كتب التفسير، قال الماوردي: «فيه ثلاثة أقاويل: أحدها: أن العرب لم تكن تعرف الرحمن في أسماء اللَّه..»[2].

وقال الفخر: «ويحتمل أنهم جهلوا اللَّه تعالى، ويحتمل أنهم وإن عرفوه لكنهم جحدوه، ويحتمل أنهم وإن اعترفوا به لكنهم جهلوا أن هذا الاسم من أسماء اللَّه تعالى وكثير من المفسرين على هذا القول»[3].

فكما أنكروا على النبي ﷺ تسمية اللَّه بالرحمن، كان يمكنهم أن ينكروا

(١) ديوان أبي طالب (٣٦)، شرح نهج البلاغة (١٤/ ٧٧)، والسقاية هي خدمة سقاية الحجاج وكانت للعباس بن عبد المطلب، «يماث العنجد» أي يذاب الزبيب، والمأزمان موضع بين عرفة والمشعر الحرام.

(٢) النكت والعيون (٤/ ١٥٢).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٧٩).

عليه تسمية البيت بلفظ المسجد، وعدم الفعل يدل أنهم عرفوا البيت باسم المسجد، وإن لم يكن هو المقدم عندهم.

وذات الكلام ينسحب على يهود المدينة وخيبر وغيرهم ممن حضر النبي ﷺ واستمع للقرآن، وبعضهم كان يجادل فيه، لم يجادلوا في تسمية بيت المقدس بالمسجد الأقصى، مع أنهم أنكروا اعتبار القرآن سليمان بن داود نبيًّا، قال القرطبي: «وقال محمد بن إسحاق، لما ذكر رسول اللَّه ﷺ سليمان في المرسلين، قال بعض أحبارهم: يزعم محمد أن ابن داود كان نبيًّا واللَّه ما كان إلا ساحرًا»(١)، وقال ابن كثير: «فلما ذكر رسول اللَّه ﷺ فيما نزل عليه من اللَّه، سليمان بن داود وعدَّه فيمن عدَّه من المرسلين، قال من كان بالمدينة من يهود: ألا تعجبون من محمد، يزعم أن ابن داود كان نبيًّا، واللَّه ما كان إلا ساحرًا»(٢).

ولما لم ينكر اليهود تسمية الأقصى الشريف بالمسجد، أو يجادلوا فيه أو يستفسروا عنه، حيث لم ترد رواية بذلك، دل على أن العرف اللغوي والاصطلاحي كان يتسمح في الإشارة إلى البقعتين بلفظ المسجد، ويفهم منه المضمون دون لبس للمشار إليه.

وذات الكلام ينسحب على المسلمين الذين لم يستفصلوا من النبي ﷺ عن المقصود، لا سيما فيما يخص المسجد الأقصى، مع أنهم سألوه عن أمور كثيرة تخص هذه الرحلة، وقد وصف لهم النبي ﷺ المكان الذي أسري به إليه وصلى فيه بالأنبياء، وصعد منه إلى السماء في عروجه، ولو كان الأمر مشكلًا لسألوه عنه.

---

(١) تفسير القرطبي (٢/ ٤١).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٤٩).

وأعود للسؤال الذي طرحته في صدر الكلام، وهو: لماذا أطلق اللَّه لفظ المسجدية على البقعتين؟

وأقول: إن النظم القرآني لا يستعمل لفظًا في غير موضعه، أو إذا كان غيره من مرادفه أولى منه بالاستعمال، فالانصراف عن لفظ بيت له أسباب منها:

١) إشاعة لفظ مسجد باعتباره لفظًا شرعيًّا، وليس تركيبًا لغويًّا فقط، ولذا نجد لفظ المسجد تكرر في القرآن ثمانيًا وعشرين مرة، فيكون لفظ المسجد بديلًا عن غيره، لا سيما وأنه معروف في التراث العربي قبل الإسلام كما بينا.

٢) الإشارة إلى الأصل الذي كانت عليه هذه الأماكن، وهو أنها وجدت للمسجدية، على الرغم مما طرأ عليها في مكة من تحويلها إلى ساحة للأصنام، أو ما طرأ عليها في بيت المقدس من تحويلها لمزبلة.

٣) التبشير بما سيؤدي إليه الحال مع الإسلام، وأن هذه البقع ستعرف بمسجديتها، وهي من دلائل النبوة حيث أشار إلى المكانين بلفظ إسلامي هو على شرط المستقبل، وقد وقع.

٤) فيه بشارة ضمنية أيضًا بحدوث مسجد ثالث يقع بين البقعتين، وهو واقع بمفهوم دلالة الإشارة[1]، فقوله تعالى: ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ يدل على أنه سيكون هنا مسجد أدنى، فالقرينة بالصفة دلت على مضادها، وهذا ما كان من مسجده الشريف، بعد الهجرة مباشرة، فكان المسجد الأدنى، وعلى ذلك تكون الآية قد جمعت بين المساجد الثلاثة، كما وقع في السنة وأشرنا إليه.

***

(١) دلالة الإشارة: هي العمل بما ثبت بنظمه لغة، ولكنه غير مقصود، ولا سيق له النص، وليس بظاهر من كل وجه. كشف الأسرار (١/ ٦٨).

# المبحث الثاني

## «وآتينا موسى الكتاب... وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب»

### أولا: وآتينا موسى الكتاب:

تعتمد الديانة اليهودية على عدة كتب، تعتبر كتبًا مقدسة، وأول هذه الكتب هو «التوراة»، فهي الكتاب المنزل على سيدنا موسى عليه السلام.

والتوراة كلمة عبرية تعني الهداية والإرشاد، وقد وردت كلمة التوراة في القرآن ثماني عشرة مرة، في سورة آل عمران، والمائدة، والأعراف، والتوبة، والفتح، والصف، والجمعة.

والتوراة التي أشار إليها القرآن ليست التوراة التي بأيدي اليهود الآن، إذ إن القرآن أثبت أن اليهود قد حرفوها، فزادوا فيها ونقصوا، بل إنهم أخفوا نصوصًا وأسفارًا كاملة، بما يعرف بالأسفار الخفية، وإلى هذا أشار القرآن، ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾(١). وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾(٢). وفي شأن التحريف يقول القرآن: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾(٣). وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾(٤).

---

(١) سورة الأنعام: ٩١.

(٢) سورة المائدة: ١٥.

(٣) سورة النساء: ٤٦.

(٤) سورة البقرة: ٧٩.

وعلى هذا فالتوراة الأصلية لا وجود لها بصورتها التي أنزلت على سيدنا موسى عليه السلام، أما التوراة التي لدى اليهود الآن فقد مرت بمراحل متعددة، (تطورت خلالها مادتها من رواية إلى اختيار، وتنقيح وحذف، ثم تدوين على يد جماعة من المشرعين...، وقد أخذت الأسفار الخمسة الأولى (توراة موسى) صورتها الحالية خلال السبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد)[1].

هناك فرق بين التوراة والعهد القديم، وإطلاق كلمة التوراة على العهد القديم هو من باب التجوز، فالتوراة تشير إلى الأسفار الخمسة الأولى في مجموعة العهد القديم، وهذه الأسفار هي: التكوين، والخروج، واللاويون، والعدد، والتثنية.

أما العهد القديم فيضم إلى التوراة نوعين آخرين هما:

أسفار الأنبياء، وهؤلاء بدورهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

١- أسفار الأنبياء الأوائل: وهم: يشوع، والقضاة، وصموئيل الأول والثاني، والملوك.

٢- الأنبياء المتأخرون: وهم: إشعياء، وإرميا، وحزقيال.

٣- الأنبياء الاثنا عشر: وهم: هوشع، ويوئيل، وعاموس، وعوبديا، ويونان، وميخا، وناحوم، وحبقوق، وصفنيا، وحجي، وزكريا، وملاخي.

أما الجزء الثالث من العهد القديم فهو الكتابات: وهي المزامير، والأمثال، وأيوب، ودانيال، وعزرا، ونحميا، وغيرها.

فالأجزاء الثلاثة هي التي تكون العهد القديم أو ما يسميه اليهود «تناخ» أو «المقرا».

---

(١) بنو إسرائيل (٣/ ٣٤).

وقد تمت أول ترجمة للعهد القديم إلى العربية في الأندلس قام بها أسقف إشبيلية في عام ٧٢٤م، ومن بعدُ قام سعيد بن يوسف الفيومي المتوفى سنة ٩٤٢م بترجمة أخرى، ومن ثم أتى موسى بن ميمون فصنع تفسيرًا للتوراة في عام ١٢٥٠م.

هذا بالنسبة للعهد القديم، أما قسيمه عند اليهود فهو التلمود الذي يعتبر عند كثير من اليهود كتابًا مقدسًا مثل التوراة.

والتلمود كلمة عبرية تعني التعليم أو المعرفة، وهو يمثل التوراة الشفهية التي قام الحاخامات بكتابتها فيما بعد، وهو يشمل دراسات لاهوتية ودراسات في الشريعة والتاريخ والتأملات، والعلوم الطبيعية، وما وراء الطبيعة، والفلك والقصص الشعبي، وهو يساوي السنة أو التفسير في العرف الإسلامي.

وقد فصلنا القول في كتب بني إسرائيل واليهود لأنها متعلقة بما سيأتي على لسان بعض المفسرين المسلمين في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ ...﴾[1].

أما المقصود بالكتاب في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[2]. فهي التوراة المشار إليها في القرآن في المواضع التي أشرنا إليها، وهو ما ذهب إليه جمهور المفسرين المسلمين في تفسير هذه الآية، ومنهم مقاتل بن سليمان[3]، ويحيى بن سلام، ونسب ذلك إلى السدي[4]، والطبري حيث قال: (وجعلنا الكتاب الذي هو التوراة بيانًا

(١) سورة الإسراء: ٤.
(٢) سورة الإسراء: ٢.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان (٢/ ٥٢٠).
(٤) تفسير يحيى بن سلام (١/ ١١٤).

للحق)[١]، وإمام الهدى الماتريدي[٢]، والسمرقندي الذي قال: «أي التوراة جملة واحدة»[٣]، والماوردي[٤]، وابن عطية[٥]، وابن الجوزي[٦]، والفخر الرازي[٧]، والقرطبي[٨]، والنسفي[٩]، والخازن[١٠]، وابن كثير[١١]، والألوسي[١٢]، والطاهر بن عاشور حيث قال: (والكتاب هو المعهود إيتاؤه موسى عليه السلام وهو التوراة)[١٣]، والإمام طنطاوي في الوسيط[١٤].

والتوراة المقصودة هنا هي التوراة الأصلية التي نزلت على نبي اللَّه موسى عليه السلام بداية في جبل الطور، ومن بعد جملة واحدة في فترة التيه، غير أن هذه التوراة الأصلية لا وجود لها الآن بصورتها الإلهية التي كانت عليها وقت موسى عليه السلام[١٥]، فالإشارة هنا إلى التوراة العهدية، وهي قسيم الإنجيل والقرآن.

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ٤٤٩).
(٢) تأويلات أهل السنة (٧/ ٤).
(٣) بحر العلوم للسمرقندي (٢/ ٣٠٠).
(٤) النكت والعيون (٣/ ٢٢٧).
(٥) المحرر الوجيز (٣/ ٤٣٦)
(٦) زاد المسير (٣/ ٩).
(٧) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٩٧).
(٨) تفسير القرطبي (٢١٢/١٠).
(٩) مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٢/ ٢٤٥).
(١٠) لباب التأويل في معاني التنزيل (٣/ ١١٧).
(١١) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٦).
(١٢) روح المعاني (١٥/ ١٤).
(١٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٤).
(١٤) التفسير الوسيط (٨/ ٢٨٧).
(١٥) بنو إسرائيل (٣/ ١٨).

وقد حسن عطف قصة بني إسرائيل وذكر سيدنا موسى عليه السلام وكتابه بعد الآية الأولى التي تتحدث عن الإسراء، وما تعنيه لأمة النبي ﷺ لأمور منها:

١- أن هناك جامعًا بين تجربة النبي ﷺ وما يواجهه من نكران قومه، وما واجهه موسى عليه السلام أيضًا من تمرد قومه عليه.

٢- أن كلا الكتابين المنزلين على سيدنا محمد وعلى سيدنا موسى هما كتابا تشريع وأحكام وهداية ومنهج حياة، بخلاف الكتب الأخرى كالإنجيل التي هي كتب وعظ، وتصويب.

٣- أنه لما بدأ بذكر الإسراء، وهو انتقال من مكان إلى مكان، ففيه معنى الخروج من مكة إلى القدس الشريف، ثنى بذكر الذي يشبه هذا الفعل من الرسل، وهو فعل سيدنا موسى الذي خرج أيضًا بقومه ليلًا من مصر، وسرى بهم ليلًا، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾[1]، ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾[2]، فكلا الرسولين وقع له إسراء، ولكن إسراء النبي ﷺ تبعه معراج وإسراء سيدنا موسى تبعه تيه، ولذلك ذكر ما ذكر عن فساد بني إسرائيل.

٤- في عطف قصة بني إسرائيل على حادثة الإسراء التي كان مسرحها القدس الشريف إشارة إلى ما سيكون من خلف بين الأمتين على هذا الموضع، وفيه إشارة إلى من سيئول له هذا الموضع في نهاية المطاف، على ما سنذكره تفصيلًا.

٥- ذكر الهدف الجامع من الكتب السماوية وهو الهداية بصورتها

---

(١) سورة الشعراء: ٥٢.

(٢) سورة الدخان: ٢٣.

المطلقة فكان كتاب موسى هدى، ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[١]، وكان كتاب سيدنا محمد هدى، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[٢]، إلا أن السياق يدل على ما يميز كل كتاب، فمع اتفاقهما على مبدأ الهداية إلا أن التوراة غلبت عليها النذارة ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾[٣]، وهو ما يناسب عقلية بني إسرائيل التي تحتاج إلى التهديد والعقوبات العنيفة، على حين أن القرآن غلب عليه جانب البشارة، ﴿ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾[٤].

***

## ثانيا: وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب:

هذه هي الآية الرابعة في سورة الإسراء، وتتحدث عن فساد بني إسرائيل في الأرض، وعلى الرغم من قصر الآية نسبيًّا قياسًا بآيات أخرى تتحدث عن بني إسرائيل، إلا أن الآية فيها إشكالات عدة تحتاج إلى بيان وتجلية، لا سيما في هذا الجزء من الآية.

فمن هذه الإشكالات مقصود كلمة «قضينا»، ومعها دلالة حرف الجر «إلى»، ومنها المقصود بالكتاب في قوله: ﴿ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾، وسنحاول أن نفك ما استغلق في هذا الجزء من الآية بعون اللَّه.

### أولًا: «وقضينا»:

تباينت تفاسير العلماء للمقصود بكلمة «وقضينا» في هذا السياق،

---

(١) سورة الإسراء: ٢.
(٢) سورة الإسراء: ٩.
(٣) سورة الإسراء: ٢.
(٤) سورة الإسراء: ٩.

ونستطيع أن نلخص أهم هذه التوجيهات في الآتي:

**١- قضى هنا بمعنى عهد:**

وهذا ما ذهب إليه مقاتل بن سليمان(١). ونقله السيوطي رواية عن ابن مسعود(٢)، ولا يستقيم تفسير مقاتل هنا إلا أن نقدر فيكون: عهد على نفسه، وأوحى إليهم بعهده. ولا يخفى ما في هذا من التكلف والقول بالقدر والجبر.

**٢- قضى بمعنى كتب وقدر:**

وتكون هنا «إلى» بمعنى «على» على ما سنذكره فيما بعد، وذهب إلى هذا جمع من المفسرين فنقله يحيى بن سلام(٣) والهواري(٤) قولًا لمجاهد.

وذكر مكي(٥) أنه قول قتادة وابن عباس، وتابعه السيوطي، ونقل قصة عن مناظرة ابن عباس لبعض القدرية النفاة، حيث قال: «وأخرج ابن المنذر والحاكم عن طاوس قال: كنت عند ابن عباس رضي الله عنهما ومعنا رجل من القدرية، فقلت: إن أناسًا يقولون: لا قدر. قال: أو في القوم أحد منهم؟ قلت: لو كان، ما كنت تصنع به؟ قال: لو كان فيهم أحد لأخذت برأسه، ثم قرأت عليه: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ ...﴾»(٦)، ورد به الإمام الماتريدي قول المعتزلة في القدر(٧).

ونقل الماوردي هذا التوجيه عن قتادة(٨)، لكن الإمام الطبري رد هذا

(١) تفسير مقاتل (٢/ ٥٢١).
(٢) الدر المنثور (٩/ ٢٥١).
(٣) تفسير يحيى بن سلام (١/ ١١٥، ١١٦).
(٤) تفسير الهواري (٢/ ٤٠٨).
(٥) الهداية إلى بلوغ النهاية (٦/ ٤١٤٠).
(٦) الدر المنثور (٩/ ٢٥١).
(٧) تأويلات أهل السنة (٧/ ٦).
(٨) النكت والعيون (٣/ ٢٢٨).

التوجيه وذلك لأنه لا يتفق مع النظم حيث قال: «وإن كان الذي اخترنا من التأويل -اختار أن المعنى أعلمنا- فيه أشبه بالصواب لإجماع القراء على قراءة قوله: ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ بالتاء دون الياء، ولو كان معنى الكلام: وقضينا عليهم في الكتاب لكانت القراءة بالياء أولى منها بالتاء»(١).

وقد فند ابن عطية رد الطبري بقوله: «وتلخيص المعنى عندي أن هذا الأمر هو مما قضاه اللَّه تعالى في أم الكتاب على بني إسرائيل، وألزمهم إياه، ثم أخبرهم به في التوراة على لسان موسى، فلما أراد هنا الإعلام لنا بالأمرين جميعًا في إيجاز، جعل: (قضينا) دالة على النفوذ في أم الكتاب، وقرن بها دالة إنزال الخبر بذلك إلى بني إسرائيل، والمعنى المقصود مفهوم خلال هذه الألفاظ، ولهذا فسر ابن عباس مرة بأن قال: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ معناه أعلمناهم، وقال مرة: معناه قضينا عليهم»(٢).

**٣- قضى بمعنى أعلم:**

وقد عبر عنه أهل التفسير بألفاظ متقاربة منها: (وأعلمناهم)، (وأخبرناهم)، (وأوحينا إليهم)، وهذا التوجيه هو ما ذهب إليه جمهور المفسرين، ونسبه يحيى بن سلام للسدي(٣)، والهواري للحسن البصري(٤)، وابن أبي حاتم لابن عباس(٥)، وهو اختيار أبي عبيدة في مجاز القرآن(٦)،

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ٤٥٦).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٤٣٧).

(٣) تفسير يحيى بن سلام (١/ ١١٥).

(٤) تفسير الهواري (٢/ ٤٠٨).

(٥) تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٣١٧).

(٦) مجاز القرآن (١/ ٣٧٠).

والفراء في معاني القرآن[١]، ورجحه الطبري[٢]، وبه قال السمرقندي[٣]، والنيسابوري[٤]، وابن أبي زمنين[٥]، والطوسي[٦]، حيث ذكر أن القضاء يأتي على أربعة معان هي: الخلق والإحداث، والحكم، والأمر، والإخبار، وأن المعنى في الآية الكريمة على المعنى الرابع، وقال الزمخشري أن معناه: «وأوحينا إليه وحيًا مقضيًّا أي مقطوعًا مبتوتًا»[٧]، ويظهر هنا مذهب الزمخشري الاعتزالي في تفسير القضاء بالعلم والإعلام، وهو بهذا يكرر ما قاله شيخ المعتزلة القاضي عبد الجبار حين قال: «فأما المعاصي والكفر فمعاذ اللَّه أن يكون ﷻ خلقها وقضاها وقدرها إلا بمعنى أنه أعلمنا وأخبرنا عنها، كما قال ﷻ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ بمعنى أعلمناهم»[٨].

وإلى توجيه المعنى إلى «أعلمناهم» ذهب أيضًا الطبرسي[٩]،والعز بن عبد السلام[١٠]،والخازن[١١]، وابن كثير[١٢]، وابن عجيبة[١٣].

---

(١) معاني القرآن (٢/ ١١٦).
(٢) تفسير الطبري (٢/ ٤٦٦، ١٤/ ٤٥٤).
(٣) بحر العلوم (٢/ ٣٠١).
(٤) إيجاز البيان عن معاني القرآن (٢/ ٤٩٥).
(٥) تفسير ابن أبي زمنين (٣/ ١٢).
(٦) التبيان في تفسير القرآن (٦/ ٤٤١).
(٧) الكشاف (٢/ ٦٠٧).
(٨) الأصول الخمسة: (٩٩).
(٩) مجمع البيان (٦/ ١٦٨).
(١٠) تفسير العز بن عبد السلام (١/ ٥٨٦).
(١١) لباب التأويل (٣/ ١١٧).
(١٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٧).
(١٣) البحر المديد (٣/ ١٨٣).

**٤- أن المعنى على التضمين:**

وذلك أن النص أورد فعلًا وأتبعه بحرف جر يقتضي فعلًا آخر لإثراء المعنى، فيكون المعنى: كتبنا عليهم وأوحينا إليهم، وتكون (إلى) هنا محتملة معنى (على)، أو أن (قضى) متضمنة معنى (أوحى).

وإلى هذا ذهب ابن عطية في «المحرر الوجيز» وقد نقلنا آنفًا نصه في ذلك[١]، وقريبًا منه ما ذكره الفخر حيث قال: «وقضينا أي أعلمناهم وأخبرناهم بذلك وأوحينا إليهم، ولفظ (إلى) صلة للإيحاء لأن معنى قضينا: أوحينا إليهم»[٢]. ونقل ذلك التوجيه القرطبي كأحد الوجهين[٣]، وابن جزي الكلبي[٤]، وأبو حيان[٥]، وفصل السمين الحلبي القول، حيث قال: «قضى يتعدى بنفسه، ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾[٦]، ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾[٧]، وإنما تعدى هنا بـ«إلى» لتضمنه معنى: أنفذنا وأوحينا، أي أنفذنا إليهم بالقضاء المحتوم»[٨].

وقال الطاهر بن عاشور: «وتعدية (قضينا) بحرف (إلى) لتضمين (قضينا) معنى (أبلغنا) أي قضينا وأنهينا، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾[٩]»[١٠].

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٤٣٧).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٩٩).
(٣) تفسير القرطبي (١٠/ ٢١٤).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٤٤١).
(٥) البحر المحيط (٦/ ٨).
(٦) سورة الأحزاب: ٣٧.
(٧) سورة القصص: ٢٩
(٨) الدر المصون (٧/ ٣١٢).
(٩) سورة الحجر: ٦٦.
(١٠) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٨).

وعلى ذلك فالتضمين هنا محتمل في الفعل وفي الحرف، وعلى حسب تقدير التضمين يكون المعنى، فمن ضمن الفعل جعل المعنى على سبيل الخبر، ومن ضمن الحرف جعله على سبيل القدر والحكم.

والذي نرجحه أن معنى (قضى) هنا الإعلام والإخبار، وليس القضاء الذي هو قدره السابق، وذلك للآتي:

١- أن اللَّه وصف المَقْضِيَّ بالإفساد في الأرض، واللَّه لا يحكم بالفساد ولا يرضاه، فالذي في القرآن أن اللَّه نهى عن الفساد في الأرض وأخذه على بني إسرائيل، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾(١).

والمتتبع لآيات القرآن يلحظ أن اللَّه أثبت الفساد على بني إسرائيل فعلًا منهم لا قدرًا وجبرًا منه، قال تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾(٢).

٢- أن القول بالكتابة يقتضي القول بالجبر، والقول بالجبر يقتضي رفع المؤاخذة، على حين أن اللَّه علق العقوبة بالإفساد، فوقعت المؤاخذة في الدنيا.

٣- أن القول بالكتابة والقدر يقتضي تأويل حرف الجر، على حين الإعلام والوحي لا يقتضي، وما لا يقتضي التأويل أولى مما يقتضيه؛ إذ هو عمل بظاهر النص وأصل الوضع اللغوي.

٤- أن جمهور القراء في المتواتر والشاذ قرأ بالتاء في «لتفسدن- لتعلن» وهو ما يناسب التفسير بالإعلام والوحي؛ إذ فيه معنى القول والخطاب، فكأنهم حاضرون وقت الخطاب، أما القول بالقضاء والتقدير فيحسن معه

---

(١) سورة البقرة: ٢٠٥.

(٢) سورة المائدة: ٦٤.

«الياء» على سبيل الخبر والغيبة، والياء وإن وردت في الشاذ قراءة لعيسى بن عمر الثقفي وأبي البرهسم[١]، فهي قراءة شاذة بمقابل المتواتر الذي هو بالتاء، كما أنها منفردة بمقابل الجمهور والعامة، ومن المعلوم أن الخطاب أقوى من الغيبة.

٥- أن القول بالقضاء والتقدير لا يستقيم مع تفسير الكتاب بالتوراة أو القرآن، وإنما يستقيم مع تفسيره باللوح الذي فيه أعمال العباد، وهذا وجه من التفسير إلا أنه من القلة، والجمهور على غيره، أما القول بالوحي والإعلام فيحتمل كل الكتب بما فيها علم أم الكتاب. والأولى في التفسير أن نذهب للموسع لا المضيق، لا سيما مع قيام الاحتمال.

**ثانيًا: «في الكتاب»:**

إذا رجعنا إلى كتب التفسير سنجد أنهم اختلفوا في تحديد المقصود بالكتاب هنا، وهذه جملة ما ورد في تفسير الكتاب:

١- الكتاب هو السجل الذي فيه قضاء اللَّه وقدره على العباد أي أم الكتاب، ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٢].

قال البغوي: «المراد بالكتاب اللوح المحفوظ»[٣]، ونقل الطبري هذا الوجه عن بعضهم ورده كما ذكرنا من قبل[٤]، ونقله الماتريدي وجعل منه دليلًا لرد كلام المعتزلة في مسألة القدر حيث قال: «فكيف ما كان ففيه نقض قول المعتزلة... فإن كان أخبرهم ليصدق في خبره منه حكم أنهم ﴿لَنُفْسِدُنَّ

(١) «شواذ القراءة»، ورقة (١٣٥)، «إعراب القراءات الشواذ» (١/ ٧٧٥-٧٧٦).
(٢) سورة الرعد: ٣٩.
(٣) معالم التنزيل (٥/ ٧٩).
(٤) تفسير الطبري (١٤/ ٤٥٥).

فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ وإن كان تأويل القضاء الكتب والحكم فهو ظاهر»[١].

وإلى تفسير الكتاب باللوح المحفوظ ذهب أيضًا القرطبي[٢]، وابن عجيبة[٣]، والقاسمي[٤]، وأبو زهرة[٥].

٢- أن الكتاب هنا كناية عن الوحي، وهو ما ذهب إليه الفخر الرازي حيث قال: «ولفظ (إلى) صلة للإيحاء لأن معنى (قضينا) أوحينا إليهم كذا»[٦].

٣- الكتاب هنا يقصد به الجنس وليس كتابًا معينًا، فـ «أل» هنا جنسية وليست عهدية، وإلى هذا ذهب الطاهر بن عاشور[٧]، واستدل لذلك بقراءة سعيد بن جبير وأبي العالية (في الكتب)[٨] بالجمع، ومعناه: من جنس ما أنزلنا، وذكر الطاهر أنه قد تكون مذكورة في كتب من كتبهم ككتاب إرميا وإشعياء وحزقيال ودانيال.

٤- الكتاب هو التوراة، وهذا ما عليه جمهور المفسرين ومنهم مقاتل بن سليمان[٩]، والسدي[١٠]، والسمرقندي[١١]، والواحدي[١٢]،.....

(١) تأويلات أهل السنة (٧/ ٦).
(٢) تفسير القرطبي (١٠/ ٢١٤).
(٣) البحر المديد (٣/ ١٨٣).
(٤) محاسن التأويل (٦/ ٤٤١).
(٥) زهرة التفاسير (٨/ ٤٣٣٣).
(٦) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٩٩).
(٧) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٨).
(٨) البحر المحيط (٦/ ٨).
(٩) تفسير مقاتل (٢/ ٥٢١).
(١٠) تفسير يحيى بن سلام (١/ ١١٥).
(١١) بحر العلوم (٢/ ٣٠١).
(١٢) الوجيز للواحدي (ص ٦٢٨).

والزمخشري[١]، وابن عطية الذي قال: «والكتاب هنا التوراة لأن القسم في قوله: (لتفسدن) غير متوجه مع أن يجعل الكتاب هو اللوح المحفوظ... ومقتضى هذه الآيات أن اللَّه تعالى أعلم بني إسرائيل في التوراة أنه سيقع منهم عصيان وطغيان وكفر لنعم اللَّه تعالى»[٢]. وإلى تفسير الكتاب بالتوراة ذهب أيضًا الطبرسي[٣]،والبيضاوي[٤]، والنسفي[٥]، والخازن[٦]، وابن كثير[٧]، والسيوطي[٨]، وأبو السعود[٩]، والشعراوي[١٠].

والذي يظهر أن الجمهور اعتبر أمرين في تحديد المعنى:

الأول: سبق الذكر ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾، ولا شك أن الكتاب هنا هو التوراة، فتكون «أل» للعهد الذكري.

الثاني: ذكر الكتاب بعد بني إسرائيل فتكون «أل» للعهد الذهني، حيث إن كتاب بني إسرائيل الرئيس هو التوراة، وهو أول ما ينصرف إليه الذهن.

٥- الكتاب هو القرآن، وإلى هذا ذهب الشيخ عبد المعز عبد الستار في مقال له في مجلة الأزهر، حيث ذكر أن الإعلام لبني إسرائيل وقع بهذه الآية، لا بما سبق في كتبهم، حيث إن هذه الآية مكية، وأشارت إلى أحداث ستقع في

---

(١) الكشاف (٢/ ٦٠٧).
(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٤٣٧).
(٣) مجمع البيان (٦/ ١٦٨).
(٤) أنوار التنزيل (٣/ ٢٤٨).
(٥) مدارك التنزيل (٢/ ٢٤٦).
(٦) لباب التأويل (٣/ ١١٧).
(٧) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٧).
(٨) الدر المنثور (٩/ ٢٥١، ٢٥٢).
(٩) إرشاد العقل السليم (٥/ ١٥٦).
(١٠) تفسير الشعراوي (١/ ٥٥٣).

المستقبل، وهي من دلائل النبوة[١].

ولتحديد المعنى المقصود بكلمة الكتاب هنا، يحسن بنا أن نبين معنى أداة التعريف «أل» وهل هي لمطلق الجنس، أو أنها للعهد؟

من جملة التقعيد اللغوي فإن «أل» المتصلة بالاسم تأتي عن ثلاثة أوجه[٢]:

١- أن تكون اسما موصولًا بمعنى الذي: وهذه التي تدخل على اسم الفاعل أو اسم المفعول، فنقول: القاتل أي الذي قَتَل، والمقتول أي الذي قُتِل.

٢- أن تكون حرف تعريف: وهذه نوعان:

**الأول**: أن تكون للجنس أي لاستغراق الأفراد المندرجة تحت المذكور مثل «الإنسان» أي جميع البشر.

**الثاني**: أن تكون للعهد أي لشيء معهود يمكن التعرف عليه بالإحالة، وهذه العهدية، إما أن تكون «ذكرية» أي سبق ذكر المعرف من قبل في السياق، كما في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾[٣]، فالرسول المعرف هو عينه المذكور قبلُ في أول السياق، ومثل: ﴿فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٖۖ﴾[٤] وهو عينه.

وإما أن تكون «ذهنية» أي معروفة بالاستنباط الشرعي أو العقلي أو العرفي كما في قوله تعالى: ﴿إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾[٥]، وهو معروف من القصة،

(١) مجلة الأزهر، المجلد الثامن والعشرون، عدد جمادى الآخرة ١٣٧٦هـ/ ٢ يناير ١٩٥٧.

(٢) راجع في ذلك «مغني اللبيب» (١/ ٦١-٦٦)، و«الجامع الصغير في علم النحو» (١٠٩-١١١).

(٣) سورة المزمل: ١٥-١٦.

(٤) سورة النور: ٣٥.

(٥) سورة التوبة: ٤٠.

وقوله: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[1]، وهي شجرة معروفة في قصة بيعة الرضوان.

٣- أن تكون زائدة: وهذه كالتي في الأسماء الموصولة كالذي وأصله «ذي»، والتي تأتي في بعض الأعلام كالنصر والنعمان واللات والعباس والحارث.

وبالرجوع إلى كتب التفسير والإعراب نجد أنها اختلفت في تعيين معنى «أل» من كلمة «الكتاب»، فذهب الجمهور إلى أنها عهدية، حيث أشار إلى الكتاب في آية سابقة، وهي قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ فهي من العهد الذكري، وقد ذكرنا ذلك من قبل.

وذهب البعض إلى أن «أل» هنا لمطلق الجنس، وبذا فهي لا تدل على كتاب بعينه بل مطلق ما أنزل على بني إسرائيل، وهذا ما ذهب إليه السمين الحلبي، وذكره أبو حيان وجهًا، وكذا الطاهر بن عاشور كما أسلفنا أيضًا.

وذهب البعض إلى أن «أل» هنا عهدية، ولكنها للعهد الذهني لا الذكري، وأن المقصود هو الكتاب المعروف لمن نزل عليهم الخبر في هذه السورة، وهو القرآن الكريم.

وهذا ما نرجحه ويتوجه إليه المعنى، وذلك للآتي:

١- سورة الإسراء التي ورد فيها الخبر هي موجهة للمسلمين الذين آمنوا بالنبي ﷺ ومن خلفهم غيرهم، والمسلمون لهم كتاب واحد هو القرآن، وليسوا مطالبين بالرجوع إلى غيره للبحث والتحقق من الخبر والقضاء، لا سيما مع إثبات القرآن أن كتب بني إسرائيل قد وقع عليها التحريف بالزيادة والنقصان والحجب والتبديل، ولا سيما أيضًا أن القرآن قد استعمل أفعالًا

(١) سورة الفتح: ١٨.

مستقبلية كما سنذكر.

٢- أن الآية الكريمة حددت مرات الفساد والإفساد بمرتين مع علو كبير وواقع التاريخ الذي سبق القرآن يثبت على بني إسرائيل مرات كثيرة من الفساد، منه تغيير الشريعة، وعبادة العجل، وعصيان أمر اللَّه بدخول الأرض المقدسة، وجحد النعم، وقتل الأنبياء، وقتل بعضهم بعضًا، والفساد المجتمعي، وغير ذلك مما وقع من بني إسرائيل وعوقبوا عليه أشد العقوبة كقتل الأنفس، والتيه، والسبي، وخراب المدن، والطرد.

وعلى ذلك فالفساد الذي أشير إليه هنا، إنما هو لخبر المستقبل لا الماضي - كما سنبين- وخبر المستقبل في القرآن، لا في الكتب المحرفة.

٣- استعمال الأفعال لصيغة المستقبل في الآية (لتفسدن - لتعلن) وتفصيل ذلك أنه قد وردت في الفعلين عدة قراءات.

قراءة الجمهور ومنهم الأئمة العشرة أصحاب القراءات المتواترة: (لَتُفْسِدُنَّ) بضم التاء وكسر السين مضارع أفسد. و(لتَعْلُنَّ) بالتاء مفتوحة.

وقرأ ابن عباس ونصر بن علي وجابر بن زيد «لتُفْسَدُنَّ» ببنائه للمفعول، أي يفسدكم غيركم[(١)].

وقرأ عيسى بن عمر بفتح التاء وضم السين «لتَفْسُدُنَّ»[(٢)] فعلًا لأنفسهم، واتساقًا مع «لتعلن».

وقرأ عيسى بن عمر أيضًا وأبو البرهسم[(٣)] بالياء مضمومة وكسر السين على الغيبة «ليُفْسِدُنَّ» ومثله «ليَعْلُنَّ».

---

(١) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات (٢/ ١٤).

(٢) السابق.

(٣) معجم القراءات (٥/ ١٠)، إعراب القراءات الشواذ (١/ ٧٧٥) بلا عزو.

أما قراءة التاء في المتواتر وفي الشاذ فهي تشير إلى فعل مستقبل، وصرفها للماضي يحتاج إلى تقدير مثل: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾، ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ﴾[١] ... مع نية الخبر الماضي.

والأصل أن ما لا يحتاج إلى تقدير مقدم على ما يحتاج إلى تقدير، وصيغة الفعل تدل على الاستقبال.

وقراءة الياء على شذوذها واختلاف الرواية عن عيسى بن عمر فهي أيضًا محتملة للمضي والاستقبال، والمضي يكون على سبيل الحكاية.

وما دام الاستقبال هو الغالب على معنى الفعلين، فهو يتناسب مع نزول القرآن، وهو الكتاب الأحدث، وهو أليق بالمعنى من جعل الكتاب كتابًا قديمًا مرت عليه أزمان.

٤- قوله تعالى في الآية اللاحقة: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا ...﴾ يدل أيضًا على الاستقبال، وليس على المضي، ولو أراد المضي لقال: (فلما جاء وعد أولاهما بعثنا).

والقاعدة أن «إذا» إذا دخلت على الماضي حولته إلى المستقبل[٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾[٣]. ولمَّا يَقَعْ بعدُ، ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾[٤]. ولمَّا تَقَعْ بعدُ.

وقد ظهر الاستقبال في أفعال الكرة الثانية حيث قال: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ

(١) سورة النساء: ١٥٤.
(٢) مغني اللبيب (١/ ١١١).
(٣) سورة النصر: ١.
(٤) سورة الواقعة: ١.

وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴾، فجاءت الأفعال في صيغة الاستقبال لا المضي.

وقد يقول قائل: إن الأفعال في الكرة الأولى جاءت بصيغة المضي (بعثنا- فجاسوا- رددنا- أمددناكم- جعلناكم).

والجواب أن استعمال صيغة المضي لا يدل دائمًا على الفوت، ولكن أحيانًا يستعمل ليدل على فعل مستقبلي لما يقع بعد، ولكنه في حكم الواقع يقينًا، أو يستعمل الماضي ليدل على ثبوت الفعل حكمًا وصفة للفاعل، أو يأتي خبرًا يقصد به الإنشاء، أو يأتي في الأمثال والعبر والوعظ، فمن النوع الأول قوله تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾[1]، وقوله: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾[2]، ولمَّا ينشق بعد.

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[3]، وأمثاله.

ومن الثالث قولنا: أبقاك اللَّه ورعاك، والمقصود يبقيك ويرعاك.

ومن الرابع قولهم: من صبر ظفر، والمقصود المستقبل، ومن تأنى وصل، مثله.

وقولنا في الوعظ: نهى الإسلام عن المنكر، وأمر بالمعروف. ونقصد ما يستقبل.

فكل ذلك يدل على ثبات الفعل، فحسن له الماضي وإن قُصد به الاستقبال.

ولما كان الوعيد من اللَّه لبني إسرائيل فقد جاء بصيغة المضي لأنه حتم مقضي، وكذلك لما كان الوعد منه جاء بصيغة المضي لأنه حتم مقضي، وكذا

---

(١) سورة النحل: ١.

(٢) سورة القمر: ١.

(٣) سورة النساء: ١٧، ٩٢، ١٠٤، ١١١، ١٧٠، وسورة الفتح: ٤.

الحال في وعده ووعيده.

ولذا نجد أن الآية التي في آخر السورة والتي اتفق المفسرون على أنها لم تقع بعد كما سنذكر وردت بصيغة المضي مع أنها على شرط المستقبل: ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾[1].

والمقصود بلا شك سنأتي بكم لا أتينا، ونظيره، ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾[2]، وهو مما لم يقع بعد لأنه من علامات الساعة.

أما الفائدة الأولى في تنوع صيغة الأفعال بين الكرة الأولى والثانية، فلأن جهة الخطاب متنوعة، فالأولى جاءت تهديدًا لبني إسرائيل، وهو ما يحسن معه القطع، والثانية جاءت تأميلًا لأعداء بني إسرائيل وهو ما يحسن معه الاستقبال، لأن الأمل على شرط المستقبل.

وأما الفائدة الثانية فهي خاصة بالنبي ﷺ الموحى إليه، حيث إن استعمال الماضي في الكرة الأولى يشعره أنه من حضوره، واستعمال المستقبل في الثانية يشعره أنه لن يحضره وأنه فعل أمته كما سنبين في حينه، فيكون المضي والاستقبال في حق النبي وأمته.

وعلى ذلك يكون المعنى أننا أعلمنا بني إسرائيل فيما أوحيناه في القرآن أنه سيقع كذا وكذا، ويكون هذا من دلائل نبوته ﷺ، كما أعلم بمصير أبي لهب وامرأته وأنهما سيموتان على الكفر، ومثله الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والنضر بن الحارث، وكان في استطاعتهم تكذيب النبي لو آمنوا، كما أنه كان في استطاعة اليهود ألا يفسدوا في الأرض ويبطلوا زعم القرآن.

---

(١) سورة الإسراء: ١٠٤.

(٢) سورة الكهف: ٩٨.

# المبحث الثالث

## «لتفسدن... مرتين»

من يراجع كتب التفسير منذ القرن الثاني الهجري، يلحظ اتفاقهم على وقوع الإفسادين المذكورين في الآية، وأن ذلك قد وقع قبل مولد النبي ﷺ وبعثته بقرون، ومع اتفاقهم على هذا القدر تقريبًا نجد أنهم اختلفوا في تحديد هذه المرات، وطبيعة ما ترتب عليها من عقوبة.

### أولًا: الإفساد الأول وعقوبته:

اختلف أهل التفسير والتاريخ في تحديد الإفساد الأول وما ترتب عليه من عقوبة، وهذا تفصيل أقوالهم:

١- أن الإفساد الأول وقع بعد دخول بني إسرائيل منطقة أريحا في عهد يوشع بن نون، حيث أفسدوا شريعة موسى، وخالفوا أوامر اللَّه، فسلط اللَّه عليهم جالوت، فاستباحهم وهزمهم وأخذ منهم التابوت، وهرب بنو إسرائيل خوفًا من القتال، فأماتهم اللَّه ثم أحياهم، وأرسل لهم ملكًا هو شاؤل «طالوت» فقادهم إلى النصر، وقتل داود جالوت ملك العماليق، وتأسست مملكة بني إسرائيل في القدس «يبوس»، وسميت في الأول مدينة داود[١]، وهذا تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾[٢].

قال الهواري في تفسيره: «ذكر بعضهم قال: عوقب القوم على علوهم

---

(١) تاريخ القدس لعارف باشا (ص ١٤-١٦).

(٢) سورة الإسراء: ٥-٦.

وفسادهم، فبعث اللَّه عليهم في الأولى جالوت الجزري، فسبى وقتل وجاسوا خلال الديار كما قال اللَّه»[١]. ونقل مثله الطبري رواية عن بعضهم[٢].

وقال السمرقندي: «وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة أنه قال: أما المرة الأولى فسلط اللَّه عليهم جالوت، حتى بعث اللَّه طالوت ومعه داود فقتله داود، ثم ردت الكرة لبني إسرائيل»[٣]. وتبعه في ذلك ابن أبي زمنين[٤]، وعزاه الماوردي لابن عباس وقتادة[٥].

٢- أن بني إسرائيل لما وقع منهم الإفساد بتغيير الشريعة وقتل الأنبياء بعث اللَّه عليهم سنحاريب من ملوك بابل، وقيل بل كان ملكًا على نينوى من أعمال الموصل، ونسب جمع من المفسرين ذلك إلى سعيد بن جبير.

قال ابن عطية: «إن بني إسرائيل عصوا وقتلوا زكرياء عليه السلام فغزاهم سنحاريب ملك بابل، وكذا قال ابن إسحاق وابن جبير»[٦]. وذكر ذلك الماوردي قولًا من خمسة أقوال للمفسرين[٧]، ومثله ابن الجوزي[٨]، والزمخشري[٩].

وقال الطوسي: «وقال سعيد بن جبير: هو سنحاريب... والفساد الذي ذكره هو قتلهم الناس ظلمًا وتغلبهم على أموالهم قهرًا وإخراب ديارهم

(١) تفسير الهواري (٢/ ٤٠٨).
(٢) تفسير الطبري (١٤/ ٤٧٢).
(٣) بحر العلوم (٢/ ٣٠١).
(٤) تفسير ابن أبي زمنين (٣/ ١٢، ١٣).
(٥) النكت والعيون (٣/ ٢٢٩).
(٦) المحرر الوجيز (٣/ ٤٣٨).
(٧) النكت والعيون (٣/ ٢٢٩).
(٨) زاد المسير (٣/ ١٠).
(٩) الكشاف (٢/ ٦٠٧).

بغيًا»[١]. وممن نقل أنه سنحاريب أيضًا البيضاوي[٢]، والخازن[٣].

ومن المحدثين القنوجي صاحب فتح البيان الذي قال: «وقيل هو سنحاريب من أهل نينوى، فقتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة، وخربوا المساجد، وسبوا منهم سبعين ألفًا»[٤]، وتابعه المراغي[٥].

٣- أن الفساد المذكور متأخر لما بعد عهد داود وسليمان عليهما السلام، لا سيما بعد انقسامهم إلى مملكتين، فلما أفسدوا سلط اللَّه عليهم نبوخذنصر ويسمى بختنصر، وكان ملكًا على بابل في المشهور فقتل كبارهم وسبى صغارهم، وحرق التوراة، وخرب المدينة المقدسة، وسبى منهم الآلاف، وذهب بهم للعراق، ولم يعودوا إلا بعد عقود من الزمان حين أطلقهم قورش الفارسي من الأسر.

وهذا الرأي نقله جمهور المفسرين، ومنهم: مقاتل بن سليمان[٦]، ويحيى بن سلام[٧]، والفراء [٨]، والسمعاني [٩]، والفخر الرازي[١٠]، والطاهر بن عاشور[١١].

---

(١) التبيان في تفسير القرآن (٦/ ٤٤١).
(٢) أنوار التنزيل (٣/ ٢٤٨).
(٣) لباب التأويل (٣/ ١١٨).
(٤) فتح البيان (٧/ ٣٥٦).
(٥) تفسير المراغي (١٥/ ١٤).
(٦) تفسير مقاتل (٢/ ٥٢١).
(٧) تفسير يحيى بن سلام (١/ ١١٥، ١١٦).
(٨) معاني القرآن (٢/ ١١٦).
(٩) تفسير السمعاني (٣/ ٣١٨، ٣١٩).
(١٠) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٩٩).
(١١) التحرير والتنوير (١٥/ ١٧).

٤- ذهب بعض المفسرين إلى أن الفساد الأول وعقوبته تحتمل كل الوجوه السابقة، وأن الذي تسلط على بني إسرائيل، يمكن أن يكون جالوت الجزري، أو سنحاريب الموصلي، أو بختنصر البابلي، أو حتى أهل فارس، ومن هؤلاء: الماوردي(١)، والبغوي(٢)، والقرطبي(٣)، وابن كثير(٤)، والشوكاني(٥)، والألوسي(٦).

٥- ذهب بعض العلماء المحدثين أن الإفساد المذكور في الآية لا تعلق له بالتاريخ الذي قبل نزول الإسلام، وأن القرآن إنما أخبرهم عن إفساد مستقبلي، وأن هذه الإفساد الأول وقع في صدر الإسلام في زمن القبائل اليهودية الثلاثة في المدينة، ومن حالفهم من يهود خيبر، وذلك بمحاولة قتله ﷺ، وخيانة بني قريظة أثناء غزوة الأحزاب، وتحالف خيبر مع كفار مكة ونقض عهدهم مع النبي عليه الصلاة والسلام.

فأرسل اللَّه عليهم جنود الإسلام، فأجلوا بني قينقاع وبني النضير، وقاتلوا بني قريظة ويهود خيبر، حتى أخرجوا الجميع من المدينة ومن خيبر ومن وادي القرى وفدك وتيماء.

وإلى هذا التوجيه ذهب الشيخ عبد المعز عبد الستار(٧)، والشيخ الشعراوي(٨).

(١) النكت والعيون (٣/ ٢٢٩).
(٢) معالم التنزيل (٥/ ٦٩ - ٧٩).
(٣) تفسير القرطبي (١٠/ ٢١٥).
(٤) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٧).
(٥) فتح القدير (٣/ ٢٤٩).
(٦) روح المعاني (١٥/ ١٧، ١٨).
(٧) مجلة الأزهر، مجلد ٢٨، عدد يناير ١٩٥٧.
(٨) تفسير الشعراوي (١٣/ ٨٣٥٢، ١٤/ ٨٣٥٨، ٨٧٨٨).

## ثانيًا: الإفساد الثاني وعقوبته:

بالرجوع إلى كتب التفسير نجد أنهم اختلفوا في تحديد طبيعة الإفساد الثاني لبني إسرائيل، ومن ثم اختلفوا في تحديد العقوبة ومن قام بها ونستطيع أن نلحظ أهم ما ذكره المفسرون في تحديد الفساد في الآتي:

- دعوى قتل إشعياء النبي.
- دعوى حبس إرميا النبي أو جرحه أو قتله.
- دعوى قتل زكريا النبي.
- دعوى قتل يحيى النبي ابن زكريا النبي.
- التآمر على السيد المسيح وعلى تلاميذه وأتباعه.
- تبديلهم التوراة وإفسادهم الحياة الدينية والاجتماعية.

وقد انعكس هذا التنوع في ذكر نوعية الفساد على تحديد من وقعت منه العقوبة في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[1]، وهذه جملة آراء المفسرين.

١ - أن العقوبة وقعت بواسطة البابليين، وقائدهم بختنصر، حيث دخلوا أورشليم، وهدموا المعبد، وقتلوا عددًا كبيرًا من بني إسرائيل، وسبوا كثيرًا منهم، وأخذوهم إلى العراق فصاروا عبيدًا، حتى حررهم قورش الفارسي من بعد ما تزوج من فتاة يهودية.

وإلى هذا ذهب يحيى بن سلام[2]، والهواري[3]، والطبري[4]، وابن أبي

---

(١) سورة الإسراء: ٧.
(٢) تفسير يحيى بن سلام (١/ ١١٦، ١١٧).
(٣) تفسير الهواري (٢/ ٤٠٩).
(٤) تفسير الطبري (١٤/ ٤٨٥، ٤٨٦).

حاتم[١]، وابن أبي زمنين[٢]، والسمعاني[٣]، والسيوطي[٤].

٢- أن العقوبة الثانية وقعت في عهد الرومان[٥]، ولكنهم اختلفوا في تحديد من قام بها من الرومان، فذكر مقاتل بن سليمان[٦]، والماوردي[٧]، والسمعاني[٨]، أنه أنطياخوس، وذكر الفخر الرازي أنه قسطنطين[٩].

٣- ذهب ابن أبي حاتم إلى أن العقوبتين الأولى والثانية كانتا من البابليين، وكانتا متتاليتين، حيث هجم البابليون في المرة الأولى ولكنهم لم ينتصروا على بني إسرائيل انتصارًا كاملًا، فارتدوا، وعادوا مرة أخرى، ودخلوا المدينة المقدسة، وفعلوا فيها ما ورد في النص القرآني، واستشهد الرازي بدلالة الضمائر في الآية الثانية «ليسوءوا» وأنها تعود على «عبادًا لنا» فينبغي أن يكونوا ذات القوم[١٠].

٤- ذهب الطاهر بن عاشور[١١] إلى أن العقوبة الثانية وقعت في عهد الرومان، ولكنها لم تقع على مرة واحدة، بل بدأت سنة أربعين بعد الميلاد على يد طيطوس، حيث خرب أورشليم، وأسر تسعين ألفًا من اليهود، حتى إذا

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٣١٨).
(٢) تفسير ابن أبي زمنين (٣/ ١٣).
(٣) تفسير السمعاني (٣/ ٢٢١).
(٤) الدر المنثور (٩/ ٢٥٢ - ٢٦٤).
(٥) تاريخ القدس، لعارف (٢٩).
(٦) تفسير مقاتل (٢/ ٥٢٢).
(٧) النكت والعيون (٣/ ٢٣١).
(٨) تفسير السمعاني (٣/ ٢٢١).
(٩) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٠١).
(١٠) تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٣١٧، ٢٣١٨).
(١١) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٨).

جاء أدريانوس سنة ١٣٥ ميلادية فهدم المدينة المقدسة، ووضع الملح في أرضها وأخرج اليهود من فلسطين، فانتشروا في بقاع الأرض، وبعضهم ذهب للجزيرة العربية.

٥- ذهب الشيخ عبد المعز عبد الستار[١]، والشيخ عبد الكريم الخطيب[٢]، والشيخ الشعراوي[٣]، إلى أن العقوبة الثانية الموعودة لم تقع بعد، وإن ظهرت علامتها، وأن هذه العقوبة ستكون على أيدي المسلمين، كما كانت منهم في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، واستدلوا لذلك بأدلة من النظم ومن غيره سنذكرها في الترجيح لئلا يعاد الكلام حيث إنه الرأي الذي نتبناه وندلل له.

والحق أن من يراجع كتب التفسير وتاريخ الأمم يجد اضطرابًا في تحديد المقصود بالإفسادين والعقوبة المترتبة عليهما، بل سيلحظ أن كثيرًا مما ذهب إليه أهل التفسير غير متسق مع وقائع التاريخ وتسلسل أحداثه.

ومن ذلك مثلًا ربطهم بين قتل زكريا ويحيى، ومجيء بختنصر لإنفاذ العقوبة الثانية، ومن المعلوم تاريخيًّا أن بين بختنصر وزكريا ويحيى أكثر من خمسة قرون.

ويبدو أن الذي حدا بالمفسرين أن يقولوا بما قالوا به، هو محاولة تفسير الآيات في ضوء معارفهم، وفي ضوء التاريخ، حيث إنهم لم يلتفتوا إلى ما سيقع في قابل الأيام، وما يكون من أحداث قد تؤثر في فهم النص الشريف.

ونظير ذلك ما فعله البعض في تفسير حديث انقسام أهل الديانات الثلاث

---

(١) مجلة الأزهر، مجلد ٢٨ عدد يناير ١٩٥٧.

(٢) التفسير القرآني للقرآن: (٨/ ٤٥١)، وما بعدها.

(٣) تفسير الشعراوي (١٤/ ٨٧٨٨، ٨٧٨٩).

إلى فرق، الذي رواه أبو هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «تفرقت اليهود على إحدى وسبعين أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»(١).

وجل من عرض لتفسير هذا الحديث راح يعدد الفرق التي افترقت عليها أمة الإسلام على قدر زمانه، وذلك كما فعل ابن الجوزي في تلبيس إبليس(٢)، والشهرستاني في الملل والنحل(٣)، وغيرهما ممن شرح الحديث، وغفل عما سيقع في قابل الزمان من أحداث واختلافات، وكأن الزمان قد اكتمل ولا زيادة، وكأن قواعد التوحيد قد استقرت، فلا يخرج عنها أحد، وواقع الحال يقول: إن من حدد هذه الفرق قد أخطأ، فقد نشأ بعد زمانه فرق أخرى خالفت أصل هذا الدين، ولعله ستظهر في قابل الأيام فرق أخرى تفعل ذات الشيء، والحديث وإن كان لا يسلم من مطعن سندًا ومتنًا، فلا يتحقق معناه -على فرض صحته- إلا باكتمال تاريخ الإسلام، وانقضاء أسباب التفرق، وهذا لا يكون إلا بقيام الساعة، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾(٤).

والذي نرجحه في مسألة فساد بني إسرائيل وما يترتب على ذلك من عقوبة، هو أن الفساد المقصود يقع بعد ظهور الإسلام، وأنه سيكون متكررًا، إلا أن أعلاه وأشده مرتان موصوفتان في نص الآية، وأن هذا الفساد سيكون معه علو في الأرض، سيقع لبني إسرائيل، لم يقع لهم من قبل، ولن يقع لهم من بعد.

---

(١) الحديث رواه الترمذي حديث رقم (٢٦٤٠)، وأبو داود (٤٥٩٦)، وهو في مسند الإمام أحمد (٢/ ٣٣٢)، وصحيح ابن حبان (٤/ ١٤٠)، ومستدرك الحاكم (١/ ١٢٨).

(٢) تلبيس إبليس (١/ ١٩).

(٣) الملل والنحل (١/ ١٤).

(٤) سورة هود: ١١٨.

**ودليلنا على ذلك الآتي:**

١- أن وقائع التاريخ منذ بداية بني إسرائيل وحتى ظهور الإسلام تقول: إن إفسادهم لم يقتصر على مرتين، بل هو مرات عديدة، وقد أثبت عليهم ذلك كثيرًا سواء كان ذلك بصورة جماعية، كعبادة العجل، وما ترتب عليه من عقوبة، أو رفض دخول الأرض المقدسة، وما ترتب عليه من عقوبة، أو قتلهم الأنبياء، أو إفسادهم الدين وتغيير الأحكام، أم كان بصورة جزئية كالذين اعتدوا في السبت، أو أصحاب البقرة، أو الذين هربوا من القتال فأماتهم اللَّه.

ومن يراجع التاريخ أيضًا يرى أن شعب بني إسرائيل قد تسلط عليه أمم كثيرة وليس مرتين فقط، فمن المصريين الذين استعبدوهم إلى العماليق والأشوريين والبابليين واليونان والرومان والفرس، فلا يعقل أن يشير القرآن إلى كل هذه الأمور بمرتين فقط، بل لو لم يفسد بنو إسرائيل في تاريخهم السابق للإسلام إلا مرتين فقط لمدحوا على ذلك كما أشار الشيخ الشعراوي، إذ إن أمة الإسلام نفسها قد وقع فيها الفساد أكثر من ذلك.

٢- أن اللَّه تعالى وصف من تقع بهم العقوبة بأنهم (عبادًا لنا)، وهذا وصف خاص إذ إنه ورد بلفظ (عباد)، وتبعه وصف بشبه الجملة للتخصيص.

وبيان ذلك أن كلمة (عباد) هي جمع عبد، وقد وردت الإشارة إلى من يقع عليه هذا الوصف في القرآن بلفظين (عبيد) كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1]. و(عباد) كما في قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾[2]، وقد فرق الاستعمال القرآني بين لفظ (عباد) ولفظ (عبيد)، وبيان ذلك نذكره في الآتي:

---

(١) سورة فصلت: ٤٦.

(٢) سورة الزمر: ١٦.

- وردت كلمة (عبيد) في القرآن خمس مرات، على حين وردت كلمة (عباد) في القرآن قريبًا من المائة مرة.

- كلمة (عبيد) جمع عبد، وهي على وزن فعيل، و(عباد) جمع عبد كذلك ولكنها على وزن فِعال، وذلك كحَبْل وحِبَال.

- العباد والعبيد كلاهما يعنيان تسليم الإرادة والحرية إلى من يتوجه إليه فعل الاستسلام، ولكنهما يفترقان أن تسليم (العباد) يصدر عن طواعية وإرادة واختيار، وتسليم العبيد يكون بالقهر والجبر فيسلم العبد إرادته وهو مكره.

- أن السياق القرآني استعمل كلمة (العبيد) في إشارة إلى جميع الخلق مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، فهو إشارة للمخلوق في المطلق، على حين أن استعمال كلمة (عباد) في الأعم الأغلب جاءت للإشارة إلى جماعة المؤمنين، أو الصنف الأقرب إلى اللَّه، وقد جاء اللفظ بهذا المعنى حوالي تسعين مرة في القرآن، ومنه:

- قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[١].
- وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾[٢].
- وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾[٣].
- وقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[٤].
- وقوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾[٥].

---

(١) سورة الصافات: ٤٠، ٧٤، ١٢٨، ١٦٠، ١٦٩.
(٢) سورة الزمر: ١٠.
(٣) سورة الزخرف: ١٩.
(٤) سورة الزخرف: ٦٨.
(٥) سورة الإنسان: ٦.

- وقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[١].

حتى المواضع التي وردت فيها كلمة عباد وهي لا تدل بصورة مباشرة عن جماعة المؤمنين أو المخصوصين، فإننا نجد أن الاستعمال القرآني قد استعملها أيضًا لغرض خاص، يفارق في جزء منه المعنى المباشر لكلمة عبيد، ومن ذلك مثلًا:

- قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[٢]، فقد جاءت في سياق ذكر النعم على نبي اللَّه داود وعلى نبي اللَّه سليمان، ومعهما بنو إسرائيل، ووصية اللَّه لهم بدوام الشكر، الذي هو حق الإنعام، فذكرهم اللَّه أنه ينعم على خلقه بمتواتر النعم، ولكن الإنسان بصفة عامة لن يوفي اللَّه حقه؛ فالعبيد بالجحود، والعباد بالقعود عن واجب الشكر، والشكر مقام أهل الإحسان والبر، فيحتاج إلى مرتبة أعلى من مرتبة العبودية «التسليم»، وهي مرتبة القرب والاصطفاء، وهذه ليست لكل من دخل في وصف «العباد».

- قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾[٣]. وهذه الآية جاءت في سياق المدح للَّه، وهذا نسق كلام العرب تدخل الباء على الاسم الذي أصله الرفع لتدل بدخولها على المدح أو الذم كقولنا: أكرم به رجلًا، وجاد بثوبك، وطاب بطعامك، والمعنى حسبك ربك علمًا وبصيرة بذنوب العباد.

ولكن الميزة بذكر المخلوقين بلفظ العباد والإضافة للذات العلية لها أمور:

---

(١) سورة الفرقان: ٦٣.
(٢) سورة سبأ: ١٣.
(٣) سورة الإسراء: ١٧.

**الأول**: طمأنة المحاسب أنه لن يظلم ولن يعامل بظاهر فعله.

**الثاني**: أنه سيعامل بالفضل وليس بالعدل فقط حيث أضافه اللَّه إلى نفسه وهي إضافة تشريف.

**الثالث**: أن استعمال لفظ العباد مع الذنوب يدل على أنها وقعت بالاختيار المطلق، لا بالقهر والجبر، فيكون الحساب على أساس الاختيار.

- قوله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾[1]، وهذه جاءت أيضًا في سياق التخيير؛ لأنه لا قطع بالعذاب فما زالوا في جهة المشيئة من جهة المتكلم، لا من جهة المحاسب، وذلك كمن يقول لأب أخطأ أولاده ويريد عقوبتهم: هم أولادك. فيستصحب لهم أصل البنوة، مع ترك الاختيار للأب إن شاء عاقب، وإن شاء عفا، وإن شاء تفضل وأعطى.

وقوله: ﴿ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ فيه دلالة أنهم أخطئوا حيث أرادوا الصواب، فليس من طلب الكفر للكفر كمن طلب الصواب فأخطأه إلى الكفر، وإن كان الكل كافرًا، فيكون القصد: عذبهم عذابًا ولكنه دون عذاب الكافر المعاند، ودليل ذلك العطف بقوله: ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ والحكمة تقتضي التفريق.

- قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ﴾[2]، والتخويف هنا ليس من باب العقوبة، أو باب الإبعاد، بل هو من باب الشفقة والمحبة، ومن التذكير، ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3]، ولذا جاء بعده: ﴿ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾، وكثيرًا ما نصنع نحن البشر ذلك مع من نحب فنخوفه عاقبة بعض الأفعال، لا

(١) سورة المائدة: ١١٨.
(٢) سورة الزمر: ١٦.
(٣) سورة الذاريات: ٥٥.

على سبيل التهديد، ولكن على سبيل الإرشاد، فهذا منه.

- قوله تعالى: ﴿ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾[1]، و(عباد) هنا محتملة للنصب على المفعولية ويكون المعنى: سلموا إليَّ بني إسرائيل، وكنى عنهم بقوله: (عباد اللَّه) تمييزًا لهم عن غيرهم من المصريين، ونظير قوله تعالى: ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[2].

ويمكن أن تكون منصوبة على النداء، ويكون المقصود هنا فرعون وقومه، أي: يا عباد اللَّه، فيكون المقصود بالأداء هنا الطاعة والقبول أو أدوا حق اللَّه، أو الأداء بمعنى الاستماع والاتباع.

فعلى الأول فلا إشكال إذ كان بنو إسرائيل في عداد المؤمنين في ذلك الوقت، وأما الثاني فكلمة «عباد» مناسبة هنا لمقام الدعوة إذ المدعو فرعون وملئه، وهم من هم في القوة والاغترار، فوصفهم بالعبيد يحرضهم على الرفض، وحكمة الدعوة تقتضي التلطف في القول، وقد أوصى اللَّه موسى باللين مع فرعون، ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[3]، وليس من اللين وصفه بالعبودية التي تضع منه ومن قومه، وهم الذين كانوا يتخذون بني إسرائيل عبيدًا، ومثله قول النبي لكفار مكة، ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[4]، تحببًا لهم، وفتحًا لباب النقاش والمحاججة.

- قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾[5]، وظاهر النص أنه

(١) سورة الدخان: ١٨.
(٢) سورة الشعراء: ١٧.
(٣) سورة طه: ٤٤.
(٤) سورة سبأ: ٢٤.
(٥) سورة الفرقان: ١٧.

سماهم (عباد) مع كونهم ضالين.

الآية تتحدث عن مشهد من الحساب يجمع فيه اللَّه المشركين مع من اتخذوهم شركاء من دون اللَّه، ملائكة كانوا أو بشرًا أو جمادًا فيسأل المعبودين هل أمروا من اتبعوهم بعبادتهم، أو أنهم اختاروا الضلال من تلقاء أنفسهم.

والذي يمعن النظر في الآية يعرف أن السؤال هنا عن الفاعل، وليس عن الفعل، فالفعل معلوم غير منكور أو مجحود، ولكن السؤال من قام بهذا الفعل، هل هو فعل نفسي من الضال، أو أنه وقع تحت سطوة المضل، وهو سؤال استنطاق وليس سؤال استعلام، ولكن السؤال إنما هو في دار الحساب، ودار الحساب يسقط فيها الضلال وأسبابه، ويسقط فيها الكفر وأسبابه، ولا يبقى إلا الإيمان بصوره وأحواله، حال الاعتقاد، وحال المشاهدة، فالكل في دار الحساب يرجع إلى حالة الإيمان والتسليم فيصير من «العباد» وليس من «العبيد»، وإن كان لن ينفعهم إيمانهم كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ﴾(١)، وكما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ﴾(٢)، فحالهم يوم القيامة هو حال الإيمان والتسليم، ومع ذلك فلن ينفعهم لأن الآخرة دار حساب وليست دار عمل، وليست دار اختيار واختبار، فالإنسان أسير ما قدم ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾(٣).

وعلى ذلك فلما سقط عنهم القدرة على الفعل سماهم عبادًا، وهو وصف مستصحب لحالهم في يوم الحساب لا حالهم في الحساب، فإيمانهم يوم

(١) سورة السجدة: ٢٩.
(٢) سورة الروم: ٥٧.
(٣) سورة الأنعام: ١٥٨.

الحساب يجعلهم من «العباد» لفظًا، ولكنه لن ينفعهم فعلًا لانقطاع دار العمل.

- قوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾[١]. ويقال فيها مثل ما سبق في آية سورة الفرقان، فالسياق سياق دار الحساب، والقيامة، يشهد له ما سبق في الآية التي قبلها: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾[٢]، فهذا حال الموت وانقطاع العمل.

قال مقاتل في تفسير الآية: «يا ندامة للعباد في الآخرة»[٣]، ويشهد لذلك ما ورد في ندمهم يوم القيامة، ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[٤]، فهذه ندامة بعد وقوع القول وسقوط العمل، وقد ذكر الطبري قراءة لبعضهم، (يا حسرة العباد على أنفسها)[٥]، فيكون هذا في مقام المشاهدة.

على أن هناك من ذهب إلى أن لفظ العباد هنا على أصله في وصف حال المؤمنين في الدنيا، وأن المقصود بالعباد هنا هم هؤلاء الذين قتلوا على الإيمان، ومنهم ذلك المؤمن الذي رفض كفر قومه وقام فيهم ناصحًا فقتلوه، فأدخله اللَّه الجنة، وخلت الأرض ممن يذكر بالخير فجاء النص: يا حسرة الرسل أو أهل الإيمان على هذا المؤمن وأمثاله من العباد الذين دفعوا ثمن إيمانهم[٦].

قال الثعلبي في الكشف والبيان: «إنه من قول الهالكين، قال أبو العالية: لما عاينوا العذاب قالوا: «يا حسرة على العباد» يعني الرسل الثلاثة، حيث لم

---

(١) سورة يس: ٣٠.
(٢) سورة يس: ٢٩.
(٣) تفسير مقاتل (٣/ ٥٧٨)، وانظر بحر العلوم (٣/ ١١٥).
(٤) سورة الزمر: ٥٦.
(٥) تفسير الطبري (١٩/ ٤٢٨، ٤٢٩).
(٦) تأويلات أهل السنة (٨/ ٥١٤).

يؤمنوا بهم»[١].

ومن الذين فرقوا بين استعمال لفظ «العباد» و«العبيد» في القرآن وأن لفظ «العباد» ينصرف إلى نوع مخصوص من أهل الطاعة كالملائكة، أو أهل الإيمان والصلاح، نجد القفطي حيث يقول: « ثُمَّ قالوا: العبيد اسم يشارك فِيهِ المخلوق الخالق فِي التسمية؛ لأنه يقال: عبيد اللَّه، ويقال: عبيد فلان، والعباد اسم اختص اللَّه به، فيقال: عباد اللَّه، ولا يقال: عباد فلان»[٢]، ولذلك اختص بعض النصارى قديمًا أنفسهم بلفظ العباد ومنهم عدي بن زيد العبادي.

ومنهم ابن عطية حيث يقول: «والذي استقريت في لفظة (العباد) أنه جمع عبد متى سيقت اللفظة في مضمار الترفيع والدلالة على الطاعة»[٣].

وقال ابن الشجري: «والعباد مختص باللَّه تعالى، يقولون: نحن عباد اللَّه، لا يكادون يضيفونه إلى الناس، وقد جاء ذلك فيما أنشده سيبويه من قول القائل:

أَتُوعِدُني بقومك يا ابن جَحْل أُشَاباتٍ يُخالون العبادا»[٤]

وقال ابن جني: «أكثر اللغة أن تستعمل العبيد للناس والعباد للَّه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾[٦] وهو كثير»[٧].

---

(١) الكشف والبيان (٨/ ١٢٧).
(٢) إخبار العلماء بأخبار الحكماء (ص ١٣٣).
(٣) المحرر الوجيز (١/ ٤٦١).
(٤) أمالي ابن الشجري (١/ ٩٩، ١٠٠).
(٥) سورة الحجر: ٤٢.
(٦) سورة الزمر: ١٦.
(٧) المحتسب (٢/ ١٤).

وعلى هذا المعنى جاءت السنة النبوية، كما في حديث «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحاسدوا، ولا تنافسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد اللَّه إخوانًا»(١).

وعلى هذا نستطيع أن نخلص إلى أن الاستعمال القرآني قد ميز استعمال كلمة (عباد) في النص الشريف، وأنها تشير إلى نوع معين من مجمل الخلق، وليس كل الخلق، وأن الإشارة إلى جملة الخلق قد عبر عنها بألفاظ أخرى منها (عبيد) ومنها (الناس) ومنها (الإنسان).

وعلى ذلك أيضًا نستطيع أن نقول: إن المقصود بكلمة (عباد) في آية الإسراء هم قوم اتصلوا باللَّه ﷻ عبودية وعبادة، فجمعوا بين العبد والعابد، وهذا الوصف لا ينطبق على من ورد ذكرهم في كتب التفسير لأن جلهم كانوا من الوثنيين كبختنصر أو سنحاريب أو جالوت، أو كانوا ممن ضل من النصارى فأَلَّهَ عيسى بن مريم، وهؤلاء لا يكونون عبادًا للَّه.

ولا يرد على ما قلناه قراءة علي والحسن وزيد بن علي: (عبيدًا لنا)(٢).

**أولًا**: لأنها قراءة شاذة في مقابل المتواتر، والمتواتر حقه التقديم في القراءة وفي التفسير والبيان.

**ثانيًا**: لأن جمع «فَعْل» على فعيل قليل في اللغة كما أنه غير قياسي، والقياسي هو «فِعال» ومنه كَلْب وكِلَاب، وصَحْب وصِحَاب.

قال أبو حيان: «وإنما كثر استعمال عباد دون عبيد لأن فِعالًا في جمع فَعْل غير اليائي العين قياسي مطرد، وجمع فَعْل على فَعِيل لا يطرد»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠٦٤)، ومسلم في صحيحه (٤/ ١٩٨٥ رقم ٢٥٦٣).
(٢) معجم القراءات (٥/ ١٢).
(٣) البحر المحيط (٢/ ٥٢٩).

هذا هو السبب الأول الذي يجعلنا نرجح أن العباد هنا لا تنطبق على من ورد ذكرهم في كتب التفسير.

أما السبب الثاني فهو أن لفظ العباد جاء مخصصًا بالوصف أو متعلق الوصف (لنا)، حيث إن التخصيص أو التقييد كما هو معروف في اللغة والأصول هو قصر العام على بعض أفراده، ومنه ما هو منفصل عن النص كالتخصيص بالحس أو العقل، أو النص بأنواعه، أو الإجماع، أو القياس، ومنه ما هو متصل كالاستثناء والشرط، والصفة، والغاية، وبدل البعض.

وكلمة (لنا) في الآية هي شبه جملة من جار ومجرور، والقاعدة أن الجمل وأشباه الجمل تعرب صفة إذا كانت بعد نكرة محضة، وتعرب حالًا إذا جاءت بعد معرفة محضة، وهي محتملة لكلا الإعرابين إذا جاءت بعد نكرة غير محضة[1]، ويجعلها البعض متعلقًا بالصفة أو الحال المقدر، إلا أنها في كل الأحوال تعطي النكرة تخصيصًا، فيكون المعنى في جملتنا: بعثنا عبادًا مخصوصين لنا، طائعين لنا لا يخالفون عن أمرنا.

فالاختصاص باللَّه وللَّه، ونظيره قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[2]، أي خصوني بالعبادة.

وعلى ذلك فقوله «لنا» هي هنا مقيدة لنوع هؤلاء العباد، وأنهم من خلصاء اللَّه سبحانه، لا سيما أنها اتبعت بصفة أخرى وهي قوله تعالى: ﴿ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾، والصفة بعد الصفة فيها زيادة تخصيص وزيادة بيان.

ومن هذا التفصيل لمدلول قوله تعالى: (عبادًا لنا) نستطيع أن نقول في

---

(١) انظر: إعراب الجمل وأشباه الجمل: (٣٤٥ وما بعدها).

(٢) سورة آل عمران: ٧٩.

كثير من الاطمئنان أن العباد المذكورين لا بد وأن يكونوا من الموحدين الذين يفعلون ذلك احتسابًا للَّه ﷻ، وهؤلاء لم يقعوا في التاريخ اليهودي القديم، وأول من اتصف بهذا الوصف ممن سلطه اللَّه على بني إسرائيل هم المسلمون، وحيث إن الإسلام هو الدين الخاتم ولن يُقبل دين غيره، فهم المقصودون بقوله تعالى في الآية الأولى: (عبادًا لنا)، وهم المقصودون أيضًا بالضمير في آية الكرة الثانية كما سنبين.

٣- أن الذي يلاحظ العلاقة بين الضمائر في قوله تعالى: ﴿لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، يجد أنها لا بد وأن تعود على مذكور سابق معلوم، فلم يذكر اللَّه بعثًا جديدًا، وإنما أعاد الذكر بالضمائر، فلا بد أن تعود على معهود، والمعهود هنا هو (عبادًا لنا).

قال ابن عطية: «ليسوءوا فهي لام كي والضمير للعباد»[(١)]، ومثله محمود النيسابوري[(٢)]، وقال الألوسي: «وظاهر الآية يقتضي اتحاد المبعوثين أولًا وثانيًا»[(٣)].

والاتحاد هنا لا يعني اتحاد الذوات، بل يكفي فيه اتحاد الجنس، أي أنهم من ذات الجنس، بدلالة قوله: ﴿وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الذي يدل على المفارقة الزمنية، ولذا قال الإمام الماتريدي: «في ظاهر الآية أن يدخل الأولون المسجد في المرة الثانية كما دخلوا في المرة الأولى؛ لأنه قال: ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، لكن يحتمل: ليدخل عباد آخرون المسجد في المرة الثانية كما دخل الأولون في المرة الأولى»[(٤)].

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٤٤٠).
(٢) إيجاز البيان عن معاني القرآن (٢/ ٤٩٦).
(٣) روح المعاني (١٥/ ٢١).
(٤) تأويلات أهل السنة (٧/ ١٠).

فالذين سيعاقب اللَّه بهم بني إسرائيل بعد الإفساد الثاني هم من جنس من وقعت منهم العقوبة الأولى وهم المسلمون بدلالة الضمائر.

٤- أن الوصف المذكور في آية العقوبة الأولى وما بعدها يتوافق مع ما ورد في آيات القرآن عن الصراع بين المسلمين الأوائل وقبائل اليهود في المدينة وخيبر وغيرها، ومن ذلك:

- وصف المبعوثين بأنهم: ﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، وهو وصف يتناسب مع أوصاف أتباع النبي ﷺ في القرآن، فقد وصفهم بأنهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾[1]، وقال عنهم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[2].

- الآيات التي تحدثت عن الصراع مع يهود المدينة وإخراجهم منها أو معاقبتهم على خيانتهم فيها تشابه مع آية الإسراء، ففي سورة الأحزاب قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾[3]، فذكر فقدان الأرض والأموال والديار وعبر عن الأرض: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ وهو يشبه: ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾، وهو كذلك يشبه سياق سورة الحشر في بني النضير: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4]. وأول الحشر هنا يشبه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ

(١) سورة المائدة: ٥٤.
(٢) سورة الفتح: ٢٩.
(٣) سورة الأحزاب: ٢٦-٢٧.
(٤) سورة الحشر: ٢.

﴿أُولَىٰهُمَا﴾، وهو يشي بالحشر الثاني لهم، قال البغوي: «قال الزهري: كانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما مضى»[(١)].

وقال ابن عطية: «روي أن النبي ﷺ قال لهم: (امضوا، هذا أول الحشر، وإنا على الأثر)»[(٢)].

وعلى ذلك نجد أن في الإسراء حديث عن الديار، ومثله في الأحزاب والحشر، وحديث عن العباد المخصوصين، ومثله في الحشر، وحديث عن الأولية ومثله في الحشر، وحديث عن خسارة الأموال والبنين حيث عوضهم اللَّه بما فقدوه من بعد، ومثله في الأحزاب والحشر، حتى فاصلة آية الإسراء، ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾، تشبه في معناها فاصلة آية الأحزاب: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾، فكلاهما أمر اللَّه، ووصف المسلطين بـ ﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ في سورة الإسراء يقابله نفس الوصف في حال اليهود في خلافهم الداخلي: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾.

٥- أن العقوبة الأولى والثانية مترتبتان على أمرين: الإفساد والعلو الكبير، والذي ينظر في تاريخ اليهود قبل الإسلام يجد إفسادًا واضحًا، ولكنه لا يجد علوًّا كبيرًا.

فالعلو الكبير يقتضي أمورًا منها: الفعل من غير مساءلة وذلك مثلًا كوصف فرعون في القرآن: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾[(٣)]، فعلوه هنا أنه يفعل ما يشاء ولا يحاسبه أحد، ولا يستطيع أحد رد أمره، وهذا لم يقع في تاريخ بني إسرائيل قبل الإسلام، بل كانوا مستضعفين

(١) معالم التنزيل (٨/ ٦٩).
(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٢٨٣، ٢٨٤).
(٣) سورة القصص: ٤.

معظم الوقت.

كما أن العلو يقتضي أن تفرض على عدوك إرادتك فيتصرف على مرادك: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1]، وهذا أيضًا لم يقع في تاريخ اليهود قبل الإسلام، بل إنهم لم يستطيعوا فرض ذلك على أهل فلسطين في فترة دولتهم، حيث كان الفلسطينيون يعاودون الحرب والكرة مرة أخرى.

أما الذي ينظر الآن فيجد أن بني إسرائيل قد بلغوا هذا المعنى وعلو علوًّا كبيرًا، فهم يتحكمون في كثير من اقتصاد العالم، تجارة ومؤسسات مالية وبورصات، يتسلطون على كثير من السياسيين في دول الغرب فيرفعون هذا ويخفضون ذاك، لا يأبهون بالمؤسسات الدولية ولا بقراراتها، وإن كان عليها إجماع، كل هذا من العلو غير المسبوق.

ليس هذا فقط، بل إنهم صاروا يتحكمون في أعدائهم، وصار جزء من أعدائهم يطلب رضاهم وحمايتهم، وهذا من أشد العلو والتسلط، أن يكون قرار عدوك بيدك، فترى دولًا كبرى من أعدائهم يخشونهم ويطلبون رضاهم.

كما أننا نلحظ أن العلو معطوف على الفساد، وكأنه نتيجة له، وهو عين ما نراه الآن وفي التاريخ الحديث، حيث أفسد الصهاينة الحياة الاجتماعية والثقافية والأخلاقية والدينية عند كثير من الشعوب، ومن ثم تسلطوا عليهم بعد نزع منظومة القيم.

كل هذا لم يقع بصورته التي عليه لا في عهد البابليين ولا الأشوريين ولا المصريين ولا الرومان، بل هو حالهم في التاريخ الحديث.

٦- أن كلمة المسجد في قوله تعالى: ﴿وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ﴾ لها دلالة خاصة؛ فمع أنها تحتمل مكان السجود من جهة اللغة، كما في قوله ﷺ:

(١) سورة النازعات: ٢٣-٢٤.

«وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»[١]. إلا أنها هنا وردت معرفة بـ«أل»، و«أل» هنا هي للعهد وليست للجنس لقوله من بعد: ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فالضمير في (دخلوه) يتحدث عن مسجد معين لا مكانٍ مطلقٍ، ولو أراد الجنس لقال: كما دخلوا أول مرة، فذكر الضمير يشير إلى مسجد معين، والعهد هنا يحتمل العهد الذهني، ويحتمل العهد الذكري، أما الذكري فهو في أول السورة «المسجد الأقصى»، لأنه موطن الخلاف بين المسلمين واليهود، حيث لا طلبة عندهم للمسجد الحرام، كما أن المسجد الحرام لم يخرج من أيدي المسلمين ليد اليهود منذ الفتح، فهو إذن المسجد الأقصى، ويحتمل أيضًا العهد الذهني، وذلك أن كلمة المسجد تنصرف إلى المكان المعروف عند أهله، ولم يعرف المسجد بعهدته إلا عند أهل الإسلام، فكان المعنى: سيدخل هؤلاء العباد المسجد الذي يعرفون به، وهو هنا المسجد الأقصى الذي احتله اليهود في سنة ١٩٦٧م.

٧- قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ وهذا النص جاء بعد الكرة الثانية بما فيها من علو وفساد ثم عقوبة، وفيها أمَّلهم بالرحمة ولم يعدهم بالكرة مرة أخرى، فلو كان القول أن الفساد والعلو قد وقع قبل الإسلام، وأن الآيات جاءت تذكيرًا لهذا الأمر، فالمفهوم منها أيضًا أنه لن يقع لهم علو بعد الكرة الثانية، وإنما مجرد العيش منة من اللَّه، والذي نراه أن بني إسرائيل قد أقاموا ملكًا كبيرًا في أرض فلسطين منذ عام ١٩٤٨م، وزادوا في هذا الملك والسلطان حتى بلغوا به أن احتلوا أراضيَ من مصر وسوريا والأردن ولبنان، وهزموا الجيوش العربية مرات، وهذا لا يتسق مع تفسير المرتين والعلو بالزمن الماضي على الإسلام، إذ لم يذكر القرآن ملكًا بعد المرة الثانية.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٥).

ومن كل ما سبق نقول: إن المقصود بقوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ الآتي:

١- الإشارة بالمرتين لا تعني عدم وقوع غيرهما، ولكن المقصود بالمرتين هو الإفساد بصورته المؤثرة في مستقبل أمة الإسلام، والذي قد يهدد وجودها.

٢- الإفساد الأول في الأغلب هو الذي وقع في أول عهد الإسلام وترتب عليه عقوبة بني إسرائيل بالإجلاء والقتل والسبي، وانتهى بإخراجهم من الجزيرة العربية.

٣- الإفساد الثاني هو ما نعيشه الآن، حيث احتل بنو إسرائيل أحد أهم مقدسات المسلمين، وهو مدينة القدس، ومعظم فلسطين، وفعلوا هناك ما فعلوا من القتل والهدم والتخريب والظلم، الذي يستحقون معه العقوبة الثانية الكبيرة.

٤- أن العلو المذكور والموصوف في الآية، هو ما يبلغه اليهود الآن مع قلة عددهم قياسًا بعدوهم، وأن هذا العلو لم يقع لبني إسرائيل طيلة تاريخهم، وهو في ذات الوقت مؤذن بنهايتهم الثانية الكبيرة في عهد الإسلام.

# المبحث الرابع
## «في الأرض - من الأرض - اسكنوا الأرض»

وردت كلمة الأرض مرتبطة ببني إسرائيل في سورة الإسراء في مواضع هي:

- ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(١).
- ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾(٢).
- ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾(٣).

فما المقصود بالأرض في الآيات الثلاث؟

**أولًا:** ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

لم يتفق المفسرون في تحديد المقصود بالأرض في هذا الموضع، ونستطيع أن نحصر ما ذكروه في الآتي:

١ - أن المقصود بالأرض هو أرض الشام وبيت المقدس، وهذا ما عليه جمهور المفسرين تصريحًا أو إشارة، قال البغوي، «والمراد بالأرض أرض الشام وبيت المقدس»(٤). ومثله أبو حيان الذي قال: «وقال الكلبي: لتعصن في الأرض المقدسة»(٥). والبقاعي أيضًا فسرها بالأرض المقدسة: «أي الأرض المقدسة التي كأنها لشرفها هي الأرض»(٦). وأبو زهرة حيث قال في

---

(١) سورة الإسراء: ٤.
(٢) سورة الإسراء: ١٠٣.
(٣) سورة الإسراء: ١٠٤.
(٤) معالم التنزيل (٥/ ٧٩).
(٥) البحر المحيط (٦/ ٨).
(٦) نظم الدرر (٤/ ٣٣٦).

تفسير الآية: «وذكر سبحانه أن فسادهم تكون عاقبته أنه يعم الأرض أي أرض بيت المقدس، أو يسري في الأرض التي تقاربه»[١].

وإلى هذا ذهب القرطبي[٢]، والخازن[٣]، وابن عادل[٤]، والسيوطي[٥].

٢- أن المقصود بالأرض هنا أرض مصر:

وإلى هذا ذهب ابن الجوزي حيث قال: «يعني أرض مصر»[٦]، والفخر الرازي[٧]، والنيسابوري[٨].

٣- أن المقصود هو عموم الأرض: وهو ما نستشعره عند الهواري الذي لم يحدد أرضًا حيث قال: «لتهلكن في الأرض مرتين»[٩]، ومثله السمرقندي[١٠]، والسمعاني الذي قال: «لتعصن في الأرض مرتين»[١١].

وأشار إلى العموم أيضًا الطبرسي نقلًا عن الجبائي حيث قال: «وقيل إنه سبحانه ذكر فسادهم في الأرض ولم يبين ما هو، فلا يقطع على شيء مما ذكر -أي ما ذكره المفسرون- عن أبي علي الجبائي»[١٢].

---

(١) زهرة التفاسير (٨/ ٤٣٣٣).
(٢) تفسير القرطبي (١٠/ ٢١٤).
(٣) لباب التأويل (٣/ ١١٧).
(٤) اللباب (١٢/ ٢١٠).
(٥) تفسير الجلالين (ص ٣٦٦).
(٦) زاد المسير (٣/ ١٠).
(٧) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٩٩).
(٨) غرائب القرآن (٤/ ٣٢٦).
(٩) تفسير الهواري (٢/ ٤٠٨).
(١٠) بحر العلوم (٢/ ٣٠١).
(١١) تفسير السمعاني (٣/ ٢١٨).
(١٢) مجمع البيان (٦/ ١٦٨).

ونص عليه الإمام الأكبر الشيخ محمد سيد طنطاوي في الوسيط حيث قال: «والمقصود بالأرض عمومها»[١].

**ثانيًا:** ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾:

وكما وقع الخلاف في تحديد المقصود من كلمة الأرض في الموضع الأول، وقع الخلاف أيضًا في تحديد المقصود بها في هذه الآية، وهذي هي أقوال المفسرين.

١ - المقصود بالأرض في هذه الآية هي أرض مصر:

وإلى هذا ذهب جمهور أهل التفسير، ومنهم مقاتل بن سليمان الذي قال: «يعني أن يخرجهم من أرض مصر»[٢]، ويحيى بن سلام[٣]، والهواري[٤]، وأبو منصور الماتريدي[٥]، وابن أبي زمنين[٦]، ومكي بن أبي طالب[٧]، والطوسي[٨]، والواحدي[٩]، والبغوي[١٠]، والزمخشري[١١]، وابن عطية[١٢]، وابن الجوزي[١٣]،.....

(١) التفسير الوسيط (٨/ ٢٩٠).
(٢) تفسير مقاتل (٢/ ٥٥٣).
(٣) تفسير يحيى بن سلام (١/ ١٦٦).
(٤) تفسير الهواري (٢/ ٤٤٦).
(٥) تأويلات أهل السنة (٧/ ١٢٣).
(٦) تفسير ابن أبي زمنين (٣/ ٤٣).
(٧) الهداية إلى بلوغ النهاية (٦/ ٤٣٠٥).
(٨) التبيان في تفسير القرآن (٦/ ٥٢٢).
(٩) الوجيز للواحدي (ص ٦٥٠).
(١٠) معالم التنزيل (٥/ ١٣٥).
(١١) الكشاف (٢/ ٦٥٣).
(١٢) المحرر الوجيز (٣/ ٤٩٠).
(١٣) زاد المسير (٣/ ٥٨).

والفخر الرازي[١]، والقرطبي[٢]، وابن جزي الكلبي[٣]، والخازن[٤]، وأبو حيان[٥]، وابن عاشور الذي قال: «والأرض الأولى هي المعهودة وهي أرض مصر»[٦].

٢- الأرض في هذه الآية أرض مشتركة ويقصد بها مصر والأردن وفلسطين:

وإلى هذا أشار السمرقندي[٧]، والثعلبي[٨]، والماوردي الذي قال: «ويعني بالأرض مصر وفلسطين والأردن»[٩]، والطبرسي[١٠]، والقاسمي[١١].

٣- أن المعنى هنا يحتمل مطلق الأرض:

وهو ما ذكره البيضاوي[١٢]، والنسفي[١٣]، والنيسابوري الذي قال: «من بسيط الأرض»[١٤]، وأبو السعود الذي قال: «أو من الأرض

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤١٦).
(٢) تفسير القرطبي (١٠/ ٣٣٨).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٤٥٦).
(٤) لباب التأويل (٣/ ١٤٩).
(٥) البحر المحيط (٦/ ٨٤).
(٦) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٢٨).
(٧) بحر العلوم (٢/ ٣٣٢).
(٨) الكشف والبيان (٦/ ١٣٩).
(٩) النكت والعيون (٣/ ٢٧٨).
(١٠) مجمع البيان (٦/ ٢٢٨).
(١١) محاسن التأويل (٦/ ٥١٩).
(١٢) أنوار التنزيل (٣/ ٢٦٩).
(١٣) مدارك التنزيل (٢/ ٢٨١).
(١٤) غرائب القرآن (٤/ ٣٩٦).

مطلقًا»[١]، والشوكاني الذي قال: «وقيل أراد أن يقتلهم، وعلى هذا يراد بالأرض مطلق الأرض»[٢]، ومثله الألوسي الذي قال: «أو من جميع الأرض، ويلزم إخراجهم من ذلك قتلهم واستئصالهم وهو المراد»[٣].

**ثالثًا:** ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾:

وهذه الأرض أيضًا وقع الخلاف في تحديدها، وسنحصر خلاف المفسرين في الآتي:

**١ - المقصود بالأرض هنا أرض مصر:**

ذكره إمام الهدى كأحد الروايات المتوجه لها الكلام[٤]، والبغوي وجهًا[٥]، وابن الجوزي وجهًا[٦]، والقرطبي وجهًا[٧]، والشوكاني الذي قال: «المراد بالأرض هنا أرض مصر التي أراد أن يستفزهم منها»[٨]، وهو ما رجحه أبو زهرة، واستدل له بقوله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾[٩]، فقال: «والأرض هنا أَهِيَ أرض مصر؟ ومن يحكمهم فرعون بعد أن زال هو وجنوده، وصاروا عبرة للمعتبرين، أم هو جنس الأرض؟

إننا نميل إلى أرض مصر ، لعلهم دخلوها مستباحة لهم ثم عادوا طالبين

(١) إرشاد العقل السليم (٥/ ١٩٩).
(٢) فتح القدير (٣/ ٣١٢).
(٣) روح المعاني (١٥/ ١٨٦).
(٤) تأويلات أهل السنة (٧/ ١٢٣).
(٥) معالم التنزيل (٥/ ١٣٥).
(٦) زاد المسير (٣/ ٥٨).
(٧) تفسير القرطبي (١٠/ ٣٣٨).
(٨) فتح القدير (٣/ ٣١٢).
(٩) سورة القصص: ٥.

الأرض»[١].

**٢- المقصود بالأرض أرض الشام أو الأردن وفلسطين:**

وهذا ما عليه جمهور المفسرين، ومنهم الطبري[٢]، والسمرقندي[٣]، والثعلبي[٤]، ومكي بن أبي طالب[٥]، والطوسي[٦]، والبغوي[٧]، وابن عطية[٨]، وابن الجوزي[٩]، والقرطبي[١٠]، وأبو حيان[١١]، وابن عاشور[١٢].

**٣- أن الأرض المذكورة هي أرض الصين:**

وهذا ما ذهب إليه مقاتل بن سليمان في تفسيره[١٣]، ونقله عنه ابن الجوزي[١٤]، قال مقاتل: «فهم وراء الصين، فساروا من بيت المقدس في سنة ونصف سنة، ستة آلاف فرسخ، وبينهم وبين الناس نهر من رمل يجري اسمه أردف، يجمد كل سبت... فضرب اللَّه ﷻ سربًا في الأرض من بيت المقدس إلى وراء الصين، فجعلوا يسيرون فيه».

---

(١) زهرة التفاسير (٨/ ٤٤٧١).
(٢) تفسير الطبري (١٥/ ١١١).
(٣) بحر العلوم (٢/ ٣٣٢).
(٤) الكشف والبيان (٦/ ١٤٠).
(٥) الهداية إلى بلوغ النهاية (٦/ ٤٣٠٥).
(٦) التبيان في تفسير القرآن (٦/ ٥٢٢).
(٧) معالم التنزيل (٦/ ١٣٥).
(٨) المحرر الوجيز (٣/ ٤٩٠).
(٩) زاد المسير (٣/ ٥٨).
(١٠) تفسير القرطبي (١٠/ ٣٣٨).
(١١) البحر المحيط (٦/ ٨٤).
(١٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٢٨).
(١٣) تفسير مقاتل (٢/ ٥٥٣، ٥٥٤).
(١٤) زاد المسير (٣/ ٥٨).

**٤- أن الأرض هنا هي مطلق الأرض:**

فالأرض هنا هي جنس الأرض لا أرض بعينها، وإلى هذا ذهب الإمام الماتريدي وجهًا[١]، ونص عليه البقاعي[٢]، وعبد الكريم الخطيب[٣]، والشعراوي[٤].

هذه مجمل آراء المفسرين في تحديد المقصود بكلمة الأرض في المواضع الثلاثة، ولعله من المناسب أن نعرض ما ذكروه على مجمل النص القرآني الذي وردت فيه كلمة الأرض، ومتى يكون فيها عموم الجنس، ومتى يكون فيها خصوص العهد.

**أولًا:** وردت كلمة الأرض في القرآن ٤٥٨ مرة، ومن يراجع هذه المواضع يلحظ أن لفظ الأرض غلب عليه الجنس دون تحديد أرض بذاتها، وهي الأرض التي خلقها اللَّه وسخرها للإنسان[٥]، وجعلها مهدًا وقرارًا[٦]، وهي التي استخلف الإنسان فيها[٧]، ونهاه عن الفساد فيها[٨]، وجعل فيها

---

(١) تأويلات أهل السنة (٧/ ١٢٣).

(٢) نظم الدرر (٤/ ٤٣٤).

(٣) التفسير القرآني للقرآن (٨/ ٥٦٣).

(٤) تفسير الشعراوي (١٤/ ٨٧٨٨).

(٥) انظر: البقرة: ٢٢، ٢٩، ٢٧٦، الحج: ٦٥، طه: ٥٣، لقمان: ٢٠، النبأ: ٦.

(٦) انظر: غافر: ٦٤، الزخرف: ١٠.

(٧) انظر: البقرة: ٣٠، الأنعام: ٦٠، ١٦٥، الأعراف: ١٠، ٧٤، ٨٥، ١٢٩، يونس: ١٤، النمل: ٤٨، ٦٢، فاطر: ٣٩، ص: ٢٦.

(٨) انظر: البقرة: ٢٧، ٦٠، ٢٠٥، ٢٥١، المائدة: ٣٢، ٣٣، ٦٤، الأنعام: ١١٦، الأعراف: ٥٦، ١٢٧، يونس: ٢٣، هود: ٨٥، الرعد: ٢٥، الحجر: ٣٩، الشعراء: ١٥٢، ١٨٣.

آيات صنعه[١]، فهو المتحكم فيها وفي مقاديرها[٢]، إلى غير ذلك من الأغراض.

**ثانيًا:** وردت كلمة الأرض مخصوصة أو عهدية في مواضع في القرآن الكريم، وقد عرف تخصيصها بوسائل منها:

١- أن تكون موصوفة كما في قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾[٣].

٢- أن تكون مضافة كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ﴾[٤].

٣- أن تكون عهدية سواء كان عهدًا ذكريًّا كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾[٥]، فالضميران يعودان على المذكور وهو «الأرض»، أم كان عهدًا ذهنيًّا كما في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾[٦]، وهي أرض الشام.

**ثالثًا:** تنوعت معاني لفظ الأرض في القرآن الكريم ومنها:

١- الأرض يعني الجنة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُ﴾[٧].

---

(١) انظر: البقرة: ١٦٤، آل عمران: ١٩٠، ١٩١، يونس: ٦، ١٠١، يوسف: ١٠٥، الروم: ٢٢.

(٢) انظر: المائدة: ١٧، ٣٦، يونس: ٥٤، ٦١، ٩٩، الإسراء: ٩٩، مريم: ٩٣، العنكبوت: ٢٢، سبأ: ٩، فاطر: ٤٠، ٤١، يس: ٨١، الزمر: ٢١، ٣٨، ٦٣، ٦٨.

(٣) سورة المائدة: ٢١.

(٤) سورة الأحزاب: ٢٧.

(٥) سورة البقرة: ٣٠.

(٦) سورة الأنبياء: ٧١.

(٧) سورة الزمر: ٧٤.

٢- الأرض هي الشام وبيت المقدس: ومنه قوله تعالى: ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾(١).

٣- الأرض الجزيرة العربية بخلاف المدينة: ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾(٢).

٤- الأرض هي أرض مصر: كما في قوله تعالى: ﴿ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ ﴾(٣).

٥- الأرض مكة: كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ ﴾(٤).

٦- الأرض بمعنى الموطن المحلي: ومنه قوله تعالى: ﴿ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾(٥).

٧- الأرض هي الجنس الذي يعيش عليه الإنسان: وهذا كثير ومنه: ﴿ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ ﴾(٦).

٨- الأرض يعني أرض القيامة: كما في قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾(٧).

**رابعًا:** قال ابن عطية: «متى ذكرت الأرض عمومًا، فإنما يراد بها ما يناسب

---

(١) سورة الروم: ٢-٣.
(٢) سورة النساء: ٩٧.
(٣) سورة يوسف: ٥٥.
(٤) سورة الإسراء: ٧٦.
(٥) سورة المائدة: ٣٣.
(٦) سورة لقمان: ٢٧.
(٧) سورة إبراهيم: ٤٨.

القصة المتكلم فيها، وقد يحسن عمومها في بعض القصص»[١].

فالمناسبة مقدمة في تفسير عموم لفظ الأرض، حيث إن الأقرب أن نربطها بالسياق، فإن كان عامًّا عمت، وإن كان خاصًّا خصت، ومع ذلك فقد ترد كلمة الأرض جزءًا من السياق القصصي ولا يقصد بها أرض معينة، بل جنس الأرض، ومن ذلك ما ورد في قصة بقرة بني إسرائيل، فقد وصفت بأنها «تثير الأرض»، والأرض هنا وإن ارتبطت بأرض التيه، فإن أرض التيه ليست مقصودة لذاتها، فهذه البقرة تثير في مشيها وجريها كل أرض سواء كانت في التيه أو في غيره؛ لأنها بقرة قوية في وصفها وفي مشيها وغير مروضة.

وإذا عدنا إلى المواضع الثلاثة التي ذكرت فيها كلمة الأرض مرتبطة ببني إسرائيل في سورة الإسراء، فإننا نرجح أن لفظ الأرض في المواضع الثلاثة هو مطلق الأرض وليس أرضًا بعينها، ودليلنا على ذلك الآتي:

١- أن المتتبع لكلمة الأرض في قصة بني إسرائيل سيجد أنها جاءت بصور:

**الأولى**: أرض مخصوصة بالوصف: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾[٢]، فقد خصصها بالوصف الذي هو «مقدسة»، ومنه: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ﴾[٣]، فقد وقع التخصيص أيضًا بالصفة: ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ﴾، وهي تشير إلى ذات الأرض المشار إليها في آية المائدة.

**الثانية**: أرض مخصوصة بالإضافة: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٤٩٠).
(٢) سورة المائدة: ٢١.
(٣) سورة الأعراف: ١٣٧.

أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ ﴾[١]. فـ(أرض) مضافة بالضمير إلى قبائل اليهود في المدينة، فهي أرض مخصوصة في المدينة المنورة.

**الثالثة**: التعبير عن أرض معينة ببعضها: ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾[٢]، قال ابن عباس: هي أريحا[٣]. وقال الضحاك: هي الرملة والأردن وفلسطين وتدمر[٤]. وقال مقاتل: إيليا[٥]. وقال ابن كيسان: الشام[٦]، وقال السدي: قرية ببيت المقدس[٧].

ومثل ذلك آية الأعراف: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾[٨]، وآية المائدة: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ ﴾[٩]. أي من باب المدينة، أو أحد أبوابها.

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾[١٠]، فهي موضع معين لا مطلق الأرض، وقد اختلف المفسرون في تحديدها فقال مقاتل: إنها أيلة. وهو قول ابن عباس وعكرمة والسدي، أو أنها بساحل مدين، وهو قول قتادة، أو أنها طبرية على قول ابن شهاب[١١].

---

(١) سورة الأحزاب: ٢٧.
(٢) سورة البقرة: ٥٨.
(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٢٧٣).
(٤) تفسير القرطبي (١/ ٤٠٩).
(٥) بحر العلوم (١/ ٥٥)، والكشف والبيان (١/ ٢٠١).
(٦) معالم التنزيل (١/ ٩٨، ٩٩).
(٧) النكت والعيون (١/ ١٢٥).
(٨) سورة الأعراف: ١٦١.
(٩) سورة المائدة: ٢٣.
(١٠) سورة الأعراف: ١٦٣.
(١١) راجع: النكت والعيون (٢/ ٢٧١، ٢٧٢).

**الرابعة:** أنها تأتي جنسية تعم كل أرض أو كل ما يطلق عليه أرض، وهذا جاء كثيرًا في سياق قصة بني إسرائيل، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[١]، وقوله: ﴿ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾[٢]، وقوله: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾[٣].

فكل هذه المواضع لا تتحدث عن أرض بعينها، لأنها خلت من التخصيص بالوصف أو بالإضافة، أو العهدية.

وإذا ما عدنا إلى المواطن الثلاثة في سورة الإسراء نجد أنها خلت من أسباب التخصيص.

٢- أن القول بعموم الأرض في قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾[٤]، متوافق مع قوله تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾[٥]، ومتوافق مع آخر الآية وهو قوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾، أي جمعناكم بعد فرقتكم في مكان واحد، فيكون: ﴿ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي: تفرقوا فيها.

٣- أن تفسير قوله تعالى: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾، أنها أرض مصر فيه ضعف، إذ هو فرع عن تفسير كلمة «يستفزهم» بمعنى يخرجهم والصواب أنها بمعنى: يقتلهم ويقضي عليهم ويستأصلهم، كما أشار جمع من المفسرين، وبيان ذلك أن بني إسرائيل كانوا قد بدءوا بالفعل في الخروج من مصر، ولم يحتج فرعون لجمع لطردهم، إذ كان هذا هو طلب سيدنا موسى،

---

(١) سورة البقرة: ٦٠.
(٢) سورة البقرة: ٦١.
(٣) سورة البقرة: ٢٥١.
(٤) سورة الإسراء: ١٠٤.
(٥) سورة الأعراف: ١٦٨.

﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[١]، ولكن فرعون بعد أن أذن لهم بالخروج راجع نفسه وقرر إفناءهم، وهذا ما تشهد به الآيات ومنها: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ... فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ ﴾[٣].

وعلى هذا فمطلب فرعون لم يكن طردهم من الأرض، أو إخراجهم من أرض مصر، بل إزالتهم جميعًا من على وجه الأرض، ولو اقتضى منه الأمر مطاردتهم في كل أرض، وهذا عينه ما وقع من الفراعنة اللاحقين حيث هاجموا بني إسرائيل في أرض فلسطين مرات.

٤- أن زعم البعض بأن «أل» في قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾، أنها «أل» العهدية، وتعود إلى الأرض المذكورة من قبل وهي عندهم أرض مصر، أقول: هذا تفسير خاطئ أيضًا، لأن وقائع التاريخ تقول إن بني إسرائيل لم يعودوا إلى مصر بعد أن خرجوا منها.

وهذا عين ما قاله ابن عجيبة في رده على من قال: إن المقصود بالأرض في هذا الموضع هو أرض مصر: «لم يصح أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بالسكنى»[٤].

٥- أن واقع الحال وأحداث التاريخ تقول إن بني إسرائيل لم يسكنوا أرضًا معينة طول تاريخهم، بل كانوا يتنقلون من أرض إلى أرض، فقد مكثوا

(١) سورة الشعراء: ١٧.
(٢) سورة الشعراء: ٥٢- ٦٠.
(٣) سورة طه: ٧٧- ٧٨.
(٤) البحر المديد (٣/ ٢٣٩).

في جنوب فلسطين من وقت يعقوب إلى هجرتهم لمصر، ثم مكثوا في مصر من وقت يوسف إلى وقت موسى، ثم خرجوا وتاهوا في الأرض أربعين سنة، ثم دخلوا أرض فلسطين تفاريق وليس دخولًا واحدًا، ثم أخرجوا منها في عهد البابليين، ومن بعدهم الرومان، فمنهم من جاء للجزيرة العربية ومكث فيها زمنًا ثم أخرج منها، ومنها من ساح في الأرض حتى وصل أوربا وروسيا، ولم تبدأ هجرة اليهود إلى أرض فلسطين إلا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وما زال عدد كبير منهم مفرقًا في البلاد.

وعلى هذا فتحديد «الأرض» في قوله تعالى: ﴿ لَنُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وقوله: ﴿ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾، فيه مجازفة من جهة النظم، ومجافاة لأحداث التاريخ.

ومما سبق نقول: إن الأرض المذكورة في سياق بني إسرائيل في سورة الإسراء، هي الأرض بالمطلق، وإن تقييدها بأنها أرض الشام وبيت المقدس في الموضع الأول والثالث، وأرض مصر في الموضع الثاني، لا يستقيم نظمًا ولا معنى، ولا يوافق أحداث التاريخ، وقصد جنس الأرض هو الأقرب للنظم والمعنى وأحداث التاريخ.

# المبحث الخامس
# «ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً»

ذكرنا في المبحث قبل السابق ما جاء في إفساد بني إسرائيل، وتأويلات العلماء، وما رجحناه من أن الإفسادين متعلقان بما بعد نزول السورة، لا قبلها.

وفي هذا المبحث سنناقش فيه بني إسرائيل بعد العقوبة الأولى، وما وقع لهم، وما وعدتهم الآية به، وهو هنا ثلاثة أشياء هي:

١) الانتصار على من تغلب عليهم أولًا.

٢) الإمداد المادي والبشري.

٣) التمكين لدرجة إخافة العدو.

## أولًا: ما جاء في كتب التفسير:

ذكرنا في المبحث قبل السابق أن معظم كتب التفسير اتجهت لتفسير الفساد والعقوبة على أنها شيء وقع لبني إسرائيل قبل الإسلام بزمن، ووقع الخلاف بينهم فقط في تحديد نوع الفساد ونوع العقوبة، وعلى ذلك فجلهم ربط الكرة بالنصر والتمكين بما اعتبره من فساد وعقوبة، وسأذكر جملة مما ذكره المفسرون في شأن الكرة:

قال مقاتل: «ثم إن اللَّه ﷻ استنقذهم على يد كروس بن مزدك الفارسي فردهم إلى بيت المقدس، فذلك قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾»[1].

وقال يحيى بن سلام: «ثم رددنا لكم الكرة عليهم، ففعل ذلك بهم في

(١) تفسير مقاتل (٢/ ٥٢١).

زمان داود يوم طالوت»[١]، وتابعه في ذلك الهواري[٢].

وقال الفراء: «يعني على بختنصر جاء رجل بعثه اللَّه ﷻ على بختنصر فقتله وأعاد اللَّه إليهم ملكهم وأمرهم فعاشوا»[٣].

أما الطبري فقد ذكر عدة وجوه: منها: أن بني إسرائيل غزوا أعداءهم وانتصروا عليهم، ومنها أن الملك الذي غزاهم أطلقهم من تلقاء نفسه، ومنها أن هذا الحدث وقع حين قتلوا جالوت[٤]، وتابعه مكي في كل ذلك[٥]، وكذلك الماوردي[٦].

وقال ابن أبي حاتم: «عن قتادة رضي اللَّه عنه قال: أما المرة الأولى فسلط اللَّه عليهم جالوت، حتى بعث اللَّه طالوت ومعه داود فقتله داود ثم رد الكرة لبني إسرائيل»[٧].

وقال السمرقندي: «يقول أعطيناكم الدولة، ويقال: الرجعة عليهم»[٨]، وتابعه في هذا التفسير الواحدي[٩]، والبغوي[١٠].

وقال السمعاني: «وفي بعض القصص: أن اللَّه تعالى أرسل ملكًا إليهم

---

(١) تفسير يحيى بن سلام (١/ ١١٦).
(٢) تفسير الهواري (٢/ ٤٠٨).
(٣) معاني القرآن (٢/ ١١٦).
(٤) تفسير الطبري (١٤/ ٤٧٧).
(٥) الهداية إلى بلوغ النهاية (٦/ ٤١٤١ - ٤١٤٥).
(٦) النكت والعيون (٣/ ٢٣٠).
(٧) تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٣١٨).
(٨) بحر العلوم (٢/ ٣٠٢).
(٩) الوجيز (ص ٦٢٨).
(١٠) معالم التنزيل (٥/ ٧٦).

حتى رد العمارات واستنقذ الأسارى، وعاد البلد أفضل مما كان»[١].

وقال الزمخشري: «قيل هي قتل بختنصر واستنقاذ بني إسرائيل أسراهم وأموالهم ورجوع الملك إليهم، وقيل: هي قتل داود جالوت»[٢].

وقال ابن عطية: «وهذه الكرة هي بعد الجولة الأولى لما وصفنا فغلبت بنو إسرائيل على بيت المقدس وملكوا فيه وحسنت حالهم برهة من الدهر»[٣].

وبمثل ما سبق جاء كلام ابن الجوزي[٤]، والفخر الرازي[٥]، والقرطبي[٦]، وقال البيضاوي: «أي الدولة والغلبة عليهم» على الذين بعثوا عليكم، وذلك بأن ألقى اللَّه في قلوب بهمن بن إسفنديار لما ورث الملك من جدة كشتاسف بن لهراسف شفقة عليهم، فرد أسراهم إلى الشام، وملك دانيال عليهم»[٧].

وقال الألوسي: «وكان بين البعث والرد على ما قيل مائة سنة، وذلك بعد أن تابوا ورجعوا عما كانوا عليه» وذكر بعد ذلك قصة أردشير بهمن بن إسفنديار التي ذكرها البيضاوي[٨].

وفصل ابن عاشور الكرة بقوله: «رجوع بني إسرائيل إلى أورشليم كان

---

(١) تفسير السمعاني (٣/ ٢١٩).
(٢) الكشاف (٢/ ٦٠٧).
(٣) المحرر الوجيز (٣/ ٤٤٩).
(٤) زاد المسير (٣/ ١١).
(٥) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٠٠).
(٦) تفسير القرطبي (١٠/ ٢١٧).
(٧) أنوار التنزيل (٣/ ٢٤٨).
(٨) روح المعاني (١٥/ ١٨).

بتغلب ملك فارس على ملك بابل، وذلك أن بني إسرائيل بعد أن قضوا نيفًا وأربعين سنة في أسر البابليين، وتابوا إلى اللَّه وندموا على ما فرط منهم سلط اللَّه ملوك فارس على ملوك بابل الأشوريين، فإن الملك كورش ملك فارس حارب البابليين وهزمهم فضعف سلطانهم، ثم نزل بهم داريوس ملك فارس وفتح بابل سنة ٥٣٨ قبل المسيح، وأذن لليهود في سنة ٥٣٠ قبل المسيح أن يرجعوا إلى أورشليم ويجددوا دولتهم، وذلك نصر انتصروه على البابليين إذ كانوا أعوانًا للفرس عليهم»[(١)].

## ثانيًا: فقه الآية في ضوء أحداث التاريخ:

رجحنا في المبحث قبل السابق كون الإفساد والعقوبة المذكورة في سورة الإسراء هو شيء لما بعد نزول سورة الإسراء وليس خبرًا من الماضي، ودللنا على ذلك بأدلة متنوعة، واتساقًا مع هذا الترجيح نرى أن هذه الآية تؤكد ما ذهبنا إليه، وتفصيل ذلك في الآتي:

### ١- ثم رددنا لكم الكرة عليهم:

نقول: رد -بتشديد الدال- يرد ردًّا، وهو راد وهو مردود.

ورد بمعنى أرجع الشيء، هذا هو الأصل، وقد يكون له معنًى سياقي قريب، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ ﴾[(٢)]، أي فوضوه إليه في الحكم.

ورد الزوجة: إرجاعها إلى عصمة الرجل. ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾[(٣)].

ورد السلام: مقابلة التحية بمثلها، ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٢).
(٢) سورة النساء: ٨٣.
(٣) سورة البقرة: ٢٢٨.

أَوْ رُدُّوهَآ﴾[1].

ورد الظالم عن ظلمه: زجره ومنعه.

ورد الهجوم: صده.

ورد الزيارة: مبادلتها بأخرى.

ورد الخطاب: جوابه.

ورد رأيه: خطأه فيما ذهب إليه.

ورد شهادته: لم يعدله.

إلى غير ذلك من المعاني التي تدور حول معنى الإرجاع.

والمعنى الظاهر هنا أننا نعطيكم النصر على أعدائكم وذلك أنكم تنتصرون عليهم كما انتصروا عليكم من قبل.

وهذا الجزء من الآية دال بنظمه على أن المعركة بين بني إسرائيل وعدوهم ستكون سجالًا، وأنهم سيواجهون ذات العدو، والدليل على ذلك قوله «عليهم» فالضمير هنا يعود إلى مذكور سابق، ولا مسبوق إلا قوله «عبادًا لنا»، ويكون المعنى: بعثنا عليكم عبادًا لنا فانتصروا عليكم ثم أعطيناكم الأسباب فانتصرتم عليهم، وبهذا يتبين ضعف أكثر التفاسير التي ذهبت إلى أن المبعوثين أولًا كانوا هم البابليين، وذلك أن بني إسرائيل لم يحاربوا البابليين مرة أخرى وينتصروا عليهم، بل الذي انتصر عليهم هم الفرس كما هو معلوم عند أهل التاريخ.

ولا يكفي ما ذكره الطاهر بن عاشور أنهم ساعدوا الفرس في غزوهم للبابليين لأن هذا لا دليل عليه، كما أن اليهود كانوا مستعبدين في هذه الفترة

---

(١) سورة النساء: ٨٦.

ولا يستطيعون نصر أنفسهم ولا غيرهم، كما أن نظم الآية يقول: «لكم» وهو جار ومجرور متعلق بـ«رددنا»، وفيه تخصيص بمن وقع له المدد والنصر، ولو قال: ثم رددنا الكرة عليهم، لاحتمل أن المدد وقع لغيرهم.

وهذا الضعف في التوجيه الذي أشرنا إليه ينسحب أيضًا على من قال: إن الرد كان بقتل بختنصر، والحق أنه لا توجد رواية تاريخية موثوقة تقول: إن بختنصر مات مقتولًا، وقد نص على ذلك الألوسي وهو مفسر وعالم عراقي له دراية بالتواريخ حيث قال: «ولم يثبت»[(١)]، كما أن كتب التاريخ والتراجم لم تذكر مسألة قتل بني إسرائيل لبختنصر.

والغالب أن هؤلاء قد تأثروا بما ورد في أسفار اليهود عن إصابة بختنصر بمرض الاستذئاب، أو الجنون، وأنه بقي في حالة الحيوانية هذه سبع سنوات ثم مات[(٢)].

ومثل ذلك يقع على توجيه من قال: إن اللَّه أرسل ملكًا من السماء هو الذي رد بني إسرائيل، فلا يوجد ما يدل على أن قومًا ممن حارب بني إسرائيل قد وقعت عليهم عقوبة عامة كالتي وقعت على عاد أو ثمود أو قوم لوط، بل التاريخ يتحدث عن حروب بشرية، حتى التي وقعت بين الفلسطينيين وجيش بني إسرائيل بقيادة شاؤل وداود عليهما السلام ليس فيها خبر نزول ملائكة، وجل ما أثبته القرآن أن الملائكة جاءت بالتابوت المقدس عندهم من عند أعدائهم آية على صدق النبوة.

على ذلك فنقول: إن المقصود هنا أن اللَّه يعيد الكرة لبني إسرائيل على عدوهم الذي أخرجهم أول مرة وهم المسلمون أيام النبي ﷺ، وهذا ما ذهب

---

(١) روح المعاني (١٥/ ١٨).

(٢) سفر دانيال: «الإصحاح الرابع» [الآيات: ٢٤-٣٣].

إليه الشيخ الشعراوي في تفسيره[١]، ودليلنا على ذلك الآتي:

١- قوله تعالى: «ثم» وهي حرف يفيد التراخي الزمني والتراخي في الرتبة، وهي بدلالتها توحي أن المدة بين العقوبة على الإفساد الأول والفيء والكرة ستكون مدة طويلة نسبيًّا، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾[٢]. فعطف القبر على الإماتة بالفاء التي تفيد الترتيب والسرعة، ثم عطف عليها النشور الذي يأخذ زمنًا طويلًا متراخيًا بـ«ثم».

ولما كان الإفساد الأول قد وقع في صدر الإسلام -على ترجيحنا- ناسب هنا استعمال «ثم» لتدل على أن تمكن بني إسرائيل سيأخذ وقتًا معتبرًا في عمر الأمتين.

وإذا نظرنا لأحداث التاريخ نجد أنه لم يقع احتكاك بين أمة النبي محمد ﷺ، وأمة بني إسرائيل حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، وبداية هجرة اليهود إلى فلسطين، وما واكب ذلك من تمكين اليهود، حتى انتهى بهم الأمر لإعلان دولة على أكثر أرض فلسطين سنة ١٩٤٨، وتبعه الهزيمة الكبرى لأمة النبي ﷺ أمام بني إسرائيل في سنة ١٩٦٧، حيث قتل الآلاف في الجبهات المختلفة في سوريا ومصر وفلسطين والأردن ولبنان، وضاعت مدينة القدس ومعها المسجد الأقصى. وصاحب ذلك مذابح لا حصر لها.

٢- استعمال حروف الجر مع ضمير الجمع في «لكم»، «عليهم» وقلنا إن الضمير في «لكم» يعود على بني إسرائيل، والضمير في «عليهم» يعود على العباد المذكورين في آية الإعلام بالعقوبة الأولى.

وتناوب أحرف الجر هنا له دلالة وجمال في نفس الوقت، لأنه لا يشير إلى

---

(١) تفسير الشعراوي (١٤/ ٨٣٦٠).

(٢) سورة عبس: ٢١-٢٢.

أمر واحد، وإنما إلى أمرين في ذات الوقت:

- فما هو نعمة على أمة هو نقمة على الأخرى، وما هو عطاء لأمة هو نفسه سلب من أخرى.

- أن علة العقوبة واحدة، فإذا أفسد بنو إسرائيل عوقبوا على إفسادهم بقوم لا يفسدون، وإذا قلدهم من وقعت بهم العقوبة في الإفساد عوقبوا ببني إسرائيل.

٣- عبقرية النظم الذي خلق من هذا المقطع حالة من التنازع في الاستعمال حيث ربط أحرف الجر بالفعل، والمفعول معًا، فالجار والمجرور «لكم»، و«عليهم» يصح ربطهما بالفعل: رددنا لكم عليهم، ويصح ربطهما بالمفعول: الكرة لكم عليهم، وهذه أخصر طريقة في التعبير لأننا لم نحتج إلا لفعل واحد، وإلى مفعول واحد: والمعنى رددنا لكم ما فقدتم من قبل معهم، وجعلنا الكرة عليهم بأن خسروا مثل ما أخذوا منكم من قبل، وفي كل هذا ربط بين الإفساد والعقوبة، والمفسد والمعاقب.

٤ - أن استعمال الفعل «رد» يدل على أن الأمر وكأنه ثأر بين طرفين وهذه طبيعة كلمة «رد» ولذلك تستعمل كلمة «رد» في باب الثأر. والمكافأة بالمثل، فيقال: رددت له الصاع صاعين، ويقال في الرياضة: هجمة مرتدة، ولا يقال ذلك إلا إذا كان النزال بين نفس الفريقين.

٥- استعمال كلمة «كرَّة» في الإشارة للجولة والفيء، وهي تعني: الرجوع، فكرَّ يكِرُّ هو العطف على الشيء بالذات أو بالفعل، ومن الأول: الحبل المفتول يقال له: كر؛ لأن ذاته معطوف بعضها على بعض، ومن الثاني: كر الجيش على العدو.

وإذا تتبعنا كلمة كر في القرآن نجد أنها استعملت بمعنى الرجوع ومنه:

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾[١]، أي: رجوع أو عود. وقال تعالى: ﴿ فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[٢]. أي: رجوع. وقال تعالى: ﴿ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةً ﴾[٣]، أي: رجعة.

وبهذا يكون استعمال كلمة «كرة» مناسبًا لوقائع بين فريقين، لا بين فرق متعددة، والفريقان هنا هم أمة الإسلام وأمة بني إسرائيل.

وقد يقول قائل: لماذا لا تكون هذه الكرة بين بني إسرائيل وفريق أو أمة من الأمم التي ذكرها المفسرون كالبابليين أو الفلسطينيين أو الرومان؟

وأقول: قد أجبت من قبل أنه لم يرد أن بني إسرائيل قد رجعوا بالنصر على البابليين، ومثل ذلك يقال على الرومان، فلم ينتصر بنو إسرائيل على الرومان مدة دولتهم، فلا معنى إذن هنا محتمل.

ويبقى الاحتمال مع الفلسطينيين أصحاب الأرض الأوائل، وبالفعل كان هناك جولات، انتصر فيها أصحاب الأرض على بني إسرائيل، وأخذوا منهم التابوت، ثم فاء بنو إسرائيل وهزموهم واستردوا التابوت، بل ودخلوا عاصمتهم «يبوس» واتخذوها عاصمة لهم في عهد شاؤل «طالوت» ومن بعده داود وسليمان.

ومع ذلك نقول: يمتنع أيضًا أن يكون اليبوسيون هم المقصودين، وذلك لأن اللَّه قال من بعد في العقوبة الثانية: ﴿ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾. فقوله: «أول مرة» يدل على أنهم سبق لهم دخول المسجد، وهذا لم يقع لليبوسيين قوم جالوت، وذلك لأنه وقت الحرب بينهم لم يكن هناك

(١) سورة البقرة: ١٦٧.
(٢) سورة الشعراء: ١٠٢.
(٣) سورة الزمر: ٥٨.

مسجد أصلًا، ليس هذا فقط، بل إن بيت المقدس لم يكن في سلطان بني إسرائيل أصلًا، فلا يعقل أن يقال: ليدخلوا كما دخلوا من قبل، لمكان لم يكن موجودًا أصلًا.

ومما سبق نخلص إلى ذات النتيجة التي قدمنا بها من قبل.

**٢- «وأمددناكم بأموال وبنين»:**

ذهب كثير من المفسرين إلى أن المدد بالأموال والبنين ترتب عليه زيادة في الغنى وزيادة في العدد، وسننقل جملة مما ذكره أهل التفسير:

قال مقاتل: «حتى كثروا... يعني أكثر رجالًا منكم قبل ذلك، فكانوا بها مائتي سنة وعشر سنين»(١).

وقال يحيى: «أي أكثر عددًا في زمان داود»(٢).

وقال السمرقندي: «يعني أكثر رجالًا وعددًا»(٣).

وقال الماوردي: «بتجديد النعمة عليهم»(٤).

وقال الطوسي: «أي أعناكم وكثرناكم»(٥).

وقال ابن عطية: «وأعطاهم اللَّه الأموال والأولاد»(٦).

وقال الطبرسي: «أي أكثرنا لكم أموالكم وأولادكم، ورددنا لكم العدة والقوة»(٧).

---

(١) تفسير مقاتل (٢/ ٥٢٢).
(٢) تفسير يحيى بن سلام (١/ ١١٦).
(٣) بحر العلوم (٢/ ٣٠٢).
(٤) النكت والعيون (٣/ ٢٣٠).
(٥) التبيان في تفسير القرآن (٦/ ٤٤٢).
(٦) المحرر الوجيز (٣/ ٤٤٩).
(٧) مجمع البيان (٦/ ١٦٩).

وقال العز بن عبد السلام: «جدد عليهم النعمة فبقوا بها مائة وعشرين سنة»[١].

وقال الألوسي: «وأمددناكم بأموال كثيرة بعد ما نهبت أموالكم، وبنين بعد ما سبيت أولادكم»[٢].

وهذا الذي ذهب إليه المفسرون يتفق مع ما جاء في سفر إرميا في الإصحاح التاسع والعشرين، وفيه:

«هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل لكل السبي الذي سبيته من أورشليم إلى بابل * ابنو بيوتًا واسكنوا، واغرسوا جنات وكلوا ثمرها * خذوا نساء ولِدُوا بنين وبنات، وخذوا لبنيكم نساء، وأعطوا بناتكم لرجال فيلدن بنين وبنات، وأكثروا هناك ولا تقلوا»[٣].

والحق أننا لا بد أن نقف وقفة مع المعنى الدلالي للألفاظ، وكذا دلالة التنكير في لفظي «أموال» و«بنين».

كلمة «أمددناكم» أصلها من «مدّ» أو مدد، والمدد: ما أمددت به قومًا في الحرب[٤].

وأمدَّ فعل متعدٍّ يتحدد معناه بمفعوله ومن ذلك:

أمد الجند: نصرهم بجماعة غيرهم وأرسل لهم العتاد والدعم.

وأمد المقترض: أمهله ليقضي.

وأمده بالمال: أعطاه إياه.

---

(١) تفسير العز بن عبد السلام (١/ ٥٨٧).

(٢) روح المعاني (١٥/ ١٨).

(٣) سفر إرميا: «الإصحاح التاسع والعشرون» [الآيات: ٤-٦].

(٤) العين (٨/ ١٦).

وأمد اللَّه في عمره: أطاله وبارك فيه.

وأمد في مشيته: تبختر.

وواضح من سياق النص هنا أن كلمة «أمددناكم» جاءت على سبيل العطية والزيادة والدعم، وقد ورد مثله مع المسلمين وإن كان المدد مختلفًا ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾(٢).

وجاء المدد كذلك في صورة نعم عامة أعطاها اللَّه لخلقه، ومنه:

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾(٣).

وجاءت وعدًا من اللَّه حال الإيمان والتوبة، ومنه:

قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾(٤).

وجاءت وعدًا من اللَّه لأهل الجنة في الجنة، ومنه:

﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾(٥).

وليس المدد في الاستعمال القرآني دليل رضا من اللَّه سبحانه على

---

(١) سورة آل عمران: ١٢٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٢٥.

(٣) سورة المؤمنون: ٥٥.

(٤) سورة نوح: ١٠-١٢.

(٥) سورة الطور: ٢٢.

الممدود دائمًا؛ فقد يمد اللَّه الطائع، وقد يمد العاصي وقد يمد كليهما من باب الدفع والمدافعة، فمن باب مدد الطائع ما أشرنا إليه في سورة آل عمران ودليله أنه وقع بالملائكة، واللَّه لا يدعم بالملائكة في شر.

ومن مدد العاصي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ﴾(١).

ومن مدد الفريقين العاصي والطائع قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾(٢). بعد ذكر أهل العاجلة وأهل الآخرة.

والذي يحدد طبيعة الدعم والمدد وعلاقته بالرضا الإلهي هو السياق، ونوع الدعم، وباستقراء القرآن نجد أن الدعم إذا كان بالمال والبنين فهو دعم دنيوي في المطلق، قد يعكس رضا من اللَّه، ولكنه قد يأتي أيضًا من باب تيسير الأسباب لحصول سنة التدافع في الأرض.

هذا ما يخص المعنى، أما ما يخص الصيغة فقد جاءت على «أفعل» مضعف الآخر عطفًا على «رددنا» وهو «فعل» مضعف الآخر أيضًا فالأصل فيها «أمدّ» و«ردّ»، ولما أضيفا إلى «نا» الفاعل الذي هو اللَّه سبحانه فُكَّ التشديد كما يقع في النظير مثل «أقرَّ» و«برَّ» وفك التضعيف يدل على احتمال وقوع الفعل متتابعًا، يعقب بعضه بعضًا كما نقول: «بررت بأمي» أي وقع البر متكررًا.

وإضافته للَّه تدل على أن الأمر فيه تدبير إلهي، وسنة جارية، وهي سنة الدفع والتدافع، كما ذكرنا، فقوة قوم هي ضعف آخرين، وكسب البعض خسارة لآخرين، وهو في ذات الوقت تنبيه وتحذير للخاسر حتى يستفيق

(١) سورة الشعراء: ١٣٢ - ١٣٣.
(٢) سورة الإسراء: ٢٠.

ويعود لأسباب النصر في التدافع، والاستفاقة قد لا تقع إلا بالخسارة المتكررة، فكان السياق على ما ذكرنا.

وعامل آخر يؤيد ما ذهبنا إليه من أن رد الكرة هنا هو من باب التدافع، وليس من باب التفضيل، هو ترتيب الأفعال، فتقديم الفعل «رددنا» على «أمددنا» و«جعلنا»، يدل على أن النصر مرتبط بالأسباب، وأن من حاز الأسباب كان أكثر قربًا من النصر، ويكون المعنى: رددنا لكم الكرة بأن أمددناكم بأموال وبنين وأنصار، فالفعل مرتبط بأسبابه، وليس منحة إلهية أو وعدًا سابقًا كما يزعم بنو إسرائيل، وهو بهذا يقع لهم إذا حصلوا الأسباب، ويقع لعدوهم إذا حصل الأسباب، فنصرهم هنا هو نصر مادي بحت، وهذه المادية متاحة للجميع على السواء، بخلاف المدد الإلهي مثلًا المذكور في مواطن أخرى كتثبيت الملائكة، أو تثبيت القلوب.

أما عن مجيء الأموال والبنين في صيغة التنكير، فلهذا دلالة أيضًا والنكرة بصفة عامة تدل على اسم شائع في جنسه، غير معين وهو نوعان:

حقيقي: وهذا يشمل ما له أفراد من جنسه كرجل وكتاب.

غير حقيقي: وهذا يشمل ما ليس له أفراد من جنسه مثل شمس وقمر.

وتنقسم النكرة من حيث القوة في التنكير إلى: نكرة محضة وهي التي لم يقع لها تقييد، ونكرة غير محضة وهي التي تم تقييدها بأحد وسائل التقييد كالإضافة كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾[1].

أو الوصف كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾[2].

---

(١) سورة مريم: ٢٨.

(٢) سورة آل عمران: ٩٦.

أو العطف عليها كما في قولنا: «رأيت رجلًا وولده»[١].

واستعمال النكرة له أغراض بلاغية منها:

١- **الإبهام**: وهو العمدة في باب التنكير، والإبهام له أغراض بيانية أيضًا ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾[٣].

٢- **الإطلاق**: وذلك بغرض العموم كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾[٤].

٣- **التهويل والمبالغة**: سواء كانت المبالغة تعظيمًا كما في قوله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[٥]، أو كان تشنيعًا كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾[٦].

٤- **التحقير**: وغرضه تفاهة المنكر كما في قوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾[٧].

٥- **التجاهل مع المعرفة**: وذلك بذكر شيء معلوم بصيغة النكرة كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾[٨]. ولم يقل: ائتوني بفلان مع أنه يعرفه.

---

(١) راجع في ذلك «النحو الوافي»: (١/ ٢٠٦) وما بعدها.
(٢) سورة القصص: ٢٠.
(٣) سورة يوسف: ٢٦.
(٤) سورة البقرة: ٦٧.
(٥) سورة النمل: ٢٣.
(٦) سورة مريم: ٨٩.
(٧) سورة عبس: ١٩.
(٨) سورة يوسف: ٥٩.

٦- **التقليل**: وهو ذكر الكثير في أقل صورة كما في قوله تعالى: ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾(١).

٧- **التكثير**: وهو ذكر الشيء في صيغة الجمع منكرًا كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾(٢).

٨- **التشويق**: ومنه إيراد النكرة في صيغة السؤال كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٣).

٩- **الاستغراق في العموم**: وذلك بامتناع البديل كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾(٤).

وبالنظر إلى آية الإسراء نجد أن تنكير الأموال والبنين جاء لأغراض على رأسها التكثير، ولكنها أيضًا تفيد الإبهام، وهذا الإبهام يفيد أن هذا المدد المالي والعددي، ليس بالضرورة هو مال بني إسرائيل وكسبهم، أو ولد بني إسرائيل ونسلهم، بل هو مطلق يقع لهم كسبًا من أنفسهم، ويقع لهم منحًا من غيرهم.

وإذا نظرنا إلى واقع التاريخ نجد أن عدد بني إسرائيل قبل الإسلام كان قليلًا جدًّا، وأنه كان مقتصرًا على نسل أبناء يعقوب عليه السلام، وهؤلاء حتى إن اعتبرنا استمرار تناسلهم من وقت يعقوب عليه السلام إلى ظهور الإسلام، فلن يساوي عددهم أكثر من مجموعة قبائل في الجزيرة العربية، بل لن يساووا بلدًا مثل اليمن أو الحبشة.

---

(١) سورة الروم: ٥٥.
(٢) سورة آل عمران: ١٨٤.
(٣) سورة الصف: ١٠.
(٤) سورة البقرة: ١٠٧.

**فأين المدد بالعدد المذكور في الآية؟**

الزيادة في العدد جاءت من غير اليهود الأصليين أي من غير بني إسرائيل، وهذا ما تفيده كلمة «أمددناكم» والتي هي في معناها اللغوي: قويناكم ودعمناكم بغيركم، إذ لا يكون المدد من الذات بل من الغير، ولذا كان مدد المؤمنين في بدر بالملائكة الذين هم غير المسلمين جنسًا.

والمدد الذي حدث لبني إسرائيل لم يقع قبل الإسلام، بل بعده، فيخبرنا التاريخ أن جماعة تركية كبيرة دخلت اليهودية في القرن الثامن الميلادي، وهذه الجماعة هي جماعة «الخزر»[(١)]، ومن هؤلاء جاء اليهود الروس ويهود أوربا الشرقية، وهم نسبة كبيرة من اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين.

**اليهود الخزر[(٢)]:**

ناقش الدكتور عبد الوهاب المسيري في موسوعته قضية يهود الخزر وتحول السكان إلى اليهودية، ومن ذلك بداية تحول السكان لليهودية في القرن الثامن الميلادي، يقول المسيري: «اعتنق بولان (٧٨٦-٨٠٩) ومعه أربعة آلاف من النبلاء، الديانة اليهودية، وجعلها الديانة الرسمية، وهو ما يؤكده المسعودي حيث يشير إلى أنهم تهودوا في عهد هارون الرشيد»[(٣)].

وما يؤكد أن يهود الخزر ليسوا من نسل بني إسرائيل ما ورد في

---

(١) الخزر: جماعات سكانية اختلف في أصلها، فذهب البعض أنهم السكان الأصليون بشمال القوقاز، ويرى البعض أنهم شعوب تركية إيجورية، وقال أبو الحسن المسعودي: إنهم تابعون لأتراك الصبر أو السوفار. وأطلق عليهم البيزنطيون اسم الخزر. انظر التعريف بالخزر في موسوعة اليهود واليهودية (٢/ ١٤٩-١٥١).

(٢) من أهم الكتابات في ذلك ما كتبه آرثر كوستلر: دولة الخزر وميراثها: القبيلة الثالثة عشرة، وما كتبه دانلوب في كتابه: «تاريخ يهود الخزر».

(٣) موسوعة اليهود واليهودية: (٢/ ١٥١-١٥٢).

المراسلات الخزرية بين حسداي بن شبروط[١] وملك الخزر في ذلك الوقت، ينقل المسيري ذلك بقوله: «وقد أكد له الملك أن أصل الخزر تركي وليس ساميًّا، ولا علاقة له بأسباط يسرائيل العشرة المفقودة ولا بفلسطين»[٢].

وقد نقل المسيري أسباب تهود الخزر، وأنها ترجع لأسباب سياسية متمثلة في وقوعهم بين قوتين إسلامية ومسيحية فأرادوا التمايز، وكذلك أسباب اقتصادية وهي: «أن الخزر كانوا قد بدءوا في احتراف التجارة وكان على من يود ممارسة هذه المهنة في هذه المناطق وغيرها أن يتهود حتى يستفيد من شبكة الاتصالات اليهودية في العصور الوسطى، والتي كانت تعتبر نظام ائتمان دولي»[٣].

ويرى أستاذ التاريخ اليهودي في جامعة تل أبيب بولياك: «أن يهود شرق أوربا الإشكناز ليسوا من نسل يهود فلسطين وإنما من نسل الخزر الذين استوطنوا هناك بعد تشرذمهم»[٤].

فإذا عرفنا أن نسبة السكان اليهود المنحدرين من أصل إشكنازي في إسرائيل حوالي ٤٧,٥٪، ويمثل ذلك ما نسبته ٣٥٪ من سكان الكيان الصهيوني في فلسطين[٥].

كما يلاحظ العالم الإنجليزي المجري كوستلر «أن اختفاء الشعب الخزري من موطنه التاريخي قد صاحبه الظهور المعاصر لأكبر تجمع يهودي

---

(١) كان طبيبا وسفيرًا في عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر في الأندلس.

(٢) موسوعة اليهود واليهودية (٢/ ١٥٢).

(٣) موسوعة اليهود واليهودية (٢/ ١٥٢).

(٤) السابق.

(٥) Statistical Obstroct Of Israel, 2009, CBS
دائرة الإحصاء الإسرائيلية.

في «الشمال الغربي من أوربا»[١].

**اليهود الفلاشاه:**

الفلاشاه كلمة أمهرية تعني المنفيين أو غريبي الأطوار، والفلاشاه لا تنتمي إلى أي من الكتل اليهودية المعروفة من الإشكناز أو السفارديم أو المزراحيين[٢]، وهؤلاء ليسوا من بني إسرائيل قطعًا، بل تهود بعضهم بعد هجرة بعض اليهود من الجزيرة العربية، ويقال :إن عبد اللَّه بن سبأ من يهود الفلاشاه[٣].

يقول الدكتور المسيري: «ويرى بعض المتخصصين من مجتمع الفلاشاه أنهم من قبيلة الأجاو وأنهم عرق إثيوبي صاف، أما تقاليدهم وعاداتهم فتشمل خليطًا من المعتقدات والطقوس الوثنية واليهودية والمسيحية، وربما الإسلامية، وقد نفى أحد المؤرخين صفة اليهودية عنهم ووصفهم بأنهم مسيحيون تمسكوا لسبب أو لآخر بالعهد القديم بدلًا من العهد الجديد»[٤].

ولأن الحاخامية اليهودية في فلسطين المحتلة تعرف أنهم ليسوا من بني إسرائيل فقد اشترطت تعميدهم مرة أخرى، وذلك بتختينهم وأن يأخذوا حمامًا لتطهيرهم، ولا تصدر لهم بطاقة هوية إلا بعد هذه الطقوس، وبعضهم لا تثبت له ديانة في بطاقة الهوية[٥].

ويبين الدكتور المسيري سبب ضم الفلاشاه لمجتمع بني إسرائيل بقوله: «أما الدافع الحقيقي الكامن وراء تهجير الفلاشاه فهو أزمة النظام الصهيوني

(١) موسوعة اليهود واليهودية (٢/ ١٥٣).
(٢) المزراحيون هم اليهود المنحدرون من بلاد إسلامية وعربية.
(٣) موسوعة اليهود واليهودية (٢/ ١٥٨).
(٤) موسوعة اليهود واليهودية (٢/ ١٦١).
(٥) السابق (٢/ ١٦٢).

العقائدية والسكانية العميقة»[١].

بالإضافة إلى طائفة اليهود الخزر وطائفة اليهود الفلاشاه هناك طائفة اليهود الهنود، وقد هاجر عدد كبير منهم إلى فلسطين بعد استقلال الهند عن بريطانيا، وهؤلاء لهم نمط وصورة أخرى تخالف الإشكناز والسفارديم والمزراحيين[٢]، ويصفهم الدكتور المسيري بقوله: «ونظرًا لانفصالهم عن اليهودية الحاخامية لعدة قرون، فإن شعائرهم الدينية تختلف عن شعائر باقي يهود العالم في كثير من النواحي، فهم لا يعرفون التلمود، بل كانوا قد نسوا التوراة..»[٣].

كذلك زادت أعداد اليهود عن طريق التساهل في مسألة الزواج من الأغيار، وينقل الدكتور محمد بيومي مهران في موسوعته: «بنو إسرائيل» عن ريبلي وكتابه أجناس الأوربيين، يقول ريبلي: «من المرجح: أن كثيرًا من الدم المسيحي قد امتصه اليهود بواسطة الزواج الخفي أو المخالف للقانون، ولقد سنت قوانين كثيرة في العصور الوسطى تحرم على اليهود أن يتخذوا خادمات نصارى غير أن هذه القوانين إنما كانت قليلة الغناء... هذا فضلًا عن أن المتحولين إلى الديانة اليهودية يعدون بالآلاف»[٤].

ويقول ريبلي أيضًا: «أن تسعة أعشار اليهود في العالم يختلفون عن سلالة أجدادهم اختلافًا واسعًا، ليس له نظير، وأن الزعم بأن اليهود جنس نقي[٥] خرافة»[٦].

---

(١) السابق.
(٢) السابق (٢/ ١٤١).
(٣) السابق (٢/ ١٤٢).
(٤) بنو إسرائيل (٥/ ١٣٩).
(٥) أي لم يقع لهم خلطة في النسب فكلهم من أبناء يعقوب.
(٦) بنو إسرائيل: (٥/ ١٤٧).

ومن هنا نستطيع أن نوجد تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾. أن هذا المدد في البنين تمثل في الآتي:

١- انتشار بني إسرائيل في بقاع الأرض سمح لهم بالتزاوج والتناسل مع أمم أخرى مما زاد في أعدادهم نسبيًّا، وذلك على خلاف أوامر التوراة والأسفار.

٢- تحول مملكة الخزر التترية التركية لليهودية في عهد بولان وتناسلهم ثم هجرتهم إلى روسيا وأوربا الشرقية لا سيما بولندا، زاد أعداد اليهود في العالم بصورة كبيرة عبر اثني عشر قرنًا.

٣- تهجير أعداد كبيرة من مختلطي الديانة في أفريقيا على أنهم يهود أعطى أيضًا مددًا سكانيًّا.

هذا في جانب البنين، وقد قدمناه لأهميته على غيره، إذ هو أداة الفعل الحقيقية، أما في جانب المدد المادي فنحن لا نحتاج لكثير بيان أو تفصيل كما قدمنا في جانب البنين، فغنى اليهود قياسًا بعددهم يتحدث عن نفسه، ليس هذا فقط بل سيطرتهم على كثير من المؤسسات الاقتصادية في العالم من بنوك وشركات وأسهم، لا سيما في القرون الثلاثة الأخيرة، كل هذا شديد الوضوح.

لقد ناقش ماركس قيمة المال في التراث اليهودي، حتى أنه كان يرى أن روح الرأسمالية مستمدة من اليهودية: «إن مامون[1] -إله المال- هو الوثن الذي يعبدونه هناك بجميع قوى أجسادهم وأرواحهم، فالأرض في نظرهم ليست سوى بورصة، وهم موقنون بأنهم لا مصير لهم في الحياة الدنيا سوى أن يصبحوا أغنى من جيرانهم... وهم لا يتحدثون إلا عن المنفعة والربح والنبوءة

(١) كلمة مامون هي كلمة آرامية تعني الثروة أو المال.

الدينية أصبحت سلعة تجارية»[١].

والمال اليهودي كان -تاريخيًّا لا سيما في العصور الوسطى- أحد أهم عناصر قوة بني إسرائيل واليهود بعامة، يقول الدكتور المسيري: «ويذهب البعض إلى أن هذا المال اليهودي هو سر قوة اليهود، فهم يوظفونه في شراء النفوذ وفي ممارسة السلطة وفي تخريب الضمائر، وإفساد العباد، وهذه أيضًا تهمة لها جذورها، فأعضاء الجماعات اليهودية كانوا يشترون المواثيق والحماية والمزايا من الملك أو الأمير»[٢]. ويردف على ذلك حال المال اليهودي في العصر الحديث فيقول: «والمال اليهودي في العصر الحديث لا يختلف كثيرًا عن المال اليهودي في العصور الوسطى في الغرب»[٣]، حيث إنهم ما زالوا يستثمرون في كثير من القطاعات المشينة في المجتمعات الحديثة (البغاء- المجلات الإباحية)»[٤].

لقد ناقش المسيري في المجلد الثالث مسألة الرأسمالية اليهودية من عدة جوانب: «ما حدا بكثير من المفكرين الغربيين مثل كارل ماركس وماكس فيبر ووارنر سومبارت إلى دراسة قضية العلاقة الخاصة بين أعضاء الجماعات اليهودية وظهور الرأسمالية في العالم الغربي»[٥].

لقد كان من أهم وسائل الجماعات اليهودية في إحياء مجد بني إسرائيل المهزوم تاريخيًّا، السيطرة على الاقتصاد العالمي، وبدأ بفكرة الاستحواذ على الذهب، ومنه تشعب إلى غيره.

---

(١) موسوعة اليهود واليهودية (٢/ ١٦).
(٢) موسوعة اليهود واليهودية (٢/ ٣٧).
(٣) السابق (٢/ ٣٧).
(٤) السابق.
(٥) السابق (٣/ ٩٩).

ولقد اعتمدت الكرة الثانية لبني إسرائيل على المال بصورة كبيرة فقد أنشأت الحركة الصهيونية عدة مؤسسات مالية ساعدتها في احتلال فلسطين منها:

١- صندوق الائتمان اليهودي في لندن سنة ١٨٩٩، والذي أنشئ في هولندا وألمانيا ويافا، وسموه «البنك البريطاني الفلسطيني»[١].

٢- الصندوق القومي اليهودي: وأنشئ سنة ١٩٠١، وقام بتمويل عمليات شراء مساحات واسعة من الأراضي في فلسطين، وقد نصت لائحته التأسيسية على أن الأراضي التي يشتريها هي ملكية أبدية للشعب اليهودي، لا يجوز بيعها ولا التصرف فيها، بمعنى أنها وقف يهودي[٢].

٣- إنشاء الوكالة اليهودية: سنة ١٩٠٨ في يافا تحت اسم «مكتب فلسطين» وكانت هذه الوكالة تجمع التبرعات والهبات من كل أنحاء العالم لصالح المشروع الصهيوني.

٤- تنمية العائلات الاقتصادية الكبرى في الغرب: وهنا سنذكر عائلة واحدة مهمة كان لها تأثير مالي كبير في تاريخ الحركة الصهيونية لبني إسرائيل، وهي عائلة روتشيلد.

ترجع العائلة إلى يهودي ألماني من مواليد فرانكفورت وهو ماير أمشيل روتشيلد[٣]، كان أبوه صرافًا، وهو عمل الكثير من التجار اليهود، حيث كانوا يفيدون من تشدد بعض الطوائف المسيحية في مسألة الإقراض بالربا، فكان هؤلاء المسيحيون يتحايلون على ذلك بترك هذا العمل للصيارفة اليهود[٤].

---

(١) الأخطبوط الصهيوني (ص ٢٨).

(٢) الأخطبوط الصهيوني (ص ٢٨).

(٣) ١٧٤٤م- ١٨١٢م.

(٤) انظر مثلًا ما قام به أوليفر كروميل حين سمح لليهود بالعودة لبريطانيا في منتصف القرن =

لقد استطاع روتشيلد تأسيس عائلة مالية دولية، وترك ثروته لأبنائه الخمسة الذين فرقهم على حواضر أوربا في ذلك الوقت فكان أتسليم في فرانكفورت، وسلمون في فيينا، وناثان في لندن، وجيمز في باريس، وكارل في نابولي، وجعل القيادة لناثان في لندن.

لقد أمر روتشيلد أولاده ألا يتزوجوا إلا من يهوديات، وألا يتزوجوا إلا من عائلات يهودية ثرية ومعروفة.

لقد كان لناثان روتشيلد دور مهم في تمويل الحرب ضد نابليون بونابرت ١٨١٣-١٨١٥، وكان يقرض بريطانيا وحلفاءها بالفائدة، ويكفي أن نعلم أنه في عام ١٨١٥ أعطى الحكومة البريطانية حوالي عشرة ملايين جنيه إسترليني[١].

بل إن عائلة روتشيلد اشترت سندات يابانية بقيمة ١١.٥ مليون جنيه إسترليني[٢] لتساعدها في حربها ضد روسيا القيصرية.

كما أقرضت الحكومة البروسية مبلغ خمسة ملايين إسترليني سنة ١٨١٨[٣]. وكما ساعدت هذه العائلة الملكيات الأوربية استفادت على كل المستويات، ويكفي أن نذكر بحادثة حصلت أثناء معركة واترلو، حيث جاء

= السابع عشر لذات الغرض، بعد أن طردهم الملك إدوارد الأول سنة ١٢٩٠م، وكان غرض كرومويل أن يساهم الصيارفة اليهود في تنشيط التجارة في لندن عن طريق الإقراض الربوي والاستثمار مثل ما فعلوا في أمستردام حين ازدهرت اقتصاديًّا في ذات الفترة. وراجع في ذلك أيضًا الرواية الشهيرة لوليم شيكسبير «تاجر البندقية» وفيها: قصة المرابي شيلوك اليهودي.

(١) تساوي المليار دولار بسعر اليوم.

(٢) تساوي المليار ومائة مليون بسعر اليوم.

(٣) تساوي قريبًا من ٤٠٠ مليون دولار بسعر اليوم، وبروسيا هي أهم ولايات ألمانيا، وكان لها حكومة خاصة.

الخبر لناثان روتشيلد بانتصار الحلفاء على نابليون قبل وصوله للحكومة البريطانية بيوم، ووفقًا لحساباته فإن الانخفاض المستقبلي للاقتراض الحكومي بسبب انتهاء الحرب سيؤثر على قيمة سندات الحكومة، فقام ناثان بشراء سندات الحكومة ثم انتظر لمدة عامين وباع السندات في السوق عام ١٨١٧ بنسبة ربح ٤٠٪ وهي نسبة كبيرة جدًّا.

لقد كانت هذه العائلة من المساهمين في مد خطوط السكك الحديدية في بلاد المستعمرات البريطانية، وساهمت في شركة قناة السويس، وبالمقابل كان لها السيطرة على أهم وسائل المواصلات في العالم.

كما ساعدت البرازيل في دفع فدية الاستقلال عن البرتغال سنة ١٨٢٥ وهي ٢ مليون جنية إسترليني، وفي المقابل سيطرت على أكبر المشاريع الاقتصادية في كلا الدولتين البرتغال والبرازيل، وما زال هذا الأثر موجودًا حتى الآن.

ومولت هذه الأسرة رجل الأعمال سيسيل رودس جون المتوفى سنة ١٩٠٢م، وكان رئيسًا لوزراء مستعمرة الكاب[١]، فاستعمل هذا المال في إنشاء مستعمرة روديسيا الجنوبية[٢]، والمشهورة بتجارة الماس الذي سيطر سيسيل عليه بنسبة ٩٠٪، وسيطرت من خلاله عائلة روتشيلد على شركة ريو تينتو للتعدين أواخر القرن التاسع عشر[٣].

يقدر بعض الخبراء ثروة عائلة روتشيلد بأنها تساوي نصف ثروة العالم أجمع، وبغض النظر عن الأرقام فالواقع العملي يقول: إن أسرة واحدة يهودية

(١) في جنوب أفريقيا.

(٢) زيمبابوي حاليًّا.

(٣) تشير المصادر إلى أن سيسيل مات ١٩٠٢ دون وريث، فسيطر ليوبولد روتشيلد على إرثه بطريقة مخادعة.

تتحكم في الكثير من المشاريع الحيوية، ورأس المال العالمي.

تبنت عائلة روتشيلد فكرة إقامة دولة يهودية في فلسطين، وذلك من خلال مساعدتها في استصدار وعد بلفور ١٩١٧م، ويعد جيمس أرماند روتشيلد من أول من تولى الوكالة اليهودية، وساعد في تهجير الآلاف إلى فلسطين، بل إن عائلته هي التي بنت مبنى الكنيست الإسرائيلي سنة ١٩٦٦م.

أما آدموند روتشيلد فقد رأس لجنة التضامن مع إسرائيل سنة ١٩٦٧م، وقدم استثمارات ضخمة في فترة الخمسينيات والستينيات لدولة الاحتلال.

لقد أردنا من هذا العرض فقط بيان كم المدد المادي الذي عليه بنو إسرائيل في صورتهم الحديثة، والذي تطور حتى بلغ غايته في القرون الثلاثة الماضية، ونرى صورته الآن متجلية في القوة المادية للجاليات اليهودية في أوربا وأمريكا وروسيا، بل تعدت ذلك إلى أن صار لها نفوذ في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، وأخيرًا في بعض البلاد العربية والإسلامية.

هذه السطوة المادية «المدد» لم يقع لبني إسرائيل في عهد من العهود من قبل، ولا حتى في زمن النبي سليمان، حيث إن سلطة سليمان عليه السلام لم تتخط منطقة وسط وشرق فلسطين، ولم يتمدد سياسيًّا أو اقتصاديًّا خارج هذا النطاق الصغير، أما الآن فنجد تمثلًا حقيقيًّا يصل للذروة التي تناسب قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾، هذا المدد الذي ليس له نظير في التاريخ اليهودي في جانبيه السكاني والمادي.

**٣- «وجعلناكم أكثر نفيراً»:**

نفير فعيل من نَفَرَ ومصدره النَّفْر كالقَزْع، والنفر هو الفزع عن الشيء أو إلى الشيء، فيقال: نفرت إليه، أي: لنصرته وعونه، ونفرت عنه، أي: اجتنبته، ومنه

قوله تعالى: ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾[٢].

والاستنفار: حمل الناس على النفار إلى الشيء المطلوب كالحرب ومنه قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾[٣]. وانفروا هنا بمعنى: اخرجوا ولبوا داعي الجهاد لأنه هددهم بالعذاب إن لم يفعلوا: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٤].

والنفر كما يكون في الحرب يكون لكل أمر مهم، ومنه طلب العلم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾[٥].

ويبدو أن الكلمة بأصل الوضع العربي تعني النفر إلى الشيء والنفر منه، ولذلك تقول العرب: نفر فلان، إذا تسمى باسم ينفر منه، لأنهم يزعمون أن الشيطان ينفر عنه؛ قال صاحب المجمل حكاية عن أعرابي: «قيل لأبي لما وُلِدْتُ: نَفِّرْ عنه. فسماني قُنفُذًا، وكناني أبا العداء»[٦].

وصيغة فعيل التي جاءت عليها «نفيرًا» من الصيغ الثرية والغنية بالمعاني والتحولات، وتنوب عن غيرها من الصيغ مع بقاء قيمة المبالغة في المعنى.

فتأتي صيغة مبالغة مثل رحيم، وتأتي صفة مشبهة مثل كريم، وتأتي بمعنى اسم الفاعل مثل شريف، وتأتي بمعنى اسم المفعول مثل حميد، وتأتي اسمًا على عين نحو قميص، وتأتي مصدرًا كما في صهيل وزئير.

---

(١) سورة فاطر: ٤٢.
(٢) سورة الإسراء: ٤١.
(٣) سورة التوبة: ٣٨.
(٤) سورة التوبة: ٣٩.
(٥) سورة التوبة: ١٢٢.
(٦) مجمل اللغة لابن فارس: (٣/ ٨٧٩).

والنفير تأتي كناية عن الحرب بالجملة، ومنه قصة أبي سفيان الشهيرة مع بني زهرة، وذلك أنهم لما رجعوا عن حرب المسلمين قال لهم أبو سفيان: أما أنتم فليس لكم لا في العير ولا في النفير. أي ليس لكم سهم في قافلة التجارة، ولم تخرجوا لحرب النبي ﷺ في بدر كما فعلت قريش.

وإذا رجعنا إلى كتب التفسير سنجد أن أكثرها قد فسر: ﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي: أكثر عددًا[١]، وكثرة العدد تنفر عدوهم منهم، ولأن «نفير» هنا جمع «نفر» كعبد وعبيد.

وذهب الماوردي في وجه أن «نفيرًا» هي كناية عن العز والجاه[٢]، أي صار لكم عز وجاه ينفر عدوكم منكم.

وجعلها الطبري بمعنى «نافر» أي اسم الفاعل، وقدر المعنى: «وصيرناكم أكثر عددٍ نافرٍ منهم»[٣]، وتابعه في ذلك ابن عطية حين قال: ««ونفير» يحتمل أن يكون جمع «نفر» ككلب وكليب، وعبد وعبيد، ويحتمل أن يكون فعيلًا بمعنى فاعل، أي: وجعلناكم أكثر نافرًا»[٤].

وفسرها القرطبي في وجه أن النفير هنا بمعنى الاجتماع والانضمام، قال: «والمعنى: أنهم صاروا بعد هذه الوقعة الأولى أكثر انضمامًا وأصلح أحوالًا»[٥].

لقد ركز المفسرون في تفسير هذه الكلمة على جانب الصيغة الصرفية في ضوء ما ذهبوا إليه من أحداث التاريخ، ولم ينظروا إليها مجردة عن سياق

(١) قد أحلنا على التفاسير التي عرضت للآية من قبل في هذا المبحث.
(٢) النكت والعيون (٣/ ٢٣٠).
(٣) تفسير الطبري (١٤/ ٤٧٧).
(٤) المحرر الوجيز (٣/ ٤٤٩).
(٥) تفسير القرطبي (١٠/ ٢١٧).

الماضي، وهذا خطأ وقع فيه المفسرون حتى المحدثون منهم بسبب ربط الآيات بتاريخ بني إسرائيل قبل الإسلام.

والصواب الذي نراه ونستطيع أن نبرهن عليه أن فقه الآية يدل على مستقبلية الحدث حين نزلت السورة، وسنبين ذلك.

**أولًا**: نظم الآية جاء بصيغة التفضيل «أكثر» وهي تستدعي مفضلًا ومفضلًا عليه ومادة المفاضلة.

فالمفضل هو بنو إسرائيل، ومادة المفاضلة هو النفر، والمفضل عليه يحتمل أن يكون التفضيل وقع بين طائفتين، أو بين حالين.

فالطائفتان هم بنو إسرائيل وأعداؤهم، ويكون التقدير: جعلناكم أكثر نفيرًا من عدوكم.

والحالان هما حال بني إسرائيل قبل المدد وحالهم بعده، ويكون التقدير: وجعلناكم أكثر نفيرًا مما كنتم عليه.

وبكلا التوجهين جاءت التفاسير قديمًا وحديثًا، وهذا من بلاغة النظم القرآني في باب الحذف، ليقع الاحتمال، ويترك الباب مفتوحًا للتقدير مع ما يواكب أحداث التاريخ في حاضره ومستقبله.

وعلى هذا يكون المعنى: سيأتي زمان تتحولون فيه لتكونوا أكثر نفيرًا ممن هزمكم أول مرة، وهم المسلمون كما نزعم، ونَفْرُكم هنا يحتمل حالكم وحالهم، أي قدرتكم وعجزهم.

أما ما يخص استعمال الأفعال الماضية «رددنا- أمددناكم- جعلناكم» فقد فصلنا القول في معاني استعمال الفعل الماضي في المبحث الثاني، وقلنا: إن استعمال الماضي لا يأتي دائمًا للدلالة على الفوت والمضي، وإنما يأتي أحيانًا بمعنى المستقبل في سياق التوكيد.

**ثانيًا:** احتمالات معاني كلمة «نفيرًا» وارتباطها بواقع الحال:

فكما قلنا من قبل إن صيغة «فعيل» هي من أكثر الصيغ ثراء في الصرف العربي، فهي تأخذ معانيَ من غيرها، وتعطي غيرها معانيها، مع كونها من صيغ المبالغة المعروفة، ولذا فهي هنا محتملة المعاني، وسنذكر بعض ذلك:

**أ)** أن يكون معنى «نفيرًا» هو القدرة على الاستنفار، وهذا المعنى هو أول ما يتبادر إليه الذهن ويتوجه له المعنى.

والاستنفار هنا يشمل: حشد القوات، وحشد المجتمع خلف القوات.

ودولة الاحتلال الصهيوني تأتي في المرتبة الأولى حتى قبل القوى العظمى في القدرة على الحشد وسرعته، وهي لا تحتاج إلا إلى أيام معدودة لحشد القوات بما فيها قوات الاحتياط، وهي الأسرع قياسًا بأعدائها، ولنأخذ أمثلة عملية تؤيد هذا الوجه من التفسير.

**حرب سنة ١٩٤٨م:**

وهي أول حرب رسمية بين المسلمين واليهود منذ حرب بني قريظة، فإذا نظرنا إلى حجم الدول العربية المشاركة في الحرب وحجم قواتها قياسًا بحجم المستوطنين اليهود وحجم القوات التي حشدوها سنجد تفسيرًا عمليًّا للآية؛ فقد اشتركت في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م من جانب المسلمين ست دول هي: مصر والعراق وسوريا والأردن ولبنان والسعودية بالإضافة إلى الجيوش غير النظامية وهم: جيش الجهاد المقدس، ويمثل القوات الفلسطينية النظامية بقيادة عبد القادر الحسيني، وجيش الإنقاذ، وهو جيش شكلته الجامعة العربية سنة ١٩٤٧، وكان تحت قيادة فوزي القاوقجي.

هذا بالإضافة إلى قوات المتطوعين من مصر واليمن وباكستان والسودان، بدأت هذه الدول والقوات حرب ٤٨ بحوالي ٢٠ ألف مقاتل

مجتمعين، ولم تزد القوات حتى نهاية الحرب عن ٦٠ ألف مقاتل لكل الجيوش مجتمعة[١].

فإذا ما جئنا للقوات الصهيونية فنجد أنهم بدءوا الحرب بحوالي ٦٠ ألف مقاتل، أي أكثر من القوات الإسلامية مجتمعة، وأنهوا الحرب بحوالي ١٢٠ ألف مقاتل أي ضعف عدد القوات الإسلامية في ذات الوقت[٢].

وهنا نلاحظ الفرق الكبير بين عدد القوات الإسلامية قياسًا بعدد الدول وتعداد السكان فيها، وعدد القوات الصهيونية قياسًا بعدد السكان فيها، فقد تمكن الصهاينة من حشد نصف المجتمع تقريبًا للمجهود الحربي، وهذه قدرة استنفار عالية جدًّا.

**حرب سنة ١٩٦٧م:**

قامت هذه الحرب في شهر يونيو سنة ١٩٦٧ واستمرت لستة أيام، وانتهت بهزيمة مدوية للبلاد العربية والإسلامية، احتلت بعدها إسرائيل شبه جزيرة سيناء، وهضبة الجولان، والقدس، والضفة، وغزة، وتمكنت من تدمير جيوش مصر وسوريا والأردن والقوات الفلسطينية في غزة والضفة وغيرها.

ومن جهة النفير: احتاج الجيش المصري مثلًا لأسبوعين لحشد ثمانين ألف مقاتل في سيناء، على حين أن الصهاينة لم يحتاجوا إلا إلى أيام معدودة، وقد جاءت القوات العربية والإسلامية من دول أساسية هي: مصر وسوريا والعراق والأردن ولبنان وقوات فلسطينية، وبدعم من كل الدول العربية التي أرسل بعضها قوات مثل الجزائر والمغرب والكويت وليبيا والسعودية

---

(١) راجع موسوعة مقاتل على النت: المبحث الرابع عشر، وذكر الفريق سعد الدين الشاذلي في مقابلة له في التليفزيون أن عدد القوات الإسلامية بلغ ٤٠ ألفًا.

(٢) السابق: المبحث الخامس عشر.

والسودان وتونس، وقوات من دول إسلامية مثل باكستان الغربية والشرقية، ومع كل هذه الدول وما تعكسه من كتل سكانية فقد استطاعت إسرائيل حشد قوات أكثر من أي دولة منفردة بما فيها مصر، ووصلت القوات الصهيونية إلى أكثر من نصف عدد قوات الدول المذكورة مجتمعة، وهي نسبة كبيرة جدًّا في مجال الاستنفار، بحيث تستطيعه دولة واحدة صغيرة عدد سكانها لا يتجاوز سكان مدينة كبيرة في مصر أو سوريا أو العراق، وعلى حسب بعض التقديرات فإن إسرائيل استطاعت أن تحشد ٢٦٠ ألف مقاتل في مواجهة ٣٥٥ ألف مقاتل للدول العربية والإسلامية مجتمعة، وهي كما قلنا نسبة تعكس قوله تعالى: ﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾، لا سيما إن عرفنا أن النتيجة كانت لصالح دولة الاحتلال، وأنها احتلت مساحات تساوي ثلاثة أضعاف مساحتها الأصلية التي احتلتها في سنة ١٩٤٨، وهذا الانتصار لم يقع في التاريخ اليهودي على قوم ولا حتى في عهد داود وابنه سليمان عليهما السلام.

**حرب لبنان ١٩٨٢م:**

وقعت هذه الحرب في سنة ١٩٨٢، وكانت العناصر المتقاتلة كثيرة ومتداخلة، ولكن إسرائيل قامت بغزو لبنان في يونيو ١٩٨٢، ونتج عنه احتلال إسرائيل لجنوب لبنان لمدة سنوات.

وهذا مثال آخر لقدرة إسرائيل على الاستنفار، فقد كانت القوات العربية ممثلة في سوريا والمقاومة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية وقوات أخرى من حركة أمل والحزب الشيوعي اللبناني، وفي هذه الحرب استطاعت إسرائيل أن تحشد قوات أكثر من كل أعدائها مجتمعين، فقد جاءت القوات الإسرائيلية بحوالي ١٠٠ ألف مقاتل في مقابل ٧٥ ألفًا لكل القوات العربية مجتمعة.

هذه أمثلة قليلة فقط تساعد في فهم قوله تعالى: ﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾، وقد

تفوقت دولة الاحتلال في باب النفير لعدة أسباب منها[١]:

١- يبدأ سن التجنيد الإجباري من سن ١٨ سنة للرجال والنساء.

٢- مدة الخدمة للرجال ٣ سنوات، وسنتان للنساء.

٣- بعد إتمام الخدمة الإجبارية يبقى المجند على قائمة الاحتياط حتى يبلغ الرجل ٣٩ سنة، والمرأة ٣٤ سنة للشق الأول، ولسن ٤٥ سنة للشق الثاني.

٤- استدعاء قوات الاحتياط للشق الأول (المعسكرات المستديمة) لا يستغرق أكثر من ٤٨ ساعة.

٥- استدعاء قوات الاحتياط للشق الثاني (وحدات الاحتياط) يستغرق من أربعة لخمسة أيام.

٦- في بعض الأحوال يرتفع سن التجنيد الإلزامي من ١٨ إلى ٢٩ إلى مدى ١٨ - ٣٥ سنة، وهو مدى واسع قياسًا بالمحيط العربي والإسلامي.

٧- تفوق الخدمات الإدارية في عملية الاستنفار مثل المواصلات واستعداد الوحدات، وطريقة التواصل مع الاحتياط.

٨- الاستدعاءات الدورية للقوات الاحتياطية وقت السلم ما يجعل استدعاءها وقت الحرب سهلًا نسبيًّا.

٩- فلسفة التربية في المجتمع الإسرائيلي وهي فلسفة قائمة على أن الكل يمكن تسخيره للمجهود الحربي، ومن ذلك تقبل الإجراءات الاستثنائية.

**ب)** أن يكون معنى «نفيرًا» هو نفير الصوت المتمثل في الإعلام:

لقد أولت الحركة الصهيونية اهتمامًا كبيرًا للجانب الإعلامي، ويكفي أن

---

(١) موسوعة مقاتل: ملحق تنظيم القوات الإسرائيلية.

نعرف أن ثيودور هرتزل أحد المؤسسين الرئيسيين للصهيونية الحديثة والأب الروحي لفكرة دولة إسرائيل، كان صحافيًّا، وأسس في سنة ١٨٩٧م صحيفة «دي فيلت» في النمسا لتكون لسان حال المشروع الصهيوني، حيث نص في العدد الأول في ٣ يونيو ١٨٩٧ «يجب على الصحيفة أن تتحول إلى درع حامية للشعب اليهودي، وتكون سلاحًا ضد أعدائه».

وفي سنة ١٨٦٩ عبر الحاخام اليهودي راشورون في خطاب له في مدينة براغ عن أهمية الإعلام حين قال: «إذا كان الذهب هو قوتنا الأولى للسيطرة على العالم، فإن الصحافة ينبغي أن تكون قوتنا الثانية».

وإذا أخذنا بلدًا واحدًا مثل الولايات المتحدة الأمريكية مثلًا والتي تمثل القوة الأكبر منذ الحرب العالمية الثانية، نجد أن الحركة الصهيونية قد ركزت على الصوت اليهودي هناك، وسيطرت على كثير من وسائل الإعلام كليًّا أو جزئيًّا، ولا نكاد نجد منبرًا إعلاميًّا يخلو من صوت صهيوني يدعم يهود إسرائيل ويهود الداخل، ويتحول لمنبر للفكرة الصهيونية.

هناك على الأقل ٣٠٠ صحيفة ونشرة يهودية تصدر في أمريكا، وهناك نشرات سرية خاصة يتداولها اليهود في أمريكا منها مثلًا نيويورك بوست، كذلك هناك إذاعات كاملة سيطر عليها اللوبي الصهيوني منها:

- شبكة ABC وهي ترتبط بشكل مباشر مع منظمة إيباك التي ترعى حقوق الصهيونية وإسرائيل في أمريكا.
- شبكة CBS شركة كولمبيا للبث الإذاعي.
- شبكة NBC الشركة الوطنية للإذاعة.

وكي نعلم مدى تأثير هذه الوسائل، لنا أن نعرف أن معظم المواطنين الأمريكيين يستمعون لواحدة من هذه الإذاعات، لا سيما في فترتي

الصباح والمساء.

وفي مجال الشبكات الإخبارية فهناك الكثير منها مثلًا فوكس نيوز وقنوات سكاي وغيرها.

بل امتد التأثير الإعلامي إلى قنوات الأفلام مثل شو تايم، وقنوات الأطفال مثل نيكلوديون وقنوات ESPN, CNBC, USA.

وفي الإنتاج السينمائي كذلك هناك شركات متنوعة منها مثلًا شركة وورنر ميديا. ليس هذا فقط بل إن الاحتلال أنشأ إذاعات وصحفًا موجهة باللغة العربية، وهي لغة أعدائهم الرئيسية، ففي البداية أنشأت دولة الاحتلال صحفًا ناطقة بالعربية مثل: صحيفة السلام واتحاد العمال وصحيفة تايمز أوف إسرائيل بالعربية، وهناك أيضًا إذاعة أورشليم بالعربية، والفضائية الإسرائيلية باللغة العربية.

ومثل ذلك في أوربا وأستراليا، وأمريكا اللاتينية.

وإذا قسنا قوة تأثير الإعلام اليهودي والصهيوني بمقابل الإعلام العربي الإسلامي في الفترة منذ إنشاء دولة إسرائيل حتى عشر سنوات مضت، سنجد التفوق الكبير للإعلام اليهودي على المستوى العالمي، وما تبعه من تبني السردية اليهودية في كثير من القضايا، لا سيما إظهار اليهود في صورة المظلومية.

كل هذا يجعل النَّفْر الصهيوني في هذا الباب أقوى من عدوهم من المسلمين والعرب، هذا فضلًا عن الاختراق الصهيوني لبعض وسائل الإعلام العربية والإسلامية، واستعمالها لخدمة المشروع الصهيوني، سواء في نقل السردية اليهودية، أو محاولة تمرير قضية التطبيع وقبول الاحتلال، أو دورها في نشر اليأس والإحباط، أو نشر موجة الاختراق الديني في صورته الداعشية

وصورته الإلحادية، مع عموم نشر الفساد الأخلاقي.

كل هذا يفسر قوله تعالى: ﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾، لأن تأثير الإعلام العربي والإسلامي في المجتمع اليهودي في فلسطين المحتلة ما زال ضعيفًا قياسًا بالإعلام الصهيوني، وحتى الآن لا توجد اختراقات كبيرة في هذا المجال، وما زالت النفرة للعدو الصهيوني في العموم.

**جـ)** أن يكون معنى «نفيرًا» أي أكثر نفرًا: أي حربًا، وذلك نراه في طريقة الحروب الإسرائيلية، والتي تسمى الحرب الاستباقية.

إذا قارنا أكثر الدول دخولًا في حروب صغيرة وكبيرة في المائة سنة الماضية سنجد أن دولة الاحتلال تأخذ المركز الأول ومعها الولايات المتحدة الأمريكية حليفها الأول والأساسي، وإذا نظرنا إلى مجمل الحروب نجد أنها حروب وهجمات استباقية، وسنذكر هنا بعضها:

- **حرب ١٩٥٦**: والتي قامت فيها إسرائيل باحتلال غزة وشبه جزيرة سيناء في اعتداء مفاجئ على الجيش المصري، بترتيب مسبق مع فرنسا وبريطانيا.
- **حرب ١٩٦٧**: والتي ذكرنا شيئًا عنها آنفًا، ففي صباح ٥ يونيو ١٩٦٧، قامت قوات الجو الإسرائيلية بمهاجمة المطارات في مصر وسوريا والأردن في وقت واحد وبصورة مفاجئة في طريقة التنفيذ، ومن ثم احتلت إسرائيل مناطق عربية شاسعة.
- **عملية الليطاني سنة ١٩٧٨**، وفيها احتل الجيش الصهيوني الأراضي اللبنانية حتى نهر الليطاني، واستمرت الحملة ثلاثة أشهر وبعدها انسحب الجيش الإسرائيلي إلى الحدود الدولية، وأدت العملية لانسحاب منظمة التحرير الفلسطينية من جنوب لبنان.

- حرب ١٩٨٢ في لبنان وقد تكلمنا عنها من قبل.
- ضرب المفاعل النووي العراقي بالطائرات سنة ١٩٨١، وفيها تم تدمير المفاعل أوز براك الذي كان صفقة بين فرنسا والعراق وكان مخصصًا للأغراض السلمية والبحث العلمي.
- حرب ٢٠٠٦ وفيها هاجمت المقاتلات والبحرية الإسرائيلية لبنان فهاجمت العاصمة بيروت ومحطات الكهرباء وشبكة الجسور والطرق، وبعدها قامت حرب بين إسرائيل وحزب اللَّه لمدة ٣٤ يومًا.
- الهجوم على غزة سنة ٢٠٠٨، وكان الهجوم الجوي مفاجئًا على أفراد الشرطة الفلسطينية.

وفي هذه المواقع وفي غيرها كانت إسرائيل تبدأ بالقتال المفاجئ.

ومن ذلك أيضًا مئات الاغتيالات التي قامت بها الأجهزة الأمنية الصهيونية، وعمليات التخريب، ومن ذلك مثلًا.

- عملية لافون في مصر وكان هدفها تفجير أهداف مصرية وأمريكية وبريطانية، ونسبت لوزير الدفاع اليهودي بنحاس لافون، وذلك في سنة ١٩٥٤.
- عملية تفجيرات بغداد ١٩٥٠ وقد اعترف أحد أعضاء الكنيست سنة ٢٠١٩ أن الصهاينة كانوا وراءها لدفع يهود العراق إلى الهجرة لإسرائيل.
- عمليات اغتيال كثيرة منها اغتيال غسان كنفاني ١٩٧٢، ومحمود همشري في باريس ١٩٧٢، وحسين أبو الخير في قبرص ١٩٧٣، وكمال عدوان في بيروت ١٩٧٣، ومحمد بودية في باريس ١٩٧٣، وعلي حسن سلامة في بيروت ١٩٧٩، وزهير محسن في مدينة كان الفرنسية ١٩٧٩، وفضل الضاني في باريس ١٩٨٢، وخالد نزال في أثينا ١٩٨٦، وخليل الوزير في

تونس ١٩٨٨، وصلاح خلف في تونس ١٩٩١، وعباس الموسوي في لبنان ١٩٩٢، وعماد عقل في غزة ١٩٩٣، وفتحي الشقاقي في مالطا ١٩٩٥، ويحيى عياش في قطاع غزة ١٩٩٦، وثابت ثابت في طولكرم ٢٠٠٠، وجمال منصور في الضفة الغربية ٢٠٠١، وأبي علي مصطفى في البيرة ٢٠٠١، ومحمود أبي هنود في نابلس ٢٠٠١، ورائد الكرمي في طولكرم ٢٠٠٢، وصلاح شحادة في غزة ٢٠٠٢، وأحمد ياسين في غزة ٢٠٠٤، وعبد العزيز الرنتيسي في غزة ٢٠٠٤، ومحمود المبحوح في دبي ٢٠١٠، وحسن طهراني في طهران ٢٠١١، وأحمد الجعبري في غزة ٢٠١٢، وسمير القنطار في دمشق ٢٠١٥، وجهاد عماد مغنية في القنيطرة ٢٠١٥، ومحمد الزواري في صفاقس ٢٠١٦، وفادي البطش في كوالالمبور ٢٠١٨، ومحسن فخري زاده في أبسرد ٢٠٢٠، وشيرين أبو عاقلة في جنين ٢٠٢٢.

ولقد بلغت عمليات الاغتيال الإسرائيلية في سبعين عامًا ٢٧٠٠ حالة بمتوسط ٣٨ عملية سنويًّا، ولم تقتصر على المقاتلين بل شملت علماء وأدباء وسياسيين.

كل هذه المبادرات نستطيع أن نفهمها في ضوء قوله تعالى: ﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾.

**د)** أن يكون «نفيرًا» بمعنى أكثر إخافة لعدوكم:

إن واحدة من أهم عوامل النصر في المعارك والاستقرار في السلم هي المهابة، والتي تكون رادعًا للعدو.

والمهابة هنا ليست كلمة، بل هي فكرة تتمثل في صور شتى منها الحسي وهو الأكثر، ومنها المعنوي، منها ما يخص المهاب، ومنها ما يخص عدوه،

وهو ضد الهيبة «الخوف».

وقد أشار النبي ﷺ لذلك في حديثه المشهور الذي رواه ثوبان، وفيه يقول الرسول ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، لكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن اللَّه من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن اللَّه في قلوبكم الوهن...»(١).

وإذا نظرنا لوقائع التاريخ الحديث لا سيما بعد معاهدة كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل سنة ١٩٧٨، وما حدث بعدها، نجد أن الخوف من إسرائيل قد زاد لدى أعدائها العرب والمسلمين، وتمثل ذلك في صور منها:

١ - الهرولة للتطبيع مع العدو القديم من قبل دول عربية وإسلامية، حتى من قبل دول ليس لها حدود مشتركة مع فلسطين التاريخية، وليس هناك حالة حرب بينها وبين إسرائيل، وما ذاك إلا رغبة أو رهبة.

٢- التنسيق الأمني بين الأجهزة الأمنية في بعض الدول العربية والإسلامية وبين المؤسسات الأمنية الإسرائيلية، والذي تكشف منه الكثير في السنوات الأخيرة، وهذه أيضًا واحدة من علامات الخوف والفزع من قوة العدو الإسرائيلي من قبل هذه المؤسسات الأمنية.

٣- تدخل الكيان الصهيوني في توجيه سياسات بعض الدول العربية والإسلامية، سواء بطريق مباشر، أو عن طريق حلفائه الغربيين في أوربا وأمريكا، الأمر الذي وصل لحد تغيير أنظمة في بعض الحالات، ما أخاف بعضًا من السياسيين العرب والمسلمين.

٤ - دعم الكيان الصهيوني لحركات التمرد والانفصال في الدول العربية

(١) أخرجه أبو داود في سننه: حديث رقم (٤٢٩٧).

والإسلامية، عسكريًّا واستخباراتيًّا كما حدث في العراق والسودان واليمن وليبيا وسوريا وتشاد.

٥- مساعدة أعداء المسلمين التقليديين في صراعهم مع الدول الإسلامية، وذلك كدعم الهند ضد باكستان، ودعم ميانمار، ودعم أثيوبيا ضد السودان ومصر، لا سيما في موضوع السدود على النيل.

٦- تسريب تقارير عن امتلاك إسرائيل لأكثر من مائتي رأس نووي، والتي تمثل قوة ردع قوية، مع امتلاك صواريخ موجهة لكل العواصم العربية والإسلامية ذات الخطر المحتمل.

٧- القدرة على التخريب الاقتصادي لأعداء إسرائيل من العرب والمسلمين، سواء بطريق مباشر أو عن طريق الحلفاء الغربيين والمؤسسات العالمية المالية، أو حديثًا عن طريق الحلفاء العرب الجدد، وقد رأينا ذلك في انهيار سوق الأسهم في بعض الدول، أو انهيار العملة الوطنية في البعض الآخر.

٨- الرعب الإلكتروني، وذلك من خلال القدرة الكبيرة للكيان الصهيوني في مجال البرمجيات الإلكترونية، وبرامج التجسس، ووسائل الاختراق الإلكتروني، والتي تهدد مؤسسات دول الأعداء بالشلل، ومن ذلك مثلًا برنامج بيجاسوس التجسسي، ومن ذلك أيضًا الهجوم الإلكتروني على منشأة نووية في إيران، ومنه تعطيل عمل محطات البنزين في إيران إلكترونيًّا.

٩- نشر الأساطير عن أسلحة إسرائيلية حديثة مثل أسلحة الليزر المضادة للصواريخ، وغيرها من الأسلحة التي تهدم نفسية العدو وتدعوه لليأس والإحباط، وإظهار صورة القوة الإسرائيلية أنها لا تقهر.

١٠- نشر فضائح بعض أعداء دولة إسرائيل من العرب والمسلمين ما

يجعل الحكام وولاة الأمور وقادة المؤسسات في خوف دائم من سلطان الفضيحة، وهذه الوسيلة تستعملها إسرائيل حتى مع حلفائها.

١١- كون الكثير من الدول العربية والإسلامية محكومة بطريقة استبدادية، وهذا النوع من الحكم تؤيده إسرائيل وحلفاؤها لأنه يخيف الحاكم والمحكوم على السواء، فالمحكوم يخاف من بطش المستبد، والمستبد يخاف ممن حوله، ومن احتمال انقلاب الناس عليه، وهنا تكون الدائرة المغلقة للخوف.

كل هذه الصور وغيرها تجعل من دولة إسرائيل كيانًا مخيفًا لأعدائها التقليديين، الأمر الذي يجعل «نفر» بني إسرائيل مخيفًا ومتسلطًا على أكثر أعدائهم، ويقابله عجز هؤلاء الأعداء عن إخافة إسرائيل ولو بقدر صغير، فيكون ﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي أنهم يخافونكم أكثر مما تخافونهم.

هـ) أن يكون «نفيرًا» هنا بالمعنى الاستعمالي العربي المعجمي:

فقد نقلنا عن ابن فارس أنه نقل عن أحد الأعراب أن أباه سماه قنفذًا، وكناه أبا العداء تنفيرًا عنه.

وإذا نظرنا إلى دولة إسرائيل في تاريخها منذ أن كانت فكرة إلى ساعتنا هذه، نجد أنها أكثر الدول عدوانية وإجرامًا، فيكون المعنى هنا: أي أكثر إجرامًا واعتداءً.

ومن يراجع عدد المذابح التي قامت بها العصابات الصهيونية منذ أوائل القرن العشرين حتى الآن، يجد أنها لا تعد ولا تحصى، وسنذكر بعضها فقط كنماذج على معنى العدوانية:

- مذبحة بلد الشيخ ١٩٤٧: قتل العشرات وتهجير خمسة آلاف.

- مذبحة دير ياسين ١٩٤٨: وفيها قتل ٣٦٠ فلسطينيًّا وجرح العشرات وهجر المئات.
- مذبحة أبو شوشة ١٩٤٨: قتل العشرات وتهجير ألف.
- مذبحة الطنطورة ١٩٤٨: قتل فيها ٢٥٠ فلسطينيًّا وهجر ١٥٠٠.
- مذبحة قبية ١٩٥٣: قتل فيها العشرات وهجر ٦٠٠٠.
- مذبحة قلقيلية ١٩٥٦: قتل فيها العشرات وهجر ٤٠٠٠.
- مذبحة كفر قاسم ١٩٥٦: قتل فيها العشرات وهجر ١٩٦٠.
- مذبحة خان يونس ١٩٥٦: قتل فيها ٦٢٥ وهجر ٤٠٠٠.
- مذبحة صابرا وشاتيلا ١٩٨٢: قتل فيها ٤٠٠٠ وجرح ٥٠٠٠، وهجر ٦٠ ألفًا.
- مذبحة الأقصى الأولى ١٩٩٠: قتل فيها ٢١، وجرح ٨٥٠، وأسر ٢٧٠.
- مذبحة الحرم الإبراهيمي ١٩٩٤: قتل فيها ٥٠، وجرح ١٥٠، وأسر ٢٠٠.
- مذبحة جنين ٢٠٠٢: قتل فيها ٥٠٠، وجرح ١٠٠٠، وهجر ١١ ألفًا.
- مذابح غزة ٢٠٢٣: وهي أكثر من أن تحصى، ويشاهدها العالم أجمع.

هذه فقط بعض المذابح ضد أهل فلسطين وهي قليل من كثير، بالإضافة إلى مذابح أخرى ضد الأسرى المصريين والسوريين في حرب ١٩٦٧، وهي تعكس العدائية الإسرائيلية، والتي تفسر ﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي أكثر عدوانية وإجرامًا مع عدوكم.

و) أن يكون معنى «نفيرًا» أي أكثر نصيرًا، ويكون النفر هنا معهم وليس فقط منهم:

فمنذ الحرب العالمية الأولى وتجد اليهودية الصهيونية أنصارًا، حتى وإن كانوا أعداء تقليديين كأوربا مثلًا، حتى إن «نفر» مجموعات الضغط اليهودي في تأثيره الإيجابي على تأسيس دولة الاحتلال واستمرارها يوازي أو يزيد عن قوة نفر جنود الدولة وحاجتها إليهم للبقاء.

وإذا أخذنا الولايات المتحدة مثالًا مرة أخرى باعتبارها الراعي الرسمي لدولة إسرائيل وللصهيونية، سنجد عشرات الهيئات التي تمثل الخط الأمامي الذي يدافع عن مصالح دولة إسرائيل قبل دفاعه عن أي قيم أخرى بما فيها قيمة المواطنة الأمريكية، ومن هذه الهيئات:

١- أيباك: وهي أكبر هذه الهيئات، وعملها الأول التأثير على صناعة القرار الأمريكي، وترويض السياسيين الأمريكيين، وجمع الأموال علانية وسرًّا لصالح إسرائيل ومشاريعها في الشرق الإسلامي.

تأسست تحت اسم اللجنة الصهيونية الأمريكية للشئون العامة في سنة ١٩٥٣ في عهد دوايت أيزنهاور، وتم تغيير اسمها للجنة الشئون الأمريكية الإسرائيلية العامة، وأهم أهداف هذه المنظمة:

- تأهيل جيل داعم لدولة إسرائيل.
- جمع التبرعات لدولة الاحتلال.
- الضغط على صناعة القرار الأمريكي لصالح إسرائيل.
- مساومة رؤساء الولايات المتحدة نيابة عن الصوت اليهودي في الانتخابات.
- محاربة مجموعات الضغط العربية والإسلامية إن وجدت.

٢- المؤتمر اليهودي العالمي: وهو اتحاد مقره نيويورك، ويضم أكثر من سبعين منظمة يهودية مناصرة للحركة الصهيونية في الكثير من دول العالم،

تأسس المؤتمر في سنة ١٩٣٦ في جنيف، وهو يعمل كذراع دبلوماسية للشعب اليهودي وله مكاتب في معظم العواصم المشهورة كباريس ولندن وموسكو وبروكسل وجنيف وبيونس أيرس، ويكفي أن نعلم أن هذا المؤتمر قاد المفاوضات مع حكومة ألمانيا الغربية لدفع تعويضات لضحايا النازية والتي بلغت ٦٠ مليار دولار، كما قام بالمفاوضات في النمسا لإعادة ممتلكات اليهود.

ويتولى المؤتمر الإنفاق على معهد الشئون اليهودية في لندن، وهو من أهم المعاهد التي تناقش موضوعات سياسية واقتصادية واجتماعية تخص يهود العالم ومستقبلهم.

٣- مجلس الاتحاد اليهودي: وهي منظمة تأسست سنة ١٩٣٢، وتضم الاتحادات اليهودية في أمريكا وكندا، ويخضع لها حوالي ٢٧٥ اتحادًا يهوديًّا.

٤- الحركة الصهيونية الأمريكية، وهي منظمة حديثة نسبيًّا، فقد تأسست سنة ١٩٩٣، وغايتها توحيد الصوت الصهيوني في أمريكا وتضم تحتها أكثر من عشرين منظمة صغيرة.

٥- عصبة منع الازدراء: تأسست سنة ١٩١٣، وتزعم أنها تحارب معاداة السامية، وتشرف على التقرير السنوي الصادر عن المنظمات اليهودية الأمريكية.

هذا غيض من فيض في الولايات المتحدة وحدها؛ أما إذا دققنا فسنجد أنه لا تكاد تكون هناك دولة تخلو من جماعة ضغط صهيونية أو يهودية باستثناء بعض الدول العربية والإسلامية، بل إن بعض جماعات الضغط وصلت لبعض الدول الإسلامية وأثرت في سياستها.

ولكي نعرف قوة صوت هذه المجموعات في مجتمعاتها لا بد أن نعرف

أسباب قوتها، ففي أمريكا مثلًا نجد:

١- أنهم يستندون إلى قاعدة واسعة من الناخبين الذين يمارسون هذا الحق بكل المستويات (الرئاسة- الكونجرس- الولايات- المدن- أعضاء المجالس المحلية...).

٢- غنى مجموعات الضغط الذي يمكنهم من التبرع لحملات المرشحين، فنصف التبرعات للحزب الديمقراطي مثلًا تأتي منهم، وجزء كبير من تبرعات الحزب الجمهوري منهم أيضًا.

٣- أن المستوي التعليمي والثقافي والاجتماعي لكثير من أفراد هذه المجموعات عال جدًّا، وكثير منهم من خريجي الجامعات الأمريكية المشهورة.

٤- التركيز السكاني اليهودي في بعض الولايات المهمة مما يجعلهم حجرًا مرجحًا في الانتخابات في ولايات مثل كاليفورنيا وفلوريدا ونيويورك وغيرها.

ولكي نعرف مدى تأثير مجموعات الضغط اليهودية في صناعة القرار الأمريكي ننظر فقط في بعض الأرقام:

- استخدمت أمريكا حق النقض لصالح إسرائيل في مجلس الأمن ٨١ مرة منذ سنة ١٩٧٣، يعني في خمسين سنة وهي أكثر بكثير من استعمال أي دولة أخرى، بل إن أمريكا قد استعملت الحق حوالي ٨٥ مرة في تاريخ مجلس الأمن.
- استخدمت أمريكا حق النقض منذ ٧ أكتوبر ٢٠٢٣ لصالح إسرائيل خمس مرات لمنع وقف العدوان الصهيوني على غزة.

- قدمت أمريكا لإسرائيل أكثر من ١٦٠ مليار دولار مساعدات عسكرية فقط، هذا بالإضافة إلى مليارات من المساعدات في مجالات الصناعة والتنمية الاجتماعية والأبحاث المشتركة، ومشروع الدفاع والأمن الذي مولته الولايات بالمليارات أيضًا.
- في عملية عشب النيكل مثلًا والتي كانت عملية إمداد جوي وبحري نفذتها الولايات المتحدة لإمداد إسرائيل بالأسلحة بعد هزيمتها في حرب ١٩٧٣، نقلت الولايات المتحدة حوالي ٢٣ ألف طن من المعدات في الفترة ما بين ١٤ أكتوبر إلى ١٤ نوفمبر، وهو رقم كبير ينقل في شهر واحد.

وإذا نظرنا إلى تصريحات وأعمال الرؤساء الأمريكان منذ إنشاء دولة إسرائيل سنجد التزامًا واضحًا بأمن وبقاء إسرائيل، وهذه بعض مقولاتهم:

- هاري ترومان (١٩٤٥-١٩٥٣) كتب في رسالة إلى ملك السعودية سنة ١٩٤٨: «من الطبيعي أن تشجع الحكومة في هذا الوقت وصول أعداد كبيرة من اليهود المرحلين من أوربا إلى فلسطين، لا لكي يجدوا لهم مأوى فحسب، بل ليساهموا بمواهبهم وطاقاتهم في إقامة الوطن القومي اليهودي».
- ليندون جونسون (١٩٦٣-١٩٦٩) من أكبر الداعمين لإسرائيل في حرب ١٩٦٧ وقد قال لأبي إيبان: «إن إسرائيل لن تكون وحدها، ما لم تقرر أن تسير وحدها»، ولقد جعل جونسون مسئولية الدفاع الجوي عن إسرائيل في حرب ١٩٦٧ مسئولية الأسطول السادس الأمريكي، بل إن السفينة ليبرتي الأمريكية هي التي شوشت على الرادارات المصرية طوال فترة الحرب.

- ريتشارد نيكسون (١٩٦٩-١٩٧٤): رفع سقف المساعدات العسكرية لإسرائيل إلى ٢.٢٥ مليار دولار، وعين هنري كيسنجر أهم شخصية يهودية في السياسة الأمريكية- مستشارًا للأمن القومي، ثم وزيرًا للخارجية في أغسطس ١٩٧٣، أي قبل الحرب مباشرة.

وقع نيكسون اتفاقية تفاهم مع جولدا مائير سنة ١٩٧٠ بموجبها تغض أمريكا الطرف عن برنامج إسرائيل النووي، وهي ما زالت سارية حتى الآن، كما أننا تكلمنا عن الجسر الجوي في عهده لصالح إسرائيل في حرب ١٩٧٣.

- جيمي كارتر (١٩٧٧-١٩٨١) وفي عهده كان صوت إسرائيل في المفاوضات التي تمت في كامب ديفيد وأدت لمعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، وبعدها خرجت مصر من المعادلة بصورة كبيرة، وانفردت إسرائيل بباقي القوى العربية تباعًا.
- رونالد ريجان (١٩٨١-١٩٨٩) وهو يعتبر أول رئيس صهيوني مسيحي، وهؤلاء يؤمنون بضرورة سيطرة اليهود على فلسطين، حتى ينزل المسيح وتقع موقعة هرمجيدون، ويبدأ حكم الألفية المسيحية، وفي عهده صارت إسرائيل تحصل على ٢٠٪ من إجمالي المساعدات الأمريكية الخارجية، وتعاون ريجان مع منظمة أيباك تعاونًا كبيرًا.
- جورج بوش (١٩٨٩-١٩٩٣): استعمل كثيرًا من المستشارين من الجالية اليهودية، لا سيما دينس روس، وفي سنة ١٩٩١ كان سبعة من مساعدي وزير الخارجية الأمريكي يهودًا، وهو عدد كبير جدًّا، وفي عهده تم نقل يهود الفلاشا لإسرائيل، وفي عهده أيضًا قامت أكبر حرب ضد العراق، وكانت في جزء منها لصالح إسرائيل، إذ تم تدمير معظم قوة

الجيش العراقي التي كانت تخيف إسرائيل.

- بيل كلينتون (١٩٩٢-٢٠٠٠): ومع أنه تعرض لمشكلة بسبب فتاة يهودية إلا أنه أعطى وزارة الخارجية اليهودية مادلين أولبرايت والتي أعطت كثيرًا من المناصب لأبناء الجالية اليهودية، وفي عهده وقعت اتفاقيات أوسلو، والتي جاءت الضربة الثانية القوية بعد اتفاق كامب ديفيد ١٩٧٨.
- جورج بوش الابن (٢٠٠١-٢٠٠٩): وهذه فترة اجتمع فيها سيطرة الصهيونية العالمية بشقيها اليهودي والمسيحي، وتحول جورج بوش إلى متحدث باسم إسرائيل قولًا وفعلًا، وقد احتوت حكومته الأولى على حوالي ٣١ مسئولًا صهيونيًّا يمثلون عصب السياسة الأمريكية، كما أن نائبه ديك تشيني كان من أهم المتعصبين للصهيونية المسيحية التي تؤيد إسرائيل، ومن أجل ذلك كانت فترة بوش حروبًا وتدميرًا في العالم العربي والإسلامي.
- باراك أوباما (٢٠٠٩-٢٠١٧): ومع أن أوباما حاول أن يعدل من سياسة التطرف اليميني والصهيوني لسلفه، إلا أنه أيضًا التزم بأمن إسرائيل واستعمل الفيتو أكثر من مرة لعدم إدانة إسرائيل ومذابحها، وفي عهده شنت إسرائيل حربين على غزة، وتواطأ مع روسيا في إفشال الثورة السورية لأن نجاحها كان سيغير معادلة القوى.
- دونالد ترامب (٢٠١٧-٢٠٢١): هناك عبارة تلخص العلاقة بين ترامب والصهيونية وهي أنه «يحب اليهود ولا يحبونه»، وقد صوت معظم اليهود لمنافس ترامب، ومع ذلك فزوج ابنته يهودي، وابنته تحولت لليهودية، وكانا لهما تأثير كبير في سياسته، وهو الذي نقل سفارة أمريكا للقدس مع أن من سبقوه كانوا يؤجلون الخطوة، وهو صاحب صفقة القرن الشهيرة

والتي فشلت أن تمر.

- جو بايدن (٢٠٢١-....): هو رئيس يقول عن نفسه أنه صهيوني، وهو القائل: «لو لم تكن إسرائيل لأوجدناها»، وهو الرئيس الذي قتل في عهده من الفلسطينيين أعداد لم تسبق في مدة محدودة، بل هو أسوأ من جورج بوش الابن في دعمه للمشروع الصهيوني، ووزير خارجيته أنتوني بليكن يهودي من أشد الداعمين لنتنياهو والعصابة الحاكمة في دولة الاحتلال، ويمارس ضغوطًا كبيرة على دول الجوار لتحييدها عن القضية العربية الإسرائيلية، حتى أنه أضحى وزير خارجية لإسرائيل أكثر منه للولايات المتحدة.

لقد تبنى كثير من رؤساء الولايات المتحدة وسياسيها وجهة النظر الإسرائيلية، ودافعوا عن مصالح إسرائيل في أحيان كثيرة أكثر من دفاعهم عن مصالح الولايات المتحدة، بل عرضوا مصالح بلدهم للخطر في مقابل إرضاء جماعات الضغط والمصالح الصهيونية واليهودية في ظاهرة ليس لها مثيل في التاريخ البشري، ولقد أفادت إسرائيل من قوة أمريكا العالمية في أصل وجودها وفي استمرار بقائها، وهذا لعمري كان مفيدًا لهم أكثر من «نفرهم» للحرب والمجالدة بأنفسهم.

وفي نهاية هذا المبحث أود أن أعلق على أمر قد يرد على تفسيرنا السابق لهذه الآية لا سيما في جزئها الأخير، ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ فقد يقال: **كيف يمكن اللَّه لبني إسرائيل بعد الإسلام وهم على كفرهم وضلالهم وفسادهم المتصل؟!** ويجعل هذا التمكين مسلطًا على المسلمين الموحدين حتى وإن كانوا من العصاة؟!

وأنا هنا سأختصر الإجابة بما يناسب السياق حتى لا يتشعب بنا الكلام

للحديث عن قضية القدر، وأقول:

**أولًا:** من المهم أن نفهم أن دائرة الفعل البشري تدور حول الأفعال والأسباب؛ فالنجاح فعل وهو متعلق بأسباب النجاح، والفشل فعل متعلق بأسباب الفشل، والأكل فعل ومتعلق بأسباب، والخير فعل ومتعلق بأسباب، والشر فعل ومتعلق بأسباب، وارتباط المسبب بالسبب هو من قدر اللَّه وعدله.

ولكن دائرة الأسباب تختلف بين أهل الإيمان وأهل الكفر، ويمكن أن نختصرها في الجملة الآتية:

في حالة المؤمن تدور الأسباب بين التمكين والمنع، وفي حالة الكافر تدور الأسباب بين التخلية والمنع.

وبيان ذلك أن اللَّه بفضله وتفضله على عبده المؤمن قد يمكنه ويوفقه للأسباب، وقد يمنعها عنه لخير له أو لاختبار وتمحيص.

أما في حالة الكافر فمن عدله أنه قد يخلي بينه وبين الأسباب حتى إذا حاسبه حاسبه بعدل وعلى فعل واختيار، وقد يمنعها عنه رحمة بغيره، لا رحمة به.

وبين هذا وذاك تقع مرتبة أخرى على سبيل الاستثناء، وهي مرتبة اللطف الإلهي، وهي في الغالب خارقة لقاعدة الأسباب، فيها قد يؤمن الكافر كما وقع مع عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه، وبها قد يغتني الفقير ويعز الذليل، ويرتفع الخفيض والوضيع، ويصيب الأعمى الرمي، ويبز العاجز الصحيح، وهي ما نسميه الكرامة، وهي لا تقع بقاعدة مطردة مثل قاعدة السبب والمسبب، بل كما قلنا هي لطف يقع له مسوغه الإلهي والبشري.

فأما الإلهي فهو تمام القدرة وكمال الإحاطة، وأما البشري لئلا يقع المخلوق تحت عبادة صنم الأسباب والمادية.

وخير مثال على ما قدمنا، ما وقع في غزوة أحد والذي قال فيه تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[١]. فقوله: «فبإذن اللَّه» هو ذاته معنى التخلية، فقد خلى بين المشركين وبين استعمال أسباب النصر، فاستعملوها فوقعت الهزيمة على المسلمين، وفي ذات الوقت لم يوفق المسلمين لأسباب النصر فوقعت الهزيمة عليهم، بخلاف ما وقع في غزوة بدر من تمكين من أسباب النصر للمسلمين، ومنعها عن الكافرين، مع لطف نزول الملائكة للتثبيت.

قال إمام الهدى: «فبإذن اللَّه: فبتخلية اللَّه إياكم لما أنهم رأوا النصر والغلبة بالكثرة أو بالقوة، والعدة فخلاهم اللَّه بينهم وبين عدوهم ليعلموا أن أمثالهم مع قلتهم وضعفهم، انتصروا من أمثال هؤلاء مع كثرة عددهم وقوة أبدانهم وعدتهم في سلاحهم، ولكن باللَّه ينتصرون منهم ويتغلبون عليهم»[٢].

وقال الطوسي: «بتخلية اللَّه التي تقوم مقام الإطلاق في الفعل برفع الموانع، والتمكين من الفعل الذي يصح معه التكليف»[٣]، وقد أنكر الطوسي أن يكون المعنى: بأمر اللَّه، وهذا يشمل كل سياق فيه تخلية بين المشركين وبين الأسباب، قال الطوسي: «ولا يجوز أن يكون المراد به بأمر اللَّه، لأنه خلاف الإجماع، لأن أحدًا لا يقول: إن اللَّه يأمر المشركين بقتل المؤمنين، ولا أنه يأمر بشيء من القبائح، ولأن الأمر بالقبيح قبيح، لا يجوز أن يفعله اللَّه تعالى»[٤].

---

(١) سورة آل عمران: ١٦٦.
(٢) تأويلات أهل السنة (٢/ ٥٢٤).
(٣) التبيان في تفسير القرآن (٣/ ٤١).
(٤) التبيان في تفسير القرآن (٣/ ٤٠).

وشرح الزمخشري الأمر بقوله: «بإذن اللَّه أي بتخليته، استعار الإذن لتخليته الكفار، وأنه لم يمنعهم منهم ليبتليهم، لأن الآذن مخل بين المأذون له ومراده»(١).

وعلى مثل هذا التفسير ذهب الطبرسي(٢)، ومحمود النيسابوري(٣)، والفخر الرازي(٤)، ونقله القرطبي عن القفال(٥)، وفسره القاسمي بقوله: «فهو كائن بقضائه وتخليته الكفار، فالإذن هنا هو الإذن الكوني القدري، لا الشرعي الديني»(٦).

وعلى هذا نفهم كل ما نسب فيه الفعل للَّه فيما هو ضرر عام أو ضرر بالمؤمنين، ومن ذلك مثلًا عمل السحر، فهو قائم على ذات الأمر وهو التخلية، لا التمكين، قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(٧)، وإذنه تخليته بين الفاعل وبين الأسباب.

وما وقع من إضافة الأفعال للَّه في آية الإسراء، يفهم بهذا المعنى، إذ خلَّى اللَّه بين بني إسرائيل وبين الأسباب، ولم يمكنا لطفًا من الدفع فوقع ما جاء في الآية، وهو لا يعني تفضيلًا لبني إسرائيل بقدر ما هو عقوبة لغيرهم.

**ثانيًا**: إذا نظرنا إلى كل المعطى لبني إسرائيل في الآية نرى أنه من العطايا الدنيوية، وليس فيه وعد واحد يخص الفوز في الآخرة، بل الأمر كله من باب

---

(١) الكشاف (١/ ٤٦٤).
(٢) مجمع البيان (٢/ ٣٥٠).
(٣) إيجاز البيان عن معاني القرآن (١/ ٢١٨).
(٤) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٢١).
(٥) تفسير القرطبي (٤/ ٢٦٥).
(٦) محاسن التأويل (٢/ ٤٥٤).
(٧) سورة البقرة: ١٠٢.

المداولة والتدافع الذي جعله اللَّه سنة في الأرض، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[١]. وقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[٢]. وكلمة الناس هنا عامة تشمل المؤمنين والكافرين، فيدفع هذا بذاك، وذاك بهذا لحكمة عامة حتى يأتي أمر اللَّه.

والذي ينظر في التاريخ الإسلامي يجد هذا واضحًا، فقد انتصرنا وهزمنا وكسبنا وخسرنا، ونصرنا هزيمة لعدونا، ونصر عدونا هزيمة لنا، وليس نصره دليل تقديم عند اللَّه، وليس هزيمتنا دليل كفر باللَّه، فلقد هُزمنا في أحد، ودارت علينا الكرة الأولى في حنين، وفي مؤتة، وهزمنا مرات في حروب الردة، وهزمنا في موقعة الجسر، وكل هذه كانت في أطهر جيل وأنقاه، وهو جيل الصحابة، وبعضه حضره النبي ﷺ.

ولقد هزمت جيوش المسلمين مرات وكان فيها من العلماء والصالحين والزهاد، ولا يقول قائل بحال أن أعداءنا كانوا أقرب إلى اللَّه منا، بل كانوا على الكفر وكنا على الإيمان، ولكن تخلف عنا اللطف، وفارقنا الأسباب، ففازت أسبابهم على أسبابنا، وهذا هو معنى إضافة الفعل للَّه حتى وإن كان ضدنا.

**ثالثًا**: لا يجب أن نغفل عن الحكمة في هزيمتنا ونصرهم:

فالأمة التي فارقت أخلاقها وقيمها التي تنتصر بها لا بد أن تهزم حتى تستيقظ، والأمة التي انتشر فيها الظلم والقهر والفساد تترك لهذه الموبقات حتى تدفع عنها فتعرف قيمة ضدها، فترفع الظلم لصالح العدل، وترفع القهر لصالح الإنصاف، وترفع الفساد لصالح الاستقامة والجادة، ولا يقع هذا إلا

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٠.

(٢) سورة الحج: ٤٠.

بالتمييز والتمايز، ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[١]، ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾[٢].

وبعد انكشاف الحق من الباطل، وارتفاع الغطاء عن النفاق وما يتبعه من فساد الخاصة والعامة، يكون البعث، والبعث هنا ليس بعثًا فرديًّا بل بعث الأمة.

وبعث الأمة لن يكون فقط بهزيمة العدو الكافر الذي تسلط بالتخلية، بل سيكون بهزيمة العدو الذاتي الذي أدى إلى التخلية، فيستقيم الأمر على الطريقة، وتتحول النقمة لنعمة، والنكسة لانتصار. رأينا هذا عيانًا في سنة ١٩٧٣ لا سيما في أيام الحرب الأولى، ولولا ما كان من تخلية بين العدو والأسباب لحكمة ظاهرة لوقع باقي وعد اللَّه في سورة الإسراء، ولكنا الآن في الأقصى الشريف، ولكن اللَّه أراد بعث الأمة جمعاء، لا بلد منفرد، وهو قادم لا محالة ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٣].

**رابعًا:** يجب أن نفهم النظم القرآني في ضوء السياق الكامل، لا في ضوء المعنى المجزوء، وبقراءة الآيات كاملة يظهر لنا جليًّا أن إضافة الأفعال للَّه وإن كانت خيرًا للعدو، فإنها جاءت في سياق الاختبار للعدو أيضًا، فهي هنا من باب إقامة الحجة عليهم لا لهم.

قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾[٤]. وهو تخيير ليس فقط لبني إسرائيل، بل للجميع، وهذه هي القاعدة: من أحسن فله الفوز، ومن أساء فعليه الخسارة، وكل مخير.

لكن اللَّه بعلمه المسبق وبلطفه أخبرنا عن سقوطهم في اختبار الاختيار

(١) سورة آل عمران: ١٦٦.
(٢) سورة الأنفال: ٣٧.
(٣) سورة الروم: ٤٧.
(٤) سورة الإسراء: ٧.

بين الخير والشر، ومن ثم ستقع عليهم العقوبة التي نالنا بعض منها، فيكون عطاء اللَّه لهم نقمة عليهم في «وعد الآخرة» ، ويكون المدد إمهالًا واستدراجًا في ذات الوقت، وبذا يظهر أن ما ظاهره خير فباطنه شر، ولكن السعيد من اتعظ بغيره، والشقي من اتعظ به غيره، ولن ينفع الاستدراك بعد الاستدراج ، فلا فوت ولات حين مندم .

***

# المبحث السادس
# «وعد الآخرة»

وردت جملة «وعد الآخرة» مرتبطة بقصة بني إسرائيل في سورة الإسراء مرتين، الأولى في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾[١]، والثانية في آخر السورة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾[٢].

وقد تعددت آراء المفسرين في تحديد المقصود بوعد الآخرة في الموضعين، وسأختصر مجمل ما ذكروه:

**أولًا:** ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾.

١ - ذهب جمع من المفسرين إلى أن وعد الآخرة هو العقوبة والإهلاك الثاني الموعود، وإن اختلفوا في تحديد من قام به، وما كان سببه، كما ذكرنا في حديثنا عن إفساد بني إسرائيل.

قال مقاتل بن سليمان: «يعني وقت آخر الهلاكين»[٣].

وقال يحيى بن سلام: «قال قتادة: آخر العقوبتين»[٤]، ومثله الهواري[٥]، وابن أبي حاتم[٦]، وابن أبي زمنين[٧]، والماوردي الذي قال: «يعني وعد

---

(١) سورة الإسراء: ٧.
(٢) سورة الإسراء: ١٠٤.
(٣) تفسير مقاتل (٢/ ٥٣٢).
(٤) نفسير يحيى بن سلام (١/ ١١٧).
(٥) تفسير الهواري (٢/ ٤٠٨).
(٦) تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٣١٨).
(٧) تفسير ابن أبي زمنين (٣/ ١٣).

المقابلة على فسادهم، في المرة الثانية»[١]. وابن الجوزي الذي قال: «فإذا جاء وعد عقوبة المرة الآخرة»[٢]، وتبعه البيضاوي[٣]، والنيسابوري الذي قال: «عقاب المرة الآخرة»[٤]، ومثل ذلك ابن عجيبة الفاسي[٥]، والقاسمي الذي قال: «أي مؤاخذة المرة الآخرة وعقوبتها»[٦]، ولمثل ذلك ذهب المراغي[٧].

٢- ذهب جمع من المفسرين إلى أن وعد الآخرة هو الإفساد الثاني:

ومن هؤلاء الطبري الذي قال: «فإذا جاء وعد الآخرة من مرَّتَيْ إفسادكم»[٨]، وإمام الهدى الذي قال: «فإذا جاء وعد الآخرة بالتغيير وتبديل الدِّين»[٩]، والسمرقندي حين قال: «أي آخر الفسادين»[١٠]، والثعلبي الذي قال: «أي المرة الآخرة من إفسادكم»[١١]، ومثله مكي بن أبي طلب[١٢]، والواحدي[١٣]، والبغوي[١٤]، وابن عطية[١٥]، والقرطبي[١٦]، وابن جزي

(١) النكت والعيون (٣/ ٢٣٠).
(٢) زاد المسير (٣/ ١١).
(٣) أنوار التنزيل (٣/ ٢٤٩).
(٤) غرائب القرآن (٤/ ٣٢٦).
(٥) البحر المديد (٣/ ١٨٤).
(٦) محاسن التأويل (٦/ ٤٤٣).
(٧) تفسير المراغي (١٥/ ١٥).
(٨) تفسير الطبري (١٤/ ٤٧٨).
(٩) تأويلات أهل السنة (٧/ ١٠).
(١٠) بحر العلوم (٢/ ٣٠٢).
(١١) الكشف والبيان (٦/ ٨٥).
(١٢) الهداية إلى بلوغ النهاية (٦/ ٤١٤٧).
(١٣) الوجيز للواحدي (ص ٦٢٨).
(١٤) معالم التنزيل (٥/ ٨٠).
(١٥) المحرر الوجيز (٣/ ٤٣٨).
(١٦) تفسير القرطبي (١٠/ ٢١٨).

الكلبي[١]، والخازن[٢]، وأبو حيان[٣]، وابن كثير[٤]، والألوسي[٥]، والشعراوي[٦].

٣- ذهب جمع ثالث من المفسرين أن جملة «وعد الآخرة» فيها محذوف مقدر، قدَّره بعضهم بـ«المرة»، وقدَّره بعضهم بـ«وقت»، وقدره بعضهم بـ«الكرة».

فمن الفريق الأول: الطوسي الذي قال: «فإذا جاء وعد الآخرة أي المرة الآخرة»[٧]، ومثله الزمخشري[٨]، والطبرسي[٩]، ومحمود النيسابوري[١٠]، والفخر الرازي الذي عبر عنه بقوله: «معناه وعد المرة الأخيرة»[١١]، والنسفي[١٢]، وفسر السمين ذلك بقوله: «أي المرة الآخرة، فحذفت المرة للدلالة عليها»[١٣]، ومثل ذلك ابن عاشور حيث قال: «والآخرة صفة لمحذوف دل عليه قوله: «مرتين» أي: وعد المرة الآخرة»[١٤].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٤٤٢).
(٢) لباب التأويل (٣/ ١١٨).
(٣) البحر المحيط (٦/ ١٠).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٨).
(٥) روح المعاني (١٥/ ١٩).
(٦) تفسير الشعراوي (١٤/ ٨٣٦٣).
(٧) التبيان في تفسير القرآن (٦/ ٤٤٣).
(٨) الكشاف (٢/ ٦٠٨).
(٩) مجمع البيان (٦/ ١٦٩).
(١٠) إيجاز البيان عن معاني القرآن (٢/ ٤٩٦).
(١١) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٠١).
(١٢) مدارك التنزيل (٢/ ٢٤٧).
(١٣) الدر المصون (٧/ ٣١٦).
(١٤) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٥).

ومن الفريق الثاني الذي قدر المحذوف بـ«وقت» البقاعي حيث قال: «أي وقت وعد الآخرة»[١]، ومثله أبو السعود[٢].

أما الفريق الثالث فمنه السمعاني الذي قدر المحذوف بـ«الكرة»[٣].

ومن جملة ما ذكره المفسرون نجد أنهم قد ربطوا المعنى المقصود بجملة: «وعد الآخرة» في أول السورة بأحد أمرين: فعل الإفساد، أو عاقبة الإفساد.

والذي نرجحه أن ينصرف المعني للإفساد، وذلك أن السياق القرآني في الآيات السابقة، ذكر أن بني إسرائيل سيفسدون مرتين عظيمتين، ولم يذكر لفظ العقوبة تصريحًا، كأن يقول: لتفسدن ولتعاقبن مرتين، وإنما نص على العدد في الإفساد، ورتب على كل إفساد عقوبة، والعقوبة التي تخلف كل إفساد ليس بالضرورة أن تقع جملة واحدة، بل من الممكن أن تأخذ وقتًا ومراحل، وهذا عينه ما وقع في العقوبة الأولى -على زعمنا- حيث إن النبي ﷺ لم يستأصل بني إسرائيل من الجزيرة العربية مرة واحدة، بل جاءت العقوبة منجمة، أولها بنو قينقاع، وثانيها بنو النضير، وثالثها بنو قريظة، ورابعها منطقة خيبر، وبعدهم يهود تيماء، ووادي القرى، حيث قبلوا الدخول تحت سلطان المسلمين على أن يدفعوا الجزية وذلك سنة ٧ من الهجرة، حتى جاء عمر بن الخطاب وأجلاهم عنها.

ومثل ذلك في العقوبة الثانية من الممكن أن تكون على مراحل، لا سيما وأن الموعود فيها متعدد كما سنبينه في مبحث قادم.

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٣٤٨).

(٢) إرشاد العقل السليم (٥/ ١٥٦).

(٣) تفسير السمعاني (٣/ ٢٢٠).

**ثانيًا: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾:**

هذا هو الموضع الثاني الذي ذكر فيه جملة «وعد الآخرة»، وقد تنوعت تفاسير العلماء للمقصود بهذا الوعد، وهذه جملة آرائهم.

**١- وعد الآخرة هنا هو يوم القيامة:**

وهذا ما عليه جمهور المفسرين، ومنهم مقاتل بن سليمان(١)، ويحيى بن سلام(٢)، والهواري(٣)، وهو الوجه عند الطبري حيث قال: «يقول: فإذا جاءت الساعة وهي وعد الآخرة... حشرناكم من قبوركم إلى موقف القيامة لفيفًا، أي مختلطين»(٤)، ومثله السمرقندي الذي قال: «أي البعث بعد الموت»(٥)، وإليه ذهب مكي بن أبي طالب(٦)، والطوسي(٧)، والبغوي(٨)، وابن عطية(٩)، والفخر الرازي(١٠)، وهو وجه عند القرطبي(١١)، والوجه عند النسفي(١٢)، والخازن(١٣)، والنيسابوري(١٤)، وهو التوجيه عند البقاعي حيث

(١) تفسير مقاتل (٢/ ٥٥٤).
(٢) تفسير يحيى بن سلام (١/ ١٦٦).
(٣) تفسير الهواري (٢/ ٤٤٦).
(٤) تفسير الطبري (١٥/ ١١١).
(٥) بحر العلوم (٢/ ٣٣٢).
(٦) الهداية إلى بلوغ النهاية (٦/ ٤٣٠٥).
(٧) التبيان في تفسير القرآن (٦/ ٥٢٢).
(٨) معالم التنزيل (٥/ ١٣٥).
(٩) المحرر الوجيز (٣/ ٤٩٠).
(١٠) مفاتيح الغيب (٢١/ ٤١٦).
(١١) تفسير القرطبي (١٠/ ٣٣٨).
(١٢) مدارك التنزيل (٢/ ٢٨١).
(١٣) لباب التأويل (٣/ ١٤٩).
(١٤) غرائب القرآن (٤/ ٣٩٦).

قال: «أي القيامة بعد أن سكنتم الأرض أحياء ودفنتم فيها أمواتًا»[١]، ومثله ابن عجيبة[٢]، والقاسمي[٣]، وابن عاشور الذي فسره بقوله: «ووعد الآخرة ما وعد اللَّه به الخلائق على ألسنة الرسل من البعث والحشر»[٤].

**٢- وعد الآخرة المقصود هو نزول عيسى بن مريم:**

وإلى هذا ذهب بعض المفسرين على أنه وجه محتمل يتوجه إليه النص، ومن هؤلاء إمام الهدى حيث قال: «وقال بعضهم: فإذا جاء وعد الآخرة، يعني حياة عيسى ونزوله من السماء»[٥]، ونقله الثعلبي عن الكلبي، قال: «وقال الكلبي: فإذا جاء وعد الآخرة، يعني مجيء عيسى بن مريم من السماء»[٦]، وذكره الماوردي وجهًا من ثلاثة، ونسبه إلى قتادة[٧]، ووجه أيضًا عند الطبرسي[٨]، ومثله عند العز بن عبد السلام[٩]، ووجه نقله القرطبي عن الكلبي[١٠]، وهو أيضًا وجه عند القنوجي[١١].

**٣- وعد الآخرة هو الكرة الآخرة المذكورة في أول السورة:**

وهذا وجه ذكره الماوردي حيث قال: «فيه ثلاثة أقاويل، أحدها: وعد

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٤٣٤).
(٢) البحر المديد (٣/ ٢٣٩).
(٣) محاسن التأويل (٦/ ٥٢٠).
(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٢٩).
(٥) تأويلات أهل السنة (٧/ ١٢٣).
(٦) الكشف والبيان (٦/ ١٤٠).
(٧) النكت والعيون (٣/ ٢٧٨).
(٨) مجمع البيان (٦/ ٢٢٨).
(٩) تفسير العز بن عبد السلام (١/ ٦٠٦).
(١٠) تفسير القرطبي (١٠/ ٣٣٨).
(١١) فتح البيان (٧/ ٤٦٤).

الإقامة وهي الكرة الآخرة قاله مقاتل»[١]. ونقله الشوكاني وجهًا من ثلاثة حيث قال: «أي الدار الآخرة وهو القيامة، أو الكرة الآخرة، أو الساعة الآخرة»[٢]، وإلى هذا ذهب من المُحْدَثِين عبد الكريم الخطيب الذي قال «وعلى هذا يكون المراد بوعد الآخرة هنا هو ما أشار إليه ﷻ في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ ...﴾»[٣]، وذهب إلى هذا أيضًا الشعراوي حيث قال: «والمراد بوعد الآخرة هو الإفساد الثاني لبني إسرائيل حيث قال تعالى عن إفسادهم الأول على عهد رسول اللَّه ﷺ: «وقضينا»... ثم يقول تعالى عن الإفساد الثانية لبني إسرائيل: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ وهذه الإفسادة هي ما نحن بصدده الآن»[٤].

والذي نرجحه من هذه التوجيهات هو الوجه الأخير، وأن وعد الآخرة المذكور في آخر السورة، هو عينه وعد الآخرة المذكور في أولها في قصة بني إسرائيل، وذلك للآتي:

١- أن القرآن يفسر بعضه بعضًا، وخير وسيلة لفهم النص القرآني هو عرضه على النظائر والأشباه، لا سيما في باب القصص والروايات، والتي تتوزع على السور أو على السورة الواحدة، والأمثلة على ذلك كثيرة في القرآن، ومنها مثلًا في قصة قوم لوط ورد أن اللَّه يعذبهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾[٥]، ومثل ذلك ورد في عذاب أصحاب الفيل،

(١) النكت والعيون (٣/ ٢٧٨): والذي عند مقاتل أن الوعد هو القيامة، ولعله استعمل كلمة الإقامة بمعنى القيامة.
(٢) فتح القدير (٣/ ٣١٢).
(٣) التفسير القرآني للقرآن (٨/ ٥٦٣).
(٤) تفسير الشعراوي (١٤/ ٨٧٨٨، ٨٧٨٩).
(٥) سورة هود: ٨٢.

وكلمة (سجيل) ليست مشتهرة في الاستعمال القرآني، ولكنها مفسرة في سورة أخرى، فقد ورد في عذاب قوم لوط في سورة الذاريات: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾[١]، وعلى ذلك فيجب حمل غير المشتهر على المشتهر وهو لفظ الطين، وهو ما أثبتته المعاجم.

ومنه أيضًا مجمل قوله في قصة صالح: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾[٢]، فسره قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾[٣]، ومنه أيضًا ما ذهب إليه عكرمة ومجاهد وقتادة أن معنى قوله تعالى في قصة نجاة بني إسرائيل من فرعون: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أي يابسًا[٤]، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾[٥].

فإذا صح هذا في الألفاظ التي تختلف في المبنى مع ترادفها في المعنى، فما اتحد مبناه أولى بالترادف أو اتحاد المعنى، وهذا هو الأصل، ومن أراد صرفه عن المعنى المتحد فيحتاج لدليل الصرف، وكلمة «وعد الآخرة» مذكورة بمبناها في أول السورة، وفي آخر السورة.

وقد يقول قائل: لماذا لا تحمل الأولى على معنى الثانية، ومعنى الثانية هو «قيام الساعة»؟

ونقول: إن حمل الأولى على الثانية لا يصح، لأن «وعد الآخرة» في الآية الأولى يرتب أعمالًا تقع في الدنيا وليس في الآخرة كدخول المسجد وتتبير ما

---

(١) سورة الذاريات: ٣٣.
(٢) سورة الشمس: ١٣.
(٣) سورة الشعراء: ١٥٥.
(٤) تفسير الطبري (٢١/ ٣٧).
(٥) سورة طه: ٧٧.

أقامه بنو إسرائيل، وهذه أفعال في الدنيا.

٢- أن تفسير «وعد الآخرة» بيوم القيامة ليس فيه بلاغة أو زيادة فائدة؛ لأن كل الناس سيأتي بهم اللَّه يوم القيامة، وبنو إسرائيل في العموم لا ينكرون البعث بعد الموت، فلماذا يخصهم هنا بالذكر، فلا يحسن المعنى إلا بإدخال قوم فرعون أيضًا، وكأنه يقول: جئنا بكم وبمن أراد أن يستفزكم من الأرض مجموعين.

والصواب أن الضمير في «جئنا» يعود على المذكور القريب وهو بنو إسرائيل لأنه جاء معطوفًا على «اسكنوا» والضمير في «اسكنوا» يعود على بني إسرائيل خاصة، فالحديث انتقل لبني إسرائيل، وانتهى الكلام عن فرعون وقومه بالحديث عن غرقهم.

٣- أن واقع الحال وتجمع الكثير من اليهود في أرض فلسطين منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى الآن، هو أكبر دليل يمكن الركون إليه في تفسير الآية، فقد وعدهم اللَّه أن يعيدهم إلى التجمع من بقاع الأرض، وأشار إليه «وعد الآخرة»، وهو ما يحتمل المدة والزمن، وقد أخذ الأمر قرونًا كثيرة حتى بدأ يتحقق، فهناك تناسب بين الإشارة الزمنية وبين الموعود، فيكون وعد الآخرة هو الرجوع بهم وجمعهم من الشتات، وهذه من دلائل النبوة وصدق الوحي والمخبر به.

٤- أن المتعمق في معنى كلمة «اسكنوا» لا بد أن يلحظ أن المعنى: انتشروا في الأرض، وليس مجرد طلب المعيشة التي هي بمقابل الموت والفناء، أو مطلق السكن، لأنها لو كانت بالمعنى الأخير، لما كان فيها كثير إنعام، وإنما الإنعام أن يجمعهم بعد فرقة، ويقويهم بعد ضعف، ويغنيهم بعد فقر، ويعزهم بعد ذل، أما مطلق العيش فلا معنى له هنا؛ لأنه متوقع باعتباره

فعلًا إنسانيًّا، لا أمرًا ربانيًّا.

وإذا نظرنا إلى الآيات التي ورد فيها الأمر بالسكن نجد أن أكثرها جاء على سبيل المنحة والعطية، ومن ذلك:

- قوله تعالى: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾(١).

- وقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ ﴾(٢).

- وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ ﴾(٣).

- وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ ﴾(٤).

- وقوله تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا ﴾(٥).

وعلى ذلك فالوعد الإلهي لهم بالتربص بالانتشار في الأرض حتى يأذن لهم بالاجتماع مرة أخرى، فيقع قدره المقدور.

***

(١) سورة الأعراف: ١٩.
(٢) سورة الأعراف: ١٦١.
(٣) سورة الأعراف: ١٨٩.
(٤) سورة يونس: ٦٧.
(٥) سورة الروم: ٢١.

# المبحث السابع

## «ليسوءوا ، وليدخلوا ، وليتبروا»

أخبر النص الشريف أن بني إسرائيل سيفسدون في الأرض فسادًا موصوفًا مرتين، وأن اللَّه رتب عليهم عقوبة دبر كل فساد، ولكن العقوبة المذكورة في الحالة الثانية جاءت مفصلة، ونلحظ في النظم القرآني الآتي:

١ - تنوع العقوبة، وذلك بتنوع الأفعال المعبرة عنها.

٢ - أن الأفعال جاءت بصيغة المستقبل، خلاف الأفعال التي جاءت في العقوبة الأولى والتي جاءت بصيغة الماضي.

٣- أن الآية خلت من ذكر المبعوثين باللفظ واكتفت بالإضمار.

٤ - أن العقوبة مسبوقة بوعد ووعيد، ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ ﴾.

فأما تنوع الأفعال بين الإساءة والدخول والتتبير، فيدل على أن الواقعة الثانية ستكون كبيرة وحاسمة في تاريخ بني إسرائيل، ولعلها ستكون أكبر ما يواجههم، وسنبين المقصود من كل فعل تفصيلًا.

وأما كون الأفعال جاءت بصيغة الاستقبال ففيه إشعار بالتباعد الزمني بين هذه الأحداث ووقت نزو ل الوحي، بخلاف الأفعال في العقوبة الأولى والتي جاءت بصيغة المضي للدلالة على القرب من زمن الوحي مع حتمية الوقوع بطبيعة الثبات والتحقق المستفاد من صيغة المضي.

وأما خلو الآية من ذكر المبعوثين بالاسم الظاهر، فهذا يدلل على أنهم من ذات الجنس، فهم أيضًا عباد اللَّه وهم أولو بأس، وهم أصحاب نفس القضية، وإن اختلفت ذواتهم لبعد الزمن، فقد اتفقت صفاتهم، فوقع عطف الآخر على

الأول، ورد الفرع إلى الأصل.

**وأخيرًا:** جاءت جملة الشرط فاصلة، والفصل هنا له فوائد:

١ - أنه يدل على الفاصل الزمني بين العقوبة الأولى والثانية، بخلاف إذا ما عطف بالفاء بلا فاصل، والذي إن وقع يشعر بالترتيب والسرعة.

٢ - أنه مشعر بعظم العقوبة التي ستقع بهم، ما احتاج إلى تذكيرهم مرة أخرى، بإعادة النظر في أفعالهم، وتدبر العاقبة.

٣- تكرار فعل الإحسان دون فعل الإساءة فيه مبالغة في دفعهم للفعل، وهو أسلوب فصيح في القرآن وغيره من نصوص العربية، والقصد منه الاهتمام، قال تعالى في نظيره: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾[1]، وقال في صفات عباد الرحمن: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾[2].

ومع ذلك فقد جاء تأكيد المعنى أيضًا من: الطباق أو المقابلة بين الإحسان والإساءة.

٤ - جاء النصح أيضًا بأسلوب التجريد، فالعادة أن المحسن يحسن لغيره ليظهر أثر إحسانه، فجرد السياق بأن جعل من نفس المحسن ذاتًا يقع عليها الإحسان، وهذا من باب الشفقة عليهم مما قد يحل بهم، أما في جانب الإساءة فقد جاء التجريد بالضمير دون الاسم الظاهر، وذلك ليحتمل وقوع الضرر بالمباشرة وبالتسبب.

٥- ربط الإحسان بالنفس وهي الاسم الظاهر يدل على انتفاعهم بالإحسان حال بقاء النفس، وهي حال الدنيا، ولا يتعداه إلى غيره من أحوال الآخرة؛ فالإحسان هنا يأتي بالأمان، أو بزيادة البركة في الرزق، أو بحفظ

---

(١) سورة الشعراء: ١٣٠.

(٢) سورة الفرقان: ٧٢.

النفس، وذلك أن هناك فرقًا بين قولنا: أحسنت إذ فعلت هذا، وأحسنت لنفسك إذ فعلت هذا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾[١]. فهو إحسان خاص، وبحال خاص، ومثله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾، وجعلها بمقابل، ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾[٢]، لأن إحسانهم ارتبط بالدنيا، وهي دار زوال، بخلاف إذا ما حذف الجار والمجرور فيكون عامًّا.

وهذا بخلاف النظم في حالة الإساءة، فلم يقل: وإن أسأتم أسأتم لأنفسكم، بل استعمل الضمير، وأتى بحرف ضمنه معنى حرف آخر ليدل على الكسب والنتيجة، والفعل والعقوبة، والمعنى: وإن أسأتم فعليها.

وهذا يشبه ما ورد في عقوبتهم بإرسال الرجز من السماء، ففي سورة البقرة قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾[٣]، وفي سورة الأعراف استبدل الضمير بالاسم الظاهر: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا﴾[٤]، ولما كان الضمير عامًّا جاء الفعل «أرسلنا» الذي يفيد الكثرة بمقابل الإنزال الذي يشعر بالقلة، ولذا يقال: أرسل الرسل، وأنزل الكتب، حيث إن الرسل كثرة، والكتب قلة.

فيتبين أن استعمال الضمير فيه العموم والشمول.

**أولًا: ليسوءوا وجوهكم:**

السوء لفظ عام في كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية، وهو أيضًا عام في التأثير فقد يكون حسيًّا وقد يكون معنويًّا، وقد يكون في الذات أو في الغير.

(١) سورة يوسف: ١٠٠.
(٢) سورة النحل: ٣٠.
(٣) سورة البقرة: ٥٩.
(٤) سورة الأعراف: ١٦٢.

وقد ورد لفظ السوء في القرآن على معانٍ منها:

١ - السوء بمعنى الشدة: ومنه قوله تعالى: ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾(١).

٢ - السوء بمعنى الضرر: ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾(٢).

٣- السوء كناية عن الفاحشة: ومنه قوله تعالى: ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا ﴾(٣).

٤ - السوء كناية عن مرض: ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾(٤)، والمرض هنا هو البرص.

٥ - السوء بمعنى العذاب: ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ﴾(٥).

٦ - السوء بمعنى الذنب، ومنه قوله تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾(٦).

٧- السوء بمعنى الشر، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾(٧).

٨- السوء كناية عن الكلام الرديء: ومنه قوله تعالى: ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ ﴾(٨).

---

(١) سورة البقرة: ٤٩.
(٢) سورة الأعراف: ١٨٨.
(٣) سورة يوسف: ٢٥.
(٤) سورة النمل: ١٢.
(٥) سورة الرعد: ١١.
(٦) سورة النجم: ٣١.
(٧) سورة غافر: ٥٢.
(٨) سورة النساء: ١٤٨.

٩- السوء بمعنى الخزي والهزيمة: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾[١].

أما التركيب الإسنادي: ساء وجهه، أو ساء وجه فلان، رفعًا ونصبًا، فهو وإن احتمل المعنى الحقيقي، إلا أن الغالب فيه هو المجاز، وهو كناية عن الضرر الذي يقع، وحيث إن الوجه هو الذي يواجه به الإنسان الناس عادة، وهو أيضًا أكرم ما في الجزء الظاهر من الإنسان، فإنه تنعكس عليه أحوال صاحبه سعادة وغمًّا، مرضًا وصحة.

ويقال: شاهت الوجوه، بمعنى قبحت وأصابها الخزي، ومنه قوله ﷺ في الحديث: «شاهت الوجوه»[٢]، ومنه قول المسلمين للكفار في وقعة حنين من رواية عبد الرحمن مولى أم برثن قال: «لما التقينا والمسلمون لم يقوموا لنا حلب شاة، فجئنا نهش سيوفنا بين يدي رسول اللَّه ﷺ، حتى إذا غشيناه إذا بيننا وبينه رجال حسان الوجوه، فقالوا: شاهت الوجوه فارجعوا، فهزمنا من ذلك الكلام»[٣].

ويقال: ساءت الوجوه أيضًا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[٤]، أي فلما رأوا العذاب، أو القيامة، أو الموعود حاضرًا أو قريبًا، قبحت وجوههم وأصابها الغم والحزن حتى ظهر عليها جليًّا، قال الزجاج: «تبين فيها السوء، أي ساءهم ذلك العذاب، وظهر على وجوههم سمة تدل على كفرهم»[٥].

---

(١) سورة الأحزاب: ١٧.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٤٠٢ رقم ١٧٧٧).
(٣) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ٥٨٣).
(٤) سورة الملك: ٢٧
(٥) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٢٠).

واستعمال الوجه مناسب كما قلنا لأنه ينعكس عليه حال الإنسان، وتظهر فيه النتيجة أكثر من غيره، ولذا نجد القرآن قد خصه بالذكر في سياق يوم القيامة، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾[١].

وعلى هذا يكون معنى «ليسوءوا وجوهكم» كناية ونتيجة، فهو كناية عن إنزال العقوبة الشديدة، ما ينتج عنه ظهور هذا في وجوههم، وفي مظهرهم، فيقع لهم بذلك مع ما وقع بهم من عقوبة انكسار وذلة، وهذا في التعبير أقوى من ذكر العقوبة نفسها، فهو أقوى من قول: يقتلوكم أو يسبوكم أو يهينوكم، فالتعبير بالمجاز أعطى المعنى ثراء في تصور الفعل وتصور النتيجة، في تصور العقوبة وتصور ما يترتب عليها.

وقد أشار إلى هذا جمع من المفسرين ومنهم:

- مقاتل بن سليمان: «ليقبح وجوهكم، فقتلهم وسبى ذراريهم، وخرب بيت المقدس، وألقى فيه الجيف، وقتل علماءهم، وحرق التوراة»[٢].

وعلى الرغم أننا لا نتفق أن العقوبة الثانية قد وقعت، إلا أن وصف مقاتل لما قام به أنطياخوس بن سيس الرومي، يعكس المعنى الذي يترتب عليه سوءة الوجه.

- ومنهم إمام الهدى الذي قال: «ذكر الوجه هاهنا كناية عن الحزن والهم والإهانة لهم، كما يقال في السرور: أكرم وجهه، أي أدخل فيه سرورًا، أو ذكر الوجه لما بالوجه يظهر ذلك التغير والقبح»[٣].

- ومنهم أيضًا الطوسي الذي قال: «فكأن الوجوه إنما خصت بذلك لأنها

(١) سورة آل عمران: ١٠٦.
(٢) تفسير مقاتل (٢/ ٥٢٢).
(٣) تأويلات أهل السنة (٧/ ١٠).

تدل على ما كان من تغير الوجوه من الناس، من حزن أو مسرة، وبشارة وكآبة»[١].

- قال الطبرسي: «يقال سؤته أسوءه مساءة ومسائية وسوائية، إذا أحزنته، وقيل: معناه: ليسوءوا كبراءكم ورؤساءكم، وفي مساءة الأكابر وإهانتهم مساءة الأصاغر»[٢].

- وقال الفخر: «وإنما عزا الإساءة إلى الوجوه، لأن آثار الأعراض النفسانية الحاصلة في القلب إنما تظهر على الوجه، فإن حصل الفرح في القلب ظهرت النضرة والإشراق والإسفار في الوجه، وإن حصل الحزن والخوف في القلب ظهر الكلوح والغبرة والسواد في الوجه»[٣].

- أما الألوسي فقد أشار إلى احتمال المعنى المجازي للجزء وهو الوجه، أو الكل وهو جميع الجسد، حيث قال: «أي ليجعل العباد المبعوثون آثار المساءة والكآبة في وجوهكم... فالوجوه على حقيقتها، قيل: ويحتمل أن يعبر بالوجه عن الجملة فإنهم ساءوهم بالقتل والنهب والسبي، فحصلت الإساءة للذوات كلها»[٤].

- ومنهم الطاهر بن عاشور الذي قال: «وسوء الوجوه: جَعْلُ المساءة عليها، أي تسليط أسباب المساءة والكآبة عليكم حتى تبدو على وجوهكم»[٥].

على أنني أزيد وأقول: إن ما تقع به «سوءة الوجه» ليس فقط أمرًا حسيًّا،

(١) التبيان في تفسير القرآن (٦/ ٤٤٣).
(٢) مجمع البيان (٦/ ١٦٩).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٠٢).
(٤) روح المعاني (١٥/ ١٩).
(٥) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٧).

كما أورد جمهرة المفسرين، بل إن هذا الإسناد المجازي يحتمل أكثر من العمل الحسي، فليس كل عقوبة حسية تؤدي إلى «سوءة الوجه» فقد انهزم المسلمون في أحد وقتل منهم من قتل، ومثل بالشهداء، ولم تَسُؤْ وجوه النبي والذين معه بمعنى إصابتها بالخزي، وإن أصابهم الغم والحزن.

**المقصود هنا أوسع معنى وأكثر احتمالًا، ومن ذلك مثلًا:**

- افتضاح أمرهم وانكشاف كذبهم المرة تلو المرة، وهذا ما نراه واقعًا بصورة كبيرة، لا سيما هذه الأيام التي صارت المعلومة فيها متاحة، فما أكثر ما يظهر كذب هؤلاء القوم على رءوس الأشهاد، وتواتر ذلك، حتى إنه لم يعد يصدقهم أحد حتى من حلفائهم، وهذا من «سوءة الوجوه».

- فقدان حبل الناس الذي هو معتمدهم منذ تحريف التوراة، والتنكر لرسل اللَّه وأنبيائه، فلم يعد لهم نصيب في حبل اللَّه، فصار اعتمادهم على دعم غيرهم ممن يستعملونه أو يستعملهم، ومع تغيير الأحوال يفقد هؤلاء القوم حبل الناس، ما يؤدي بهم إلى «سوءة الوجوه».

- خسارة المعركة الأخلاقية مع أعدائهم، حتى إنه لا توجد رذيلة إلا وتُتوقع منهم، فهم آلة الإباحية، والفسق، وهم المثل الأعلى في خلف الوعود، ونقض العهود، وهم النموذج الواقعي للوحشية، والإبادة وقتل الأسرى والضعفاء، وهذه صورتهم بمقابل أعدائهم، وهذا أيضًا من «سوءة الوجوه».

- ومنه أيضًا أنهم لا يحصلون على ما يحصلون عليه من داعميهم بدافع المحبة والإخلاص، ولكنه أحد أمرين: إما استغلال لهم، أو اتقاء لشرهم، بلا صديق حميم، بل الموالاة لجلب منفعة أو دفع مضرتهم، وهذا من «سوءة الوجوه».

أما قوله تعالى: «ليسوءوا» من جهة التركيب والنظم فيحتاج إلى بيان

عدة أمور:

**الأول**: جواب الشرط «فإذا».

**الثاني**: نوع اللام في «ليسوءوا».

**الثالث**: القراءات الواردة في الكلمة وتعلقها بالمعنى.

**الأول**: «إذا» هنا أداة شرط لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه، منصوب بجوابه، وشرطه في هذا السياق هو: ﴿جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، فهذه الجملة في محل جر بـ«إذا» فعلًا للشرط.

لكن أين الجواب؟

أما على قراءة: (ليسوءوا وجوهكم)، وهي قراءة الجمهور، فقد ذهب أهل اللغة والتفسير إلى أن الجواب محذوف مقدر، دل عليه الجواب الظاهر في آية الكرَّة الأولى في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ﴾، فيكون تقدير الكلام في الآية هنا: فإذا جاء وعد الآخرة بعثناهم ليسوءوا، وهذا يدل على أن المبعوثين من جنس واحد، ولو كانوا من أجناس متنوعة لأظهر الجواب.

قال الزمخشري: «فإذا جاء وعد المرة الآخرة بعثناهم»[(١)].

وجعله ابن عطية وجهًا: «وقيل المعنى بعثناهم ليسوءوا»[(٢)].

وقال ابن الجوزي: «جواب فإذا محذوف، تقديره: فإذا جاء وعد عقوبة المرة الآخرة من إفسادكم، بعثناهم ليسوءوا وجوهكم»[(٣)].

وفسر الفخر سبب الخوف بقوله: «وإنما حسن هذا الحذف لدلالة ما تقدم

---

(١) الكشاف (٢/ ٦٠٨).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٤٤٠).

(٣) زاد المسير (٣/ ١١).

عليه من قوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾»[١]، ومثله فعل النسفي[٢]، وكذلك ابن جزي الكلبي الذي قال: «إذا أفسدوا في المرة الأخيرة بعث اللَّه عليهم أولئك العباد للانتقام منهم»[٣].

وأما على قراءة (لَنَسُوءنَّ) أو (لَيَسُوءنَّ) بفتح اللام ونون التوكيد، أو (لِنَسُوءنْ) بلام الأمر ونون التوكيد الخفيفة، كما سنبينه، فهذا كله جواب «إذا» كما ذكر أبو حيان في البحر[٤]، والسمين الحلبي في الدر المصون[٥].

وعلى ذلك فباعتبار قراءة الجمهور يكون هناك تقدير يدل عليه ما ورد في آية الكرة الأولى، وباعتبار بعض القراءات الشواذ الدالة على القسم أو محمولة على الأمر يكون الجواب في هذه الجمل نفسها، وفي كلا الحالتين يشير النظم إلى ما تقع بهم العقوبة سواء بدلالة اللفظ «ليسوءوا» أو بدلالة العطف «وليدخلوا».

**الثاني: دلالة اللام في «ليسوءوا»:**

تتنوع وظيفة اللام الداخلة على الأفعال المضارعة، ومعرفة نوع اللام له فائدة في تحديد معنى الكلام، وبصفة عامة فهناك أنواع من اللامات تدخل على الفعل المضارع نذكِّر بها حتى نستطيع أن نفسر دلالة اللام في «ليسوءوا».

١- لام الجحود: وشرطها أن تكون مسبوقة بكون منفي، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾[٦]، وهذه اللام تكون مكسورة وهي

(١) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٠٢).
(٢) مدارك التنزيل (٢/ ٢٤٧).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٤٤٢).
(٤) البحر المحيط (٦/ ١٠).
(٥) الدر المصون (٧/ ٣١٧، ٣١٨).
(٦) سورة البقرة: ١٤٣.

تنصب المضارع بأن مضمرة.

٢- لام التعليل: وهي لام مكسورة أيضًا تنصب المضارع وتفيد السبب من حدوث الفعل، فتأتي بمعنى «كي»، أي تجيب على سؤال: لماذا؟ ومثالها في القرآن قوله تعالى: ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾(١).

٣- لام العاقبة: وهي لام أيضًا مكسورة تنصب الفعل المضارع، ولكنها تشير إلى المآل لا إلى المقصد، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾(٢)، أي آل إلى أن يكون عدوًّا، لا أنهم التقطوه لهذا الغرض، ومنه في قصة بني إسرائيل قول موسى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ﴾(٣)، فهي للعاقبة وليست للتعليل بالقطع لأن اللَّه لا يعطي بقصد الإضلال.

٤- لام الأمر: وهي لام مكسورة تدخل على الفعل المضارع فتجزمه، وهي تفيد الطلب والحث، فإذا سبقت بحرف عطف، سكنت، ومن أمثلتها في القرآن قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾(٤)، وقوله: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا ﴾(٥).

٥- لام القسم: وهي اللام التي تلحق المضارع في جواب القسم، وتكون مفتوحة، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم ﴾(٦).

---

(١) سورة الأنعام: ١١٣.
(٢) سورة القصص: ٨.
(٣) سورة يونس: ٨٨.
(٤) سورة آل عمران: ١٠٤.
(٥) سورة النساء: ٩.
(٦) سورة الأنبياء: ٥٧.

٦- اللام المزحلقة: وهي لام مفتوحة أيضًا، وقد تدخل على الفعل المضارع المتصرف إذا جاءت جملته خبرًا لاسم مؤكد كما في قولنا: إن محمدًا ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكونها مزحلقة لأنها انتقلت من المبتدأ إلى الخبر وأصل الكلام: لمحمد يأمر بالمعروف.

هذه هي أهم اللامات التي تدخل على المضارع أوردناها لنرى أيها أولى بالاعتبار في قوله تعالى: «ليسوءوا» و«ليدخلوا» و«ليتبروا»، ودلالة ذلك في المعنى والسياق.

أما على قراءة الجمهور فقد ذهب أكثر المفسرين واللغويين إلى أنها لام التعليل التي بمعنى كي، قال أبو جعفر النحاس: «واللام فيها لام كي»[١].

وقال أبو حيان: «وقرأ الجمهور «ليسوءوا» بلام كي»[٢].

وقال البنا الدمياطي: «والفعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي»[٣].

أما ابن عطية فقد ذكر فيها وجهين ثانيهما أنها لام كي، وأولهما أنها لام الأمر حيث قال: «وقوله «ليسوءوا» اللام لام أمر»[٤]، والذي دفعه إلى هذا الاحتياط من التقدير، إذ القول بلام التعليل يقتضي تقدير جواب «إذا» محذوفًا.

وقد أنكر الطاهر ابن عاشور هذا التوجيه حيث قال: «ولامات «ليسوءوا»، و«ليدخلوا»، و«ليتبروا» للتعليل، وليست للأمر لاتفاق القراءات المشهورة على كسر اللامين الثاني والثالث، ولو كانا لَامَيْ أَمْرٍ لكانا ساكنين بعد واو

(١) إعراب القرآن (٢/ ٢٦٦).
(٢) البحر المحيط (٦/ ١٠).
(٣) إتحاف فضلاء البشر (ص ٣٥٥).
(٤) المحرر الوجيز (٣/ ٤٤٠).

العطف»[١].

قلت: لا يلزم السكون وإن كان هو الأكثر في المسبوق بالواو والفاء، قال ابن هشام: «وأما اللام العاملة للجزم فهي اللام الموضوعة للطلب، وحركتها الكسر وسليم تفتحها، وإسكانها بعد الفاء والواو أكثر من تحريكها»[٢]. وقد خرج العكبري قراءة: (وَلِيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ)[٣]، بكسر اللام[٤].

قال العكبري: «يقرأ بكسر اللام لأنها تكسر مع غير الواو، كقولك: ليحكم زيد، وأخرجت على ذلك»[٥].

ومع ذلك فحمل اللام على التعليل أقرب للمعنى من جهة النظم، وهو ما جاءت عليه الآية الأولى، كما أنه يقدم السبب والنتيجة.

وأما على قراءة (لنسوءن)، (ليسوءن) بنون التوكيد الخفيفة والثقيلة فهي لام القسم[٦]، فيكون القسم هو جواب الشرط في أول الآية، لأن فيه الخبر والإلزام.

وبالجملة نستطيع أن نقول: إن المرجح على حسب القراءات أن اللام في «ليسوءوا» باختلاف القراءات، أنها إما تعليلية، وإما جواب القسم، ويقل اعتبارها للأمر، وأن اللام في «وليدخلوا» «وليتبروا» يعظم أنها تعليلية،

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٦).

(٢) مغني اللبيب (١/ ٢٤٩)، وانظر حروف المعاني (ص ٤٦)، والجنى الداني (ص ١١١)، قال: «ويجوز إسكانها بعد الواو والفاء وهو أكثر من تحريكها».

(٣) سورة المائدة: ٤٧.

(٤) قال أبو حيان: وقرأ الجمهور بلام الأمر ساكنة، وبعض القراء يكسرها. البحر المحيط (٣/ ٥١١).

(٥) إعراب القراءات الشواذ (١/ ٤٤٠).

(٦) البحر المحيط (٦/ ١٠).

ويحتمل أنها للأمر.

وإذا اعتبرنا وجه الأمر في اللامات، فإن الفعل يأخذ حكم التكليف على العباد الموصوفين، فلا بد أن يجتهدوا في تحقيقه، ويكون وجوبه كفائيًّا، وإن اعتبرنا وجه التعليل فهو خبر للعباد لا يتأثمون بتراخي فعله وتحصيله، لأنه خبر الصادق، وإن اعتبرنا معنى القسم فهو تأكيد للخبر لمن يزايله الشك في وقوعه، وإن تباعد الزمن بين الإفساد والعقوبة.

**الثالث: القراءات الواردة في كلمة «ليسوءوا» وتعلقها بالمعنى:**

وردت عدة قراءات في كلمة «ليسوءوا» ما بين سبعية وعشرية وشاذة وسنذكرها هنا اختصارًا:

١- قرأ الجمهور (ليسوءوا) بياء الغيبة، والهمز وواو الجميع، وهؤلاء هم نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر ويعقوب[١].

٢- وقرأ ابن عامر وشعبة وحمزة وخلف من العشرة والأعمش وابن وثاب، وقيل هي في مصحف أنس (ليسوء) بياء الغيبة والهمزة مفتوحة، على الإفراد[٢].

وقرأ الكسائي من العشرة وعلي بن أبي طالب وحفيده زيد بن علي (لنسوء) بالنون وهمزة مفتوحة[٣].

وقرأ أبي بن كعب (لِنسوءنْ) بلام مكسورة وبنون العظمة، والهمز مع نون التوكيد الخفيفة[٤].

---

(١) السبعة (٣٧٨)، حجة القراءات (٣٩٧)، النشر (٢/ ٣٠٦).

(٢) السبعة (٣٧٨)، حجة القراءات (٣٩٧)، النشر (٢/ ٣٠٦)، البحر المحيط (٦/ ١٠)، إتحاف فضلاء البشر (ص ٣٥٥).

(٣) المراجع السابقة.

(٤) البحر المحيط (٦/ ١٠)، الدر المصون (٧/ ٣١٧).

وقرأ علي بن أبي طالب بوجهين: (لَيسوءنَّ)، (لنسوءنَّ) وكلاهما بنون التوكيد الثقيلة، وفتح اللام على القسم[١].

وفي مصحف أبي بن كعب (لِيُسيء) بلام مكسورة، وياء الغيبة مضمومة وياء بدل الواو مفتوحة[٢].

وأما باقي القراءات فأغلبها ظواهر صوتية لا صرفية أو نحوية.

فإذا ما جئنا لقراءة الجمهور «ليسوءوا» فالفاعل هنا لا بد وأن يعود على العباد المذكورين في آية الكرَّة الأولى، ويكون التقدير: فإذا جاء وعد الآخرة بعثنا ذات العباد ليسوءوا وجوهكم[٣]، فتكون القراءة موحدة بين المرسلين، وقد قلنا من قبل إن هؤلاء العباد هم المسلمون.

وأما قراءة ابن عامر ومن معه (لِيَسُوءَ) فالفاعل هنا محتمل لعدة توجيهات:

١ - أن يكون الفاعل هو لفظ الجلالة والتقدير: «ليسوء اللَّه وجوهكم».

٢ - أن يكون الفاعل هو عين الوعد والتقدير: «ليسوء الوعد وجوهكم».

٣ - أن يكون الفاعل هو لازم الوعد والتقدير: «ليسوء العذاب وجوهكم».

٤ - أن يكون الفاعل عائدًا على العباد أيضًا والتقدير: «ليسوء العدو وجوهكم».

وبكل هذه الوجوه وردت تخريجات العلماء[٤]، والمرجح أنه عائد على

(١) البحر المحيط (٦/ ١٠)، الدر المصون (٧/ ٣١٧).

(٢) المراجع السابقة.

(٣) راجع تفسير الآية فيما أشرنا إليه من تفاسير سابقًا.

(٤) انظر في هذا مثلًا: الكشف والبيان للثعلبي (٦/ ٨٥)، معالم التنزيل للبغوي (٥/ ٨٠)، الكشاف للزمخشري (٢/ ٦٠٨)، زاد المسير لابن الجوزي (٣/ ١١)، مفاتيح الغيب للرازي (٢٠/ ٣٠٢)، البحر المحيط (٦/ ١٠)، الدر المصون (٧/ ٣١٧، ٣١٨).

لفظ الجلالة وذلك للآتي:

١- أن اللَّه تعالى أسند الفعل إلى نفسه في آية الكرَّة الأولى ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ وفي الآية التي تليها: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ﴾. فيكون هذا من ذاك.

٢- أن اللَّه سبحانه أورد في كتابه الشركة بين فعل المؤمنين وفعله، ومنه قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾[1].

٣- أنه مناسب أيضًا لاستعمال الضمائر في الآية التي تليها وهي منسوبة للَّه سبحانه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾[2].

٤- أن هذا التوجيه متفق أيضًا مع معظم القراءات الأخرى، فيكون أولى من غيره، ومن هذه القراءات (لنسوء)، و(لنسوءن) بالتخفيف والتشديد.

والترجيح الثاني أنه عائد على العباد أيضًا، لأن إفراد الفعل مع جمع فاعله هو الأصل في اللغة، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾[3]، فجمع بين الفاعل المفرد والجمع، ويدل عليه إظهار الفاعل العائد على العباد في المعطوف، «وليدخلوا»، «وليتبروا»، فيكون العطف قرينة على المحذوف المقدر.

وأما قراءة (لنسوءَ) فالنون في أوله نون العظمة وهي عائدة على اللَّه سبحانه وتعالى، وتكون الضمائر التالية على سبيل الالتفات من المتكلم إلى

(١) سورة التوبة: ١٤-١٥.
(٢) سورة الإسراء: ٨.
(٣) سورة البقرة: ٢١٤.

الغائب، ونون العظمة كما قلنا موافقة للضمير «نا» في «بعثنا» و«رددنا» و«أمددنا» و«جعلنا»، ومع ما بعده من «عدنا» و«جعلنا».

وأما قراءة (ليُسيء) فالفاعل فيها هو عين ما ذكرناه في قراءة ابن عامر ومن معه، فهو محتمل لتقدير لفظ الجلالة، أو الوعد، أو العذاب، أو العدو، وتكون الضمائر من بعد على الالتفات أيضًا.

وأما قراءة أبي (لِنسوءنْ) بكسر اللام ونون التوكيد الخفيفة، ونون العظمة في أوله، فالفاعل هو اللَّه، واللام هي لام الأمر، ودخلت لام الأمر على فعل المتكلم كما في قوله تعالى: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾[1]، ويكون التقدير: فإذا جاء وعد الآخرة فلنسوءن وجوهكم، وحذفت الفاء[2]، وهنا تكون جملة «فلنسوءن» هي جواب الشرط.

وأما قراءتا (لَيَسُوءنَّ)، (لَنَسُوءنَّ) بنون التوكيد الثقيلة وفتح الياء في أوله، فاللام هنا لام القسم، والفاعل هو اللَّه ﷻ، وتكون جملة جواب القسم، سادة مسد جواب الشرط.

هذه أهم القراءات التي وردت في هذه الكلمة، ومنها نخلص إلى أن الفاعل محتمل، ولكن الأرجح فيه هو اللَّه ﷻ، أو العباد الذين عينهم اللَّه ووصفهم بـ«عبادًا لنا»، وقد دللنا على ذلك فيما سبق، فيبقى المعنى متوجهًا إلى أن الفعل هو للمسلمين لا لغيرهم.

### ثانيًا: وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة:

ذكرنا فيما سبق توجيه اللام في قوله «ليسوءوا» على قراءاتها المختلفة، وذكرنا أنها تحتمل التعليل والقسم والأمر بمجموع القراءات، أما «وليدخلوا»

---

(١) سورة العنكبوت: ١٢.

(٢) البحر المحيط (٦/ ١٠)، الدر المصون (٧/ ٣١٧)، روح المعاني (١٥/ ١٩، ٢٠).

فليس فيها إلا هذه القراءة.

واللام هنا على رأي الجمهور هي لام كي، وذلك باعتبار أن لام «ليسوءوا» للتعليل أيضًا، أما على اعتبار اللام في «ليسوءوا» لام أمر أو لام قسم على اختلاف القراءات، فلام «وليدخلوا» محتملة كما نقل ذلك السمين بقوله: «ومن جعلها لام أمر كأبي، أو لام قسم كعلي بن أبي طالب فاللام في «ليدخلوا» تحتمل وجهين: الأمر والتعليل»[١].

هذا من جهة الإعراب، أما من جهة المعنى، فقد اختلف المفسرون في تحديد المقصودين بالضمير في «وليدخلوا»، وهذه أهم توجيهاتهم:

**الأول**: أنهم يختلفون عن العباد الداخلين أول مرة جنسًا ودينًا، وهذا ما نفهمه من تفسير مقاتل بن سليمان[٢]، ويحيى بن سلام الذي ينقل عن سعيد ابن جبير قوله: «سعيد عن قتادة قال: أي كما دخله عدوهم قبل ذلك»[٣]، وكذلك الطبري حيث قال: «وليدخل عدوكم الذي أبعثه عليكم مسجد بيت المقدس قهرًا منهم لكم وغلبة»[٤]، والطبرسي الذي قال: «ومعناه: وليدخل هؤلاء المسجد كما دخله أولئك أول مرة»[٥]، ومن هؤلاء أيضًا الألوسي الذي فسره بقوله: «أي دخولًا كائنًا كدخولهم إياه»[٦].

**الثاني**: أنهم هم العباد الذين دخلوا أول مرة:

ذكر ذلك إمام الهدى وجهًا حيث قال: «في ظاهر الآية أن يدخل الأولون

---

(١) الدر المصون (٧/ ٣١٨).
(٢) تفسير مقاتل (٢/ ٥٢٢).
(٣) تفسير يحيى بن سلام (١/ ١١٧).
(٤) تفسير الطبري (١٤/ ٥٠٤).
(٥) مجمع البيان (٦/ ١٦٩).
(٦) روح المعاني (١٥/ ٢٠).

المسجد في المرة الثانية كما دخلوا في المرة الأولى؛ لأنه قال: ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾»[١].

وقد ذكرنا من قبل رأي ابن أبي حاتم في تفسير قوله تعالى: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾، وأنه ذكر أن العقوبتين وقعتا من البابليين ولكن على مرتين متتابعتين، وأن البابليين لم ينتصروا في الأولى نصرًا كاملًا، فعادوا في المرة الثانية بقيادة بختنصر ودخلوا المدينة المقدسة، وفعلوا الموصوف في آية الكرة الثانية[٢]، ويرد على هذا التوجيه قوله تعالى: ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وقد رد غير واحد هذا التفسير، ومنهم الطبرسي الذي قال: «﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ دل بهذا على أن في المرة الأولى قد دخلوا المسجد أيضًا، وإن لم يذكر ذلك»[٣]. وكذلك أبو حيان الذي قال: «ومعنى ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي بالسيف والقهر والغلبة والإذلال، وهذا يبعد قول من ذهب إلى أن أولى المرتين لم يكن فيها قتل ولا قتال ولا نهب»[٤].

ومن الذين ذهبوا إلى ذلك أيضًا الإيجي الشيرازي، في جامع البيان حيث قال: «﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: كما خربوا أولًا بيت المقدس بعثناهم ليخربوا ثانيًا»[٥].

أما الثعالبي فقد اعتمد على عود الضمير فقال: ««وليدخلوا»... والضمير للعباد أولي البأس الشديد»[٦].

---

(١) تأويلات أهل السنة (٧/ ١٠).
(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٣١٨).
(٣) مجمع البيان (٦/ ١٦٩).
(٤) البحر المحيط (٦/ ١١).
(٥) جامع البيان للإيجي (٢/ ٣٧٧).
(٦) الجواهر الحسان (٣/ ٤٥٤).

ومنهم أيضًا الأعقم الذي ذكره وجهًا حين قال: يحتمل أن يكون القوم في الكرتين واحدًا والمدة بينهما قريبة، فلا مانع.

ومن المحدثين نجد الطباطبائي الذي يقول: «وأن قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ مشعر برجوع ضمير الجميع إلى ما تقدم من قوله: ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾»[(١)]. وتابعه في ذلك حسين فضل اللَّه حين قال: «وقد نستوحي من هذا التعبير أن المهاجمين أولًا هم المهاجمون ثانيًا»[(٢)].

**الثالث:** أنهم ليسوا المذكورين في المرة الأولى ولكنهم من جنسهم ودينهم:

وهذا التفسير ما صرح به الشيخ الشعراوي حين قال: «المتأمل في العبارة -«كما دخلوه أول مرة»- يجد أن دخول المسلمين للمسجد الأقصى أول مرة كان في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولم يكن الأقصى وقتها في أيدي اليهود... لكن هذه المرة سيكون دخول الأقصى وهو في حوزة اليهود»[(٣)].

ومن الذين ذكروا وجهًا يؤيد هذا التفسير من القدامى نجد إمام الهدى حين قال: «لكن يحتمل ليدخل عباد آخرون المسجد في المرة الثانية، كما دخل الأولون في المرة الأولى»[(٤)]، ويكون الجامع بينهما وصف «العباد»، ومثله الطوسي حيث قال: «كما دخلوه في المرة الأولى يعني غيرهم، لأن هؤلاء بأعيانهم لم يدخلوها في الدفعة الأولى»[(٥)].

وبين الأعقم العلاقة بين الداخلين في المرتين بقوله: وإنما أضاف

(١) الميزان في تفسير القرآن (١٣/ ٤٥).
(٢) من وحي القرآن (١٤/ ٣٥).
(٣) تفسير الشعراوي (١٤/ ٨٣٦٤).
(٤) تأويلات أهل السنة (٧/ ١٠).
(٥) التبيان في تفسير القرآن (٦/ ٤٤٤).

الدخول أول مرة إلى هؤلاء، وإن كان بين الدخولين مدة عظيمة؛ لأنهم كانوا في ذلك الوقت راضين بفعلهم، والرضا من الثاني عن الأول يقع علينا نحن المسلمين، وليس بين الروم والفرس، أو الفرس والفلسطينيين العماليق، حيث لم يكن هؤلاء على وفاق أو دين واحد.

يقول الشيخ عبد المعز عبد الستار: «أن المرة الأولى كانت على عهد رسول اللَّه ﷺ وأصحابه، والآخرة: هي التي نحن فيها الآن، والتي ستسوء فيها وجوههم، وندخل المسجد كما دخلناه أول مرة»(١).

**الرابع**: أن المقصود هنا هم بنو إسرائيل أنفسهم:

وهذا ما ذهب إليه الشيخ محمد أبو زهرة حيث قال: «وليدخلوا المسجد كما دخلوه، أي ليدخلوه بعد أن أخرجوا منه، إذ أخرجهم الرومان، وأخرجهم المؤمنون، فكان من عهد عمر لأهل إيلياء ألا يدخل عليهم اليهود، وقد دخلوه أول مرة حتى أفسدوا فيه، فأخرجهم منه على أيدي النصارى والمسلمين»(٢).

والحق أن هذا تفسير غريب من جهة اللغة ومن جهة المعنى، وفيه مآخذ منها:

١- أن نسق ونظم الضمائر لا يساعد المعنى المقصود، فالشيخ أبو زهرة ذكر أن الضمير في «ليسوءوا» يعود على الذين يخرجون بني إسرائيل، ثم عاد وذكر أن الضمير في «وليدخلوا» يعود على بني إسرائيل أنفسهم، وهذا فيه تناقض.

٢- أنه رتب العقوبة على إساءتهم حيث قال: «فإذا جاء وعد الآخرة بعد أن أسأتم...»، فكيف لهم دخول المسجد في حال العقوبة؟!

---

(١) مجلة الأزهر، الجزء السادس «المجلد الثامن والعشرون» عدد جمادى الآخرة ١٣٧٦هـ.
(٢) زهرة التفاسير (٨/ ٤٣٣٩).

٣- أن هذا التفسير يقتضي أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا.

٤- أن مقتضى التفسير أن يكون الكلام مع بني إسرائيل بضمير المخاطب: ليسوءوا وجوهكم، ولتدخلوا.. ولتتبروا. وهذا لم يقرأ به في أي قراءة.

والذي نرجحه هنا هو الرأي الثالث، الذي يقول: إن الداخلين ليسوا هم الأولين بذواتهم، وإنما هم تبع لهم جنسًا ودينًا، ودليلنا على ذلك الآتي:

١- عطف «وليدخلوا» على «ليسوءوا» فيكون الفاعل في الفعلين هو واو الجماعة والتي تعود على «العباد» كما بينا من قبل، ولكن لما علم من وقائع التاريخ أن هناك زمنًا متطاولًا بين الحدثين، حملنا الفاعل الثاني على جنس الأول لا ذاته.

٢- ورود كلمة المسجد في السياق، «وليدخلوا المسجد» وهي كلمة لها دلالة خاصة عند المسلمين، ولو كان المقصود به مكان عبادة اليهود لسماه بالمعبد أو المحراب كما ورد في المنقول في القرآن، ومنه قوله تعالى في سليمان: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ ﴾[1]، وفي مريم: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾[2]، وفي زكريا: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ ﴾[3]، وفيه: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ ﴾[4]، وفي قصة الخصمين مع داود قال تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴾[5]، وهو مكان عبادة داود، وقد كانت مساجد بني إسرائيل تسمى

(١) سورة سبأ: ١٣.
(٢) سورة آل عمران: ٣٧.
(٣) سورة آل عمران: ٣٨.
(٤) سورة مريم: ١١.
(٥) سورة ص: ٢١

المحاريب، قال السدي: «المحراب: المصلى»[١]، وقال السمرقندي في بحره: «وقد قيل إن مساجدهم كانت تسمى المحاريب»[٢]، وقال البغوي: «وكذلك هو- أي المحراب- من المسجد، ويقال للمسجد: محراب، قال المبرد: لا يكون المحراب إلا أن يرتقى إليه بدرجة»[٣]، وقال الزمخشري: «وقيل المحراب أشرف المجالس ومقدمها، كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس، وقيل: كانت مساجدهم تسمى المحاريب»[٤]. وقال ابن جزي الكلبي: «وقيل المحراب موضع العبادة»[٥]. وقال الألوسي: «وقيل: المراد به المسجد، إذ قد كانت مساجدهم تسمى المحاريب»[٦].

قلت: ويشهد له قول عمر بن أبي ربيعة[٧]:

ذكرتني من بهجة الشمس لما طلعت بين دجنة وسحاب

دمية عند راهب قسيس صوروها في مذبح المحراب

فالمحراب هنا هو الكنيسة أو البيعة، والمذبح هو المكان الذي تقدم فيه القرابين.

وعلى ذلك فلا يعرف المسجد في التراث اليهودي أو الإسرائيلي، أو في التوراة ولا حتى في التناخ، فتكون الإشارة هنا إلى من اشتهر عندهم استعمال كلمة المسجد، وهم المسلمون.

---

(١) تفسير ابن المنذر (١/ ١٨١).
(٢) بحر العلوم (١/ ٢٣٥).
(٣) معالم التنزيل (٢/ ٣٢).
(٤) الكشاف (١/ ٣٨٦).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ١٥٠).
(٦) روح المعاني (٣/ ١٣٩).
(٧) الأبيات في المحاسن والأضداد للجاحظ (ص ٢٨٩)، وتاريخ دمشق (٦٩/ ٨٤).

والمسجد في الأصل هو مكان السجود والعبادة، قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾[١]، أي مكانًا للعبادة، أي مقامًا يشبه مقامات الأولياء.

قال الزبيدي: «والمسجد اسم جامع حيث سُجد عليه»[٢]، واستدلوا لذلك بقوله ﷺ: «وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»[٣]. أي موضعًا للصلاة.

وقد يقول قائل: لماذا لا تحمل كلمة «مسجد» هنا على هذا الأصل اللغوي؟ ويكون المعنى: وليدخلوا موضع العبادة.

وأقول: لا يمكن حمله على موضع العبادة هنا للآتي:

١- أن «أل» هنا إما للجنس، أو للعهد، فإن كانت للجنس فلا بد أن تنصرف إلى المكان الذي يسمى مسجدًا، فالمسجد جنس بمقابل الكنيسة، وبمقابل المعبد، ولا يحمل أحدهما على الآخر مع استقرار المعاني، وهذا الجنس هو المشار إليه في القرآن بمقابل غيره، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾[٤].

وإن كانت للعهد: فهو إما ذكري، وإما ذهني، فأما الذكري فالمسجد المذكور من قبل، والذي يتقاطع مع قصة بني إسرائيل، هو المسجد الأقصى في أول السورة: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى

(١) سورة الكهف: ٢١.
(٢) تاج العروس سجد.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٥).
(٤) سورة الحج: ٤٠.

﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾[١]، والمسجد الأقصى باسمه وجد من قديم كما في حديث أبي ذر عند البخاري وفيه: «قلت يا رسول اللَّه، أي مسجد وضع أول؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: ثم المسجد الأقصى، قلت: كم كان بينهما؟ قال: أربعون»[٢]، وقد بينا هذا في المبحث الأول.

وإن كان العهد الذهني فكلمة المسجد كلمة مميزة خاصة بالمسلمين، وليس لها نظير في اللغات الأخرى، بل الكل أخذها من أصلها الإسلامي؛ فهو في الإنجليزية: «Mosque»، وفي الفرنسية «Mosquee»، وهو بالإسبانية القديمة «Mezquite»، وكلها تسربت للغات اللاتينية من التراث الإسلامي في الأندلس.

وكلمة المسجد في المعهود الإسلامي تنصرف إلى المكان المخصص للعبادة والذي تقام فيه الشعائر كالصلوات الخمس والجمعة والجماعة وصلاة التراويح، ولا يطلق على البقعة التي فيها السجود إلا من قبيل اللغة، ولذا فمن قال: للَّه على أن أعتكف في المسجد، لم يسعه إلا البر بالاعتكاف في ذلك المكان المخصوص، ولا ينفعه الاعتكاف في مصلاه في البيت.

وقد وردت كلمة المسجد بلفظها المفرد والمجموع في القرآن ٢٨ مرة، وهي في مجملها تدل على المعهود الذهني.

ومن هذا فكلمة «المسجد» هنا لها دلالة خاصة مرتبطة بالإسلام والمسلمين، ولا تحمل على مكان عبادة اليهود، كما ظن البعض، ولا على مطلق المعنى اللغوي.

٣- ومن الأدلة أيضًا قوله تعالى: ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، فالكاف

---

(١) سورة الإسراء: ١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٤٢٥).

للتشبيه، و«ما» والفعل في تأويل مصدر، والمعنى: كدخولهم الأول، والكاف وما بعدها في محل نصب صفة لمصدر محذوف، وتقدير الكلام: وليدخلوا المسجد دخولًا مثل دخولهم الأول.

وهذا الدخول كي يقع يقتضي خروجًا أولًا، حتى يقع الدخول الثاني، ليس هذا فقط، بل لا بد وأن يصاحبه غزو وقتال ليقع معنى الآية، فتقع الإساءة والدخول والتتبير.

وهذا ما أشار إليه الطاهر بن عاشور والشعراوي في تفسير الآية.

والدخول الأول للمسلمين وقع في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبقي المسجد في أيديهم حتى جاء الصليبيون وأخذوا المسجد عنوة وأخرجوا المسلمين، واسترده منهم المسلمون بعد موقعة حطين، وتنازل الكامل الأيوبي من بعد إداريًّا لملك ألمانيا فريدريك الثاني عن بيت المقدس، واستثنى المسجد الأقصى ومساجد المسلمين، واستمر الأمر حتى استرد الصالح أيوب بن الكامل مدينة بيت المقدس بمعاونة عشرة آلاف من الخوارزميين، وطردوا الصليبيين، واستمرت المدينة تحت حكم الأيوبيين والمماليك والعثمانيين حتى جاء الاحتلال البريطاني لفلسطين سنة ١٩١٧م، واستمر حتى إنهاء حماية بريطانيا على فلسطين في ١٤ مايو ١٩٤٨، وانتقلت المدينة المقدسة ومعها المسجد الأقصى للإدارة الأردنية حتى هزيمة ١٩٦٧م، حين احتلت إسرائيل القدس الشرقية والضفة، ولم يبق للأردن إلا إدارة الوقف القدسي.

وقد يقول قائل: لماذا لا يعد دخول المسلمين في عهد صلاح الدين هو المشار إليه في الآية؟ والجواب أن السياق يتحدث عن استرداد المدينة والمسجد من بني إسرائيل لا من غيرهم، بعد أن يفسدوا فيها وفي غيرها،

والسياق التاريخي يقول: إن المسجد والمدينة لم تخرج من يد المسلمين لليهود إلا في سنة ١٩٦٧، فيكون هذا هو المقصود.

٤- أن المتأمل في السياق يلحظ وجود علاقة وعد ووعيد، وأن طرفي الوعد والوعيد هما العباد وبنو إسرائيل، وأن الوعد يقع لطرف بالطاعة أو التمكين، والوعيد يقع على الطرف الثاني بالمعصية واستحقاق العقوبة، فكما وقع الوعد لبني إسرائيل، وقع لنا مثله، وكما وقع الوعيد على بني إسرائيل وقع علينا مثله، فالمدافعة بين طرفين لا أطراف متنوعة، ودليل ذلك نسق الضمائر فكلها تدور على ضميرين، «أنتم»، و«هم»، أما أنتم ففي «لتفسدن، لتعلن، عليكم، لكم، أمددناكم، جعلناكم، أحسنتم، أسأتم»، وأما هم ففي: «فجاسوا، ليسوءوا، ليدخلوا، دخلوه، ليتبروا» كل هذا ارتبط باسمين ظاهرين فقط، «بنو إسرائيل وعباد اللَّه».

## ثالثًا: وليتبروا ما علوا تتبيرًا:

الأصل في التتبير هو الفعل: تَبَر يتبُر، ويتبِر ضمًّا وكسرًا، ومصدره تبرًا، وفاعله تابر، ومفعوله متبور، والفعل بمعنى هلك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾[1]، أي هلاكًا ويسمى فتات الذهب تِبرًا بكسر التاء لأنه مكسر، فهو في معنى المهلك.

وتبَّر بالتشديد فيها نفس المعنى إلا أنها متعدية وتطلب مفعولًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾[2]، أي تبرنا كلًّا، والمعنى أهلكنا.

وقد وردت مادة تبر بتصريفات في القرآن الكريم، وكلها تدل على المعنى

(١) سورة نوح: ٢٨.
(٢) سورة الفرقان: ٣٩.

الأساسي وهو الإهلاك، وقد تدل على الطريقة من خلال التوكيد بالمصدر، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[١].

﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾.

ولا تبعد تفسيرات المفسرين للآية عن المعنى اللغوي للكلمة وما تصرف منها، وها هي أهم تفسيراتهم.

زيد بن علي: «معناه: وليدمروا ويخربوا ما غلبوا عليه تدميرًا»[٢].

مقاتل بن سليمان: «وليدمروا ما علوا، يقول: ما ظهروا عليه تدميرًا»[٣].

أبو عبيدة: «وليدمروا»[٤].

الهواري: «أي: وليفسدوا ما غلبوا عليه فسادًا»[٥].

الطبري: «فإنه يقول: وليدمروا ما غلبوا عليه من بلادكم تدميرًا، يقال منه: دمَّرت البلد: إذا خربته وأهلكت أهله، وتبَر تبْرًا، وتبَّرْته أتبِّره تتبيرًا، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾»[٦].

ابن أبي حاتم: «عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: تبَّرنا دمرنا بالنبطية»[٧].

---

(١) سورة الأعراف: ١٣٩.
(٢) غريب القرآن لزيد بن علي (ص ٢٤٧).
(٣) تفسير مقاتل (٢/ ٥٢٢).
(٤) مجاز القرآن (١/ ٣٧٠).
(٥) تفسير الهواري (٢/ ٤٠٩).
(٦) تفسير الطبري (١٤/ ٥٠٤).
(٧) تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٣١٨).

السمرقندي: «يقول: وليخربوا ما ظهروا عليه، تتبيرًا: أي هلاكًا»[١].

الثعلبي: «وليهلكوا أو ليدمروا»[٢].

الماوردي: «فيه تأويلان: أحدهما: أنه الهلاك والدمار، والثاني: أنه الهدم والإخراب، قاله قطرب، ومنه قول لبيد:

وما الناس إلا عاملان فعامل يتبِّر ما يبني وآخر رافع»[٣].

الطوسي: «فالتبار والهلاك والدمار واحد»[٤].

الواحدي: «وليدمروا ويخربوا ما غلبوا عليه»[٥].

الطبرسي: «أي: وليدمروا ويهلكوا ما غلبوا عليه من بلادكم تدميرًا»[٦].

الرازي: «والمعنى: وليدمروا ويخربوا ما غلبوا عليه»[٧].

العز بن عبد السلام: «يهلكوا، ويدمروا، أو يهدموا ويخربوا»[٨].

النسفي: «أي: ليهلكوا كل شيء غلبوه واستولوا عليه»[٩].

ابن جزي الكلبي: «من التبار، وهو الإهلاك وشدة الفساد... أي يهلكوا ما غلبوا عليه من البلاد»[١٠].

---

(١) بحر العلوم (٢/ ٣٠٢).
(٢) الكشف والبيان (٦/ ٨٥).
(٣) النكت والعيون (٣/ ٢٣١).
(٤) التبيان في تفسير القرآن (٦/ ٤٤٤).
(٥) الوجيز للواحدي (ص ٦٢٨).
(٦) مجمع البيان (٦/ ١٦٩).
(٧) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٠٢).
(٨) تفسير العز بن عبد السلام (١/ ٥٨٧).
(٩) مدارك التنزيل (٢/ ٢٤٧).
(١٠) التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٤٤٢).

الثعالبي: «وتبَّر معناه أفسد بغشم وركوب رأس»(١).

محمد بن يوسف إطفيش: «أي يهلكون فالتشديد للتعدية، يقال: تبَر بالتخفيف بمعنى هلك، وتبَّره بالتشديد بمعنى أهلكه، وإن جعلناه من تبر المخفف المتعدي كان التشديد للتأكيد، ومن المخفف المتعدي لفظه متبورًا، فإنه اسم مفعول تبر الثلاثي وفيه ضمير مستتر»(٢).

القاسمي: «أي يدمروا ما علوا تتبيرًا أي عظيمًا فظيعًا»(٣).

المراغي: «وليهلكوا ما ادخرتموه وخزنتموه تتبيرًا شديدًا، فلا يبقون منه شيئًا»(٤).

سيد قطب: «وهي صورة للدمار الشامل الكامل الذي يطغى على كل شيء والذي لا يبقي على شيء»(٥).

الشعراوي: «أي يهلكوا ويدمروا ويخربوا ما أقامه اليهود وما بنوه وشيدوه من مظاهر الحضارة التي نشاهدها الآن عندهم»(٦).

محمد سيد طنطاوي: «وليدمروا ويخربوا البلاد والأماكن التي علوا عليها، وصارت في حوزتهم تدميرًا تامًّا لا مزيد عليه»(٧).

هذه هي أهم توجيهات المفسرين عبر العصور، وكلها تسير مع المعنى اللغوي لكلمة تبَّر، وتشير إلى أن التتبير بصورته أو بصوره وقع بصورة شديدة

---

(١) الجواهر الحسان (٣/ ٤٥٤).
(٢) هيميان الزاد إلى دار المعاد (٩/ ٢/ ٩٠).
(٣) محاسن التأويل (٦/ ٤٤٣).
(٤) تفسير المراغي (١٥/ ١٥).
(٥) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢١٤).
(٦) تفسير الشعراوي (١٤/ ٨٣٦٥).
(٧) التفسير الوسيط (٨/ ٢٩٥).

دل عليها التوكيد بالمصدر.

والذي نراه أن استعمال كلمة «وليتبروا» هنا له دلالة خاصة، ليس بالضرورة أنه القتل والإهلاك والتدمير الحسي الذي أشار إليه معظم المفسرين.

وبيان ذلك أن الفساد والإفساد الذي سيقوم به بنو إسرائيل في المرة الثانية أوسع نطاقًا، وأشد أثرًا من الإفساد الأول، ولذلك جاءت عقوبته متنوعة وغليظة، وهي تقوم على ثلاثة أركان:

١ - الإهانة والخذلان الذي سيلحق بهم «ليسوءوا وجوهكم».

٢ - استرداد الأرض المحتلة وعبر عنها بأشرف ما فيها وهو المسجد.

٣- تفكيك منظومة الفساد وأسباب القوة المادية لبني إسرائيل.

فالمقصود بالتتبير هنا هو التفكيك، وتدمير أسباب القوة والسطوة، وهذا المعنى متوافق مع المعنى اللغوي لتبَّر أيضًا، لأن من معاني تبَّر: كسَّر، ومنه تكسير الزجاج وتحويله لقطع صغيرة هنا وهناك.

والذي يدعونا إلى هذا التفسير ما يلي:

١ - أن الآية التالية تقول: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ ﴾، فهي تدل بدلالة المفهوم أن ما سيقع لن يقضي على بني إسرائيل جملة كما ذهب جمهور المفسرين، وإن أشار إلى أنه لن تقوم لهم دولة أو يقوم لهم ملك مثل ما كان. وتفسير التتبير بالقتل والإبادة لا يتفق مع دلالة المفهوم للآية التالية.

٢ - أننا نزعم أن من يقوم بهذا هم المسلمون، وليس من أخلاق المسلمين لا في حرب ولا سلم أن يفظعوا في القتل، أو يهدموا الدور والمباني كما ذكر المفسرون الذين نقلنا عنهم.

٣- أن حمل المعنى على ما ذكره المفسرون يؤدي إلى القول بالفساد

أيضًا بالقتل والهدم والدمار، وكلها أشياء مذكورة شرعًا، فكيف يبعث اللَّه عبادًا يكون هذا دورهم ويكون هذا الفعل محمودًا منهم؟!

وعلى هذا يكون المعنى أن هؤلاء العباد الذين سيتسلطون على بني إسرائيل سيكون من فعلهم إبطال مفاسد بني إسرائيل وأسباب استعلائهم، وهذا سيكون في صور منها:

١ - فضح هؤلاء القوم أمام العالمين حتى لا يبقى معهم متعاطف إلا من هو على شاكلتهم.

٢ - انقطاع حبل الناس عنهم وتخليهم عن دعمهم.

٣ - انكشاف الفساد والإفساد الذي يقوم به هؤلاء الناس للعالمين.

٤ - انهزام الأفكار التي يروج لها الفكر الصهيوني الذي يمثل بني إسرائيل الآن، ومنها فكرة المظلومية، والاضطهاد التاريخي.

٥ - تفكك المجتمع الإسرائيلي من الداخل وتعرضه للانقسام الطائفي والطبقي والمناطقي.

٦ - إفشال المنظومة الأخلاقية الفاسدة التي تروج لها الصهيونية والمعتمدة على الإلحاد، والإباحية، والشهوانية، والفردية.

٧ - هدم الأسس التي قامت عليها مملكة إسرائيل الحديثة، ومنها الجزء الديني، المتمثل في الوعد المقدس، ومنها الدنيوي، المتمثل في ادعاء الديموقراطية والعدالة.

وهنا بقي أن أشير إلى أمرين:

**الأول**: أن الشيخ أبا زهرة يرى أن التتبير الذي هو بمعنى التخريب إنما هو فعل بني إسرائيل مع غيرهم، فهم الذين سيقتلون ويخربون ويهدمون كما نراهم يفعلون منذ أن بدءوا العودة إلى أرض فلسطين، وقد بينا أن هذا وإن وقع

ويقع منهم، إلا أن حمل المعنى على هذا الوجه لا يتفق مع نظم الآية.

**الثاني**: أن قوله تعالى: ﴿مَا عَلَوْاْ﴾ يحتمل أمورًا:

١ – أن تكون «ما» هنا موصولة مفعولة، والمعنى: وليتبروا الذي علوا، أي الذي وصلت إليه أيدي العباد، ووقع تحت سلطانهم.

٢ – أن تكون «ما» موصولة مفعولة أيضًا، والمعنى: وليتبروا الذي علوا، أي الذي أعلاه وبناه بنو إسرائيل.

٣– أن تكون «ما» ظرفية، والمعنى: وليتبروا مدة علوهم أو ما داموا في علوهم.

والفرق بين التقديرين أن الأول يركز على النوع، والثاني يركز على الزمن والمدة، ولعل الإبداع القرآني قصد إلى ذلك، فأعطانا بالصيغة المحتملة تصورًا متكاملًا ، مفاده أن العباد سيدمرون ما أحدثه بنو إسرائيل من إفساد، وأن هذا التدمير سيبقى أثره لمدة حتى أنه مرتبط ببقاء هذه الطائفة المنصورة، فيكون الحفاظ على هذه الطائفة حفاظًا على المجموع من الفساد وأسبابه.

❋❋❋

# المبحث الثامن
# مستقبل الصراع

استطعنا أن نثبت في المباحث السابقة أن الصراع على فلسطين بين الجماعات اليهودية - كما يسميها المسيري- وبين المسلمين سواء كانوا من أهل فلسطين أم من غيرهم هو صراع مستمر، ويبقى جزؤه الأكبر في الموعود القرآني الذي نص على جولة كبيرة، ينتصر فيها عباد اللَّه انتصارًا كبيرًا يهدم ما بناه الصهاينة ومن معهم، ويعيد المسجد الأقصى والأرض المباركة، وينهي المشروع الصهيوني في الشرق.

وفي هذا المبحث سنحاول أن نشير إلى بعض العوامل التي تؤثر في الصراع من خارج نصوص سورة الإسراء ومعانيها المباشرة.

وأقول: لا يجب أن يشك أحد في النصر الموعود وإن تأخر بالنسبة لنا، فنحن نقيس الأمور بأعمار البشر، والصواب أن تقاس بأعمار الأمم.

لقد احتاج المسلمون ثلاثة أجيال حتى يستردوا بيت المقدس من يد الصليبيين، واحتاجوا لضعف هذا العدد كي يطردوهم من الشرق جملة، ستة أو سبعة أجيال هي في عمر البشر طويلة ولكنها في عمر الأمم قصيرة، فقد احتل الرومان مصر وفلسطين من عهد بومبي تقريبًا ولم يخرجوا منهما إلا بعد الفتح الإسلامي، وهي قرون طويلة عاش فيها أجيال وأجيال، ولكنها ليست بالطويلة في عمر الحضارتين المصرية والفلسطينية.

هناك عوامل هامة ومؤثرة في الصراع الإسلامي الصهيوني، وهي في مجملها ستصب في صالح تحقيق النصر الموعود في سورة الإسراء:

## أولًا: معركة الجغرافيا والسكان والعقيدة:

إن أهم ما يواجه المشروع الصهيوني في فلسطين ثلاثة أشياء:

١) جغرافية المكان بين الأعداء.

٢) تعداد السكان قياسًا بالأعداء.

٣) عقيدة الأعداء في الصراع.

لقد غادر اليهود فلسطين كما قلنا من قبل على مراحل وآخرها وأكثرها في عهد أدريانوس[١]، ومنذ ذلك الوقت لم يعد هناك وجود يهودي سكاني ذو شأن، حتى وقع وعد بلفور سنة ١٩١٧، وبدأت هجرة اليهود من أوربا وأمريكا، ثم بعد تأسيس دولة إسرائيل من البلاد الشرقية.

على حين أن التواجد العربي ومن بعده التواجد الإسلامي لم ينقطع عن فلسطين منذ نزول السكان الأصليين في هذه الأرض مهاجرين من الجزيرة العربية، حتى في فترة الحكم الروماني كان هناك حضور عربي مميز ممثل في قبائل الغساسنة العربية، والتي كانت مسيحية في الجملة، ثم تحولت للإسلام من بعد.

عندما بدأت عودة اليهود لفلسطين بأعداد مميزة، وجدوا أنفسهم نقطة في بحر كبير من حيث مساحة الأرض، ومن حيث عدد السكان، وكان لا بد لهم من تعويض فارق قوة المكان وقوة العدد، ومع ذلك فقد فشلوا كما سنبين.

من المهم أن نعرف جيدًا أنه كما يقاتل الإنسان، تقاتل الأرض والطبيعة، وهي في الأعم الأغلب مع أهلها الذين روضوها وروضتهم، ولذلك شواهد

---

(١) هادريان باللاتينية: وهو إمبراطور روماني حكم من ١١٧م إلى ١٣٨م طرد اليهود من فلسطين سنة ١٣٥م بعد ثورة استمرت ثلاث سنوات وخرب أرض القدس، وبنى فيها مدينة وثنية سماها إيليا كابيتولينا، واستمر الاسم حتى الفتح الإسلامي.

تاريخية كانت لنا نحن المسلمين، وكانت علينا أيضًا، وسأعطي هنا مثالين يوضحان الفرق جيدًا.

**الأول**: مثال انتصرنا فيه بسبب الأبعاد الثلاثة التي ذكرتها في أول المبحث: جغرافية المكان، والسكان، والاعتقاد.

لقد جاءت الحملات الصليبية على الشرق الإسلامي واستمرت من سنة ١٠٩٦ ميلادية إلى ١٢٩١، وبداية من حملة الفقراء وانتهاء بحملة لويس التاسع على تونس، باعتبارها حملات كبيرة، مثلت هذه الحملات تهديدًا للبلاد الإسلامية في الشرق، وبعضها نجح في احتلال أراض إسلامية وأقام ممالك وإمارات، استقرت فيها أجيال من الصليبيين في الشرق، توالدوا وتناسلوا، وما زالت تأتيهم الأمداد والحملات واحدة تلو الأخرى، حتى إنهم في بعض الحالات صاروا مثل أهل البلاد في عاداتهم في اللباس والمأكل، حتى الصفات الأخلاقية في بعض الأحيان وغيرها من الأمور التي أشار لها أسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار».

لقد جاء وقت ظن فيه الصليبيون أنهم صاروا جزءًا من جغرافية المكان، لا سيما بعد أن صارت بينهم وبين بعض الحكام المحليين تحالفات ينصر بعضهم بعضًا في حروبه مع خصومه كتحالف شاور وزير العاضد الفاطمي مع مملكة بيت المقدس الصليبية ضد الجيش السوري الذي جاء لنجدة مصر، وكما فعل الناصر داود حين تحالف مع الصليبيين ضد ابن عمه صاحب مصر الصالح أيوب، وفعل الصالح إسماعيل الشيء نفسه وتحالف مع الصليبيين ليساعدوه في حربه مع مصر.

ولم تقتصر التحالفات على المسلمين، بل قام بها الصليبيون أنفسهم فقد عقد جوسلين الثاني تحالفًا مع قرة أصلان الأرتقي حاكم ديار بكر، وكان ذلك

سببًا في سقوط إمارة الرها في أيدي الأتابك عماد الدين زنكي سنة ١١٤٤م، وكذلك تحالف ريمون الثالث كونت طرابلس والجليل وطبريا مع السلطان صلاح الدين ضد أعدائه في القدس.

لقد ظنت الأجيال المتوارثة للصليبيين أنهم استقروا في الشرق وصاروا جزءًا منه، ولكن واقع الأمر أنهم كانوا يحاربون في معركة خاسرة، لأنها كانت ضد الجغرافيا، والسكان، والعقيدة، وهذه العوامل لا تسمح لمستعمر مهما طال وجوده بالقرار أو الاستقرار، ولا يفلح الطارئ في الاستقرار إلا بعاملين: إما القضاء تمامًا على السكان الأصليين. أو ذوبان الطرفين بعضًا في بعض، وذلك بالاشتراك في عناصر الحياة الأساسية كاللغة والدين والثقافة والعادات.

وقد فشل الصليبيون في كلا الأمرين وكانت النهاية حتمية، نعم بقوا ما دام السيف قائمًا في أيديهم، لكنهم خسروا في النهاية لأنهم خسروا معارك الجغرافيا، والسكان، والعقيدة، فذهبوا وكأنهم لم يكونوا هناك.

**الثاني**: مثال انهزمنا نحن المسلمين فيه لذات الأسباب.

وذلك أن المسلمين فتحوا الأندلس واحتلوا جل شبه الجزيرة، وهزموا القوط هزيمة منكرة في وادي لكة حتى إن موسى بن نصير والي إفريقية وصفها في كتابه للخليفة الوليد بن عبد الملك بقوله: «لم يكن هذا فتحًا كغيره من الفتوح، يا أمير المؤمنين، فإن الواقعة كانت أشبه باجتماع الحشر يوم القيامة»، لقد قتل ملك القوط وجملة من أمرائهم ونبلائهم، ولاذ الباقي بالفرار، وتكررت الهزيمة تلو الأخرى في إستجة وفي قرطبة وفي مالقة ومرسية وغرناطة والعاصمة طليطلة وقرمونة وإشبيلية وماردة، وتوجه المسلمون بعد ذلك لشمال البلاد حيث الجبال والتضاريس الوعرة، وقد فتح المسلمون

معظم الحصون والقلاع، ولم تتبق إلا بعض المناطق الجبلية في الشمال والشمال الغربي، ومن هذه المناطق منطقة في أقصى شمال أشتوريس تسمى صخرة بلاي[١].

هذه الصخرة لجأ إليها عدد قليل ممن فر من القوط لا يزيد عن الثلاثمائة، بل إن هذا العدد تناقص بعد ذلك حتى وصل إلى ثلاثين رجلًا وعشر نساء كما تذكر بعض المصادر، حاصرت سرية من المسلمين هذه المنطقة، وفي النهاية قررت الانسحاب، وقال قائدها عبد الرحمن بن علقمة اللخمي جملته الشهيرة، «ثلاثون علجًا[٢]، ما عسى أن يجيء منهم».

بعد سبع سنوات من الفتح الإسلامي لإسبانيا والبرتغال قام بلاي بتأسيس مملكة أستورياس في الركن الشمالي الشرقي من إسبانيا وصارت نواة المقاومة للوجود الإسلامي في الأندلس والذي استمر لقرون.

وفي عهد ألفونسو الأول الذي جاء ثالثًا بعد بلاي وفافيلا بن بلاي، استطاع جمع الشتات الأسباني وإعادة توطينهم في منطقتي جيلقية وليون، واستطاعت الممالك الإسبانية الشمالية من التوسع جنوبًا شيئًا فشيئًا على حساب المسلمين الذين اكتفوا بوسط وجنوب الجزيرة، وساعد في ذلك جغرافية الشمال، وعدم تحول السكان إلى الإسلام، حيث احتفظ الغالبية بالكاثوليكية.

ومع مرور الوقت لعبت العوامل الثلاثة التي ذكرناها دورًا مهمًّا في إنهاء الحكم الإسلامي في شبه جزيرة أيبيريا، وأتى القرن الخامس الهجري

(١) تعرف عند الإسبان بكهف السيدة، وبلاي هو بيلاجيوس، أحد نبلاء القوط، هرب من معركة وادي لكة دون قتال، وكان معروفًا بالحكمة وبعد النظر ويعتبر الأب الروحي لحركة الاسترداد في إسبانيا، توفي سنة ٧٣٧م.

(٢) بكسر العين وسكون اللام، والجمع «علوج» هو الرجل من كفار العجم.

فسقطت طليطلة في أيديهم، وفي القرن السابع سقطت المدن الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية وغيرهما، وفي النهاية لم يتبق سوى غرناطة التي حاصرتها العوامل الثلاثة: الجغرافيا والسكان والعقيدة الكاثوليكية المتعصبة، وانتهى الأمر بسقوطها سنة ١٤٩٢م، ومعها سقط الحكم الإسلامي في الأندلس، وخلال فترة وجيزة بعد ذلك ذهب من تبقى من المسلمين، إما بالهجرة إن أمكن، وإما بالقتل الفظيع على يد محاكم التفتيش.

والآن لا يوجد في إسبانيا والبرتغال إلا بعض الآثار القليلة للإسلام، وكأن الإسلام لم يوجد فيهما يومًا.

لقد جاءت العناصر الثلاثة مع عنصر يخص المسلمين نهاية للوجود الإسلامي الطويل في الأندلس، ولو استطاع المسلمون اختراق هذه العوامل لما استطاع أعداؤهم هدم الوجود الإسلامي بالكلية، ولبقي الإسلام بصورة أو بأخرى، كما بقى مثلًا في البوسنة عندما تحول السكان البوشناق للإسلام، مع أن البوسنة محاصرة جغرافيًّا بممالك مسيحية، وكما بقي الإسلام في ألبانيا والسنجق لذات السبب، وكما بقي الإسلام في دول آسيا الصغرى لما تغيرت الجغرافيا والسكان ومن خلفهما الاعتقاد.

وإذا ما عدنا إلى الصراع على فلسطين بيننا وبين بني إسرائيل أو اليهود أو الصهيونية، سنجد أن العوامل الثلاثة في صالحنا، وتفصيل ذلك كالآتي:

**١) الجغرافيا:**

تبلغ مساحة فلسطين قبل الاحتلال حوالي ٢٧ ألف كيلو متر مربع، وتحتل منها إسرائيل حوالي ٢٢ ألف كم، ولكنها محاطة بأعدائها من الداخل والخارج.

فمن الداخل يوجد الفلسطينيون الذين لم يغادروا بعد ١٩٤٨، و توجد

منطقة الضفة الغربية وقطاع غزة وهي مناطق جغرافية شديدة الاتصال بقلب فلسطين ومنطقة الساحل ولا يحتاج المرء لأكثر من ساعتين بالسيارة من غزة في أقصى الجنوب ليصل إلى الجليل في أقصى الشمال.

أما من الخارج ففلسطين محاطة بالدول العربية، ففي النسق الأول نجد مصر والأردن وسوريا ولبنان، وفي النسق الثاني نجد السعودية والعراق، فإذا أضفنا البلاد الإسلامية جاءت تركيا وإيران في النسق الثاني، ومن بعد ذلك تأتي باقي البلاد العربية والإسلامية بمساحاتها الشاسعة.

ولنعرف حجم الضآلة التي فيها الدولة اليهودية المحتلة نجد أنها أقل من نصف مساحة شبه جزيرة سيناء المصرية، بل إن كل إسرائيل أقل مساحة من الخرطوم في السودان.

ولهذا السبب حرصت دولة الاحتلال لتجاوز الحاجز المكاني مع أعدائها على امتلاك قوة جوية قوية، وهي أقوى ما لدى الجيش الصهيوني، حيث تظن أن هذا سيطوي لها المسافات كما وقع مع سيدنا سليمان في الزمن القديم.

والحق أن هذه معضلة حقيقية، ولن يفيد فيها مع تطاول الزمن شيء، حتى لو تم التخلص من كل السكان الفلسطينيين، إذ من المستحيل التخلص من النسق الأول أو الثاني ومن خلفهما أمة كبيرة تعتبر هذه البقعة ملكًا خالصًا لها.

لقد رأينا كيف هزمت جبال طوربورا والهندكوش وقراقرم أقوى قوة في العالم، وتحولت لسجن كبير للمحتل الروسي أو الأمريكي، حتى خرج كلاهما هربًا تاركين وراءهم الجغرافيا والغنائم.

لقد حاولت الصهيونية في صورتها اليهودية أو المسيحية أو حتى الملحدة التغلب على العامل الجغرافي بعملية تكسير للمحيط الجغرافي، وذلك من خلال التفتيت أحيانًا كما حدث في العراق وسوريا ولبنان، أو التحييد كما

حدث مع مصر والأردن وتركيا، والمحاولة مع السعودية، فإذا تم تكسير الجغرافيا القريبة صار من المستبعد تدخل الجغرافيا البعيدة.

لكن الحقيقة إن هذا أيضًا لن يأتي إلا بنتيجة آنية، وعلى المدى القصير، ولكن على المدى البعيد ستفشل هذه المحاولة كما فشلت محاولات سابقة، حتى محاولات الدولة الإسلامية في تكسير جغرافية إسبانيا والبرتغال، وخرجنا منها كما دخلنا ولم يبق لنا إلا مسجد وقصر بعد مئات السنين.

ولقد أثبتت الحرب الأفغانية الروسية أيضًا أن تكسير الجغرافيا لا يفيد في نهاية المطاف، حيث تداعى المسلمون لمقاتلة الروس من أقصى الغرب في المغرب، ومن أقصى الشرق في الفلبين، ومن أقصى الجنوب في الصومال، ومن بلاد كثيرة ليس بينها وبين أفغانستان حدود مشتركة.

**٢) السكان:**

واحدة من أكبر التحديات التي تواجه إسرائيل منذ إنشائها هي أن عدد الجماعات اليهودية قليل جدًّا بالنسبة لأعدائها، بل إن إسرائيل احتلت شبه جزيرة سيناء منذ ١٩٦٧ وحتى ١٩٨٢، ولم تستطع أن تستعمر فيها إلا جزءًا يسيرًا، لأنه ليس لديها ما يكفي من القوة البشرية القادرة على الإعمار أو الاستعمار.

وإذا نظرنا إلى التعداد السكاني الصادر عن مؤسسات إسرائيلية سنجد الآتي:

عدد سكان إسرائيل في سنة ٢٠٢٣ حوالي ٩.٨ مليون، وهذا يشمل كل من يعيش في دولة إسرائيل على حسب اعتراف الأمم المتحدة، وكذلك المناطق المحتلة في الضفة والجولان.

- ٧٤٪ من هذا العدد هم من اليهود، أي حوالي ٧.٢ مليون.

- ٢١٪ من هذا العدد هم من عرب ١٩٤٨، أي حوالي ٢ مليون.
- ٥٪ أقليات أخرى، أي حوالي نصف مليون.

وإذا أخذنا في الاعتبار التساهل الذي حدث في الثلاثين سنة الأخيرة في مسألة تحديد من هو اليهودي، ما أدى إلى السماح بهجرة أعداد كبيرة إلى إسرائيل من روسيا وأفريقيا وآسيا على أنهم يهود طلبًا لفرص أفضل اقتصاديًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا، الأمر الذي أرغم الحاخامية إلى طلب تعميدهم مرة أخرى ليُعترف بهم يهودًا، أقول: هذه الأعداد التي تقترب من المليون على حسب الدكتور المسيري، نرى أن العدد الحقيقي لبني إسرائيل لن يزيد على ستة ملايين.

في الجانب الآخر نجد أن أعداء إسرائيل لديهم كتل سكانية غير محدودة فمثلًا إذا أخذنا فقط الفلسطينيين أصحاب الحق الأول والأصيل سنجد أعدادهم كالآتي[١]:

- عدد السكان الفلسطينيين في كل العالم ١٤.٣ مليون.
- عدد السكان الفلسطينيين في حدود فلسطين ١٩٦٧[٢] هو ٥.٤ مليون.
- عدد السكان الفلسطينيين في داخل إسرائيل[٣] ١.٧ مليون.

وعلى هذا يكون عدد السكان الفلسطينيين الذين يعيشون في نفس الأرض متساويًا مع عدد السكان من اليهود بما فيهم من ليس منهم، ويزيد عن عدد اليهود من أصل يهودي خالص[٤]، وإذا أضفنا فلسطيني الشتات يكون

---

(١) على حسب جهاز الإحصاء الفلسطيني لعام ٢٠٢٢.
(٢) تشمل غزة والضفة الغربية والقدس الشرقية.
(٣) الأرض المحتلة بعد ١٩٤٨.
(٤) هذا إذا افترضنا وجود هذا النوع.

عدد الفلسطينيين ضعف عدد سكان دولة إسرائيل من اليهود وغيرهم وثلاثة أضعاف يهود بني إسرائيل بما فيهم الخزر.

وعلى هذا تحتاج إسرائيل أعدادًا مهولة حتى تحقق الغلبة السكانية والتي عادة ما تقدر بعشرة إلى واحد، وهذا في حكم المستحيل مع الفلسطينيين، فما بالنا بمن خلفهم من العرب والمسلمين.

أما إذا توسعنا قليلًا وأخذنا أعداء النسق الأول أو دول المواجهة، وهم مصر وسوريا والأردن ولبنان، فالأمر سيكون مهولًا.

١- مصر: بلغ عدد سكان مصر في مايو ٢٠٢٣: ١٠٥ ملايين.

٢- سوريا: بلغ عدد سكان سوريا في ٢٠٢٣: ٢٦,٧ مليون.

٣- لبنان: بلغ عدد سكان لبنان في ٢٠٢٢: ٥,٥ مليون.

٤- الأردن: بلغ عدد سكان الأردن في ٢٠٢٣: ١١,٤ مليون.

فيكون الإجمالي لدول الطوق ١٤٨,٦ مليون[1]، وهو يساوي عدد سكان إسرائيل بعشرين ضعفًا.

وإذا أضفنا لذلك باقي الدول العربية يكون العدد الإجمالي ٤٦١ مليونًا وحوالي عشرة ملايين عربي في الأحواز في إيران، يكون نسبة عدد سكان دولة إسرائيل من اليهود قياسًا بأعدائهم العرب فقط نسبة بائسة جدًّا، ولا تفي بحاجة البقاء حيث إن العرب يمثلون خمسة وستين ضعفًا.

وأظننا لن نحتاج أن نقيس عدد سكان اليهود بما يقابلهم من المسلمين في محيط المنطقة.

---

(١) على حسب الإحصاءات الرسمية، والواقع أن العدد الحقيقي دائمًا يكون أكثر من ذلك؛ فتقديرات عدد سكان مصر ٢٠٢٣ (١١٠ مليون)، ولبنان حوالي ٧ مليون.

إن إسرائيل حتى لو استطاعت أن تهجر كل يهود العالم إليها[١]، لن تستطيع أن تقيم توازنًا مع محيطها العربي أو حتى مع دول الطوق، فضلًا عن المشاكل التي ستنتج من وجود كل الجماعات اليهودية في حيز واحد.

والحقيقة أن أحدًا لم يستطع أن يتغلب على ظاهرة التفوق السكاني، إلا من قام بإبادة السكان الأصليين، كما حصل في أمريكا وأستراليا وكندا ونيوزيلاندا، أو تغلب عليهم بعدد المهاجرين كما حدث بين القوط والوندال مثلًا أو بعض البلاد الأفريقية التي هاجر إليها المسلمون وتحول أهلها للإسلام، خلاف ذلك تكون الغلبة للأكثر سكانًا، وسنعطي أمثلة عملية:

١- أقام المسلمون مملكة قوية في الهند لا سيما في فترة الأسر المغولية واستمر حكم المسلمين للهند حتى الاحتلال البريطاني سنة ١٨٥٨م، ومع ذلك لم يستطع المسلمون حكم الهند بعد الاستقلال سنة ١٩٤٧م، وانفصلت المناطق ذات الأغلبية المسلمة وشكلت دولة باكستان ودولة بنجلاديش، وبقي عدد كبير من المسلمين تحت الحكم الهندوسي، في أنحاء البلاد وفي إقليم كشمير المحتل، وذلك لأن نسبة السكان المسلمين للهندوس صغيرة نسبيًّا إذ تبلغ حوالي ١٨٪ من إجمالي السكان.

٢- الأقليات البيضاء في جنوب أفريقيا والتي حكمت هناك مدة بقوة السلاح والنفوذ الاقتصادي، ولكنها في النهاية انهزمت لأن نسبتها لا تتجاوز ٨٪ من تعداد السكان.

٣- الحكم الصربي لكوسوفو، حيث يتكون السكان من أعراق ألبانية وبوسنوية وصربية وغجرية، وحكم الصرب هذه المنطقة مع أنهم لا يمثلون أكثر من ٥٪ من السكان، ما أدى إلى الثورة، ومن ثم الاستقلال وإعلان دولة

(١) وهي فكرة مدمرة لإسرائيل لأنها ستخسر مجموعات الضغط المهمة.

كوسوفو، والتي يمثل فيها الألبان ٨٦٪، ويمثل المسلمون فيها نسبة ٩٦٪.

فإذا تأملنا في هذا الواقع الذي أشرنا إليه نجد أن المستقبل لا بد أن يكون لصاحب العدد.

ولعل قائلًا يقول: إن هذه الأرقام والنسب قائمة منذ إنشاء إسرائيل واحتلالها لفلسطين والجولان، فلماذا لم تفد؟

والجواب عن هذا سهل، وهو أن عوامل التأثير في الحال والمآل لا تفيد بطبيعتها، ولكن تفيد إذا أحسن استعمالها، فمن لم يحتم بالجبل لن يحميه وجود الجبل إلا على قدر عجز خصمه، ومن عطل يده عن العمل لن ينفعه اتصالها بجسده، ومع ذلك فعدم وجودها يعتبر عجزًا كاملًا، ووجودها مع عدم الاستفادة منها يعتبر عجزًا مؤقتًا؛ إذ الآلة قائمة، ومن لم يفد منها اليوم ربما أفاد منها غدًا، وهكذا كان الحال مع الرومي في الأندلس ومع الأفريقي الأسود في جنوب أفريقيا.

إن عامل السكان لا بد أن يعامل على أنه مصدر طبيعي للقوة والدخل، مثله مثل وجود الأنهار أو الأرض الصالحة للزراعة، أو حتى المعادن في باطن الأرض، متى أفاد منها الإنسان استفاد وأقام بها حضارة، والفقير المحروم هو من ليس عنده هذه الأدوات حتى ولو كان غنيًّا، والغني من كانت عنده أسباب الحضارة حتى لو لم يستعملها؛ لأن غنى المحروم مؤقت، وحاجة الفقير مؤقتة، ومتى فاءت الأمم أفادت مما لديها من أسباب، هكذا كان الأمر وهكذا سيكون.

وإسرائيل نفسها تعرف قوة هذا العامل وتقر به، ولذلك تحاول أن تؤخر النهاية بوصفات في غالبها إما مؤقتة، وإما أنها ستعجل النهاية لأنها تناقض الفكرة التي قامت عليها هذه الدولة.

**٣) الاعتقاد:**

ما نقصده هنا بالاعتقاد هو الإيمان الجمعي بقضية ما، سواء كانت متعلقة بقيمة دنيوية كالرأسمالية والاشتراكية مثلًا، أو متعلقة بمعتقد ديني مثل الإيمان بنصر اللَّه، أو البعث والجزاء في الآخرة.

وحقائق التاريخ وواقع اجتماع البشر يقول: إن الأمة التي تجتمع على فكرة ما تكون أقدر من غيرها على تحقيق هذه الغاية، وهذه الغاية ستنتصر ولو طال الوقت.

لقد توحد العالم الكاثوليكي في إسبانيا والبرتغال وفرنسا على طرد المسلمين من الأندلس فيما يسمى حرب الاسترداد، وكان لهم ما أرادوا.

ولقد توحدت الأمة الكوبية خلف فكرة الاشتراكية وحقوق الفقراء في التعليم والعلاج، وألا تكون الجزيرة «كازينو» كبيرًا للولايات المتحدة الأمريكية فصمدوا أمام أكبر قوة في العالم لعشرات السنين، ولم تفلح محاولات الاختراق الأمريكي حتى الآن.

ومن أقوى التحديات التي تواجه إسرائيل وداعميها هو اعتقاد المسلمين والعرب بأحقيتهم في هذه البقعة، هذا الاعتقاد الذي يتفق عليه الجميع المسلم والمسيحي، السني والشيعي، المتدين والمقصر والمفرط، الديني والعلماني، الإسلامي والقومي، الذي يؤمن بفكرة الأمة، والذي يؤمن بفكرة القطر والدولة القومية، العرب وغير العرب، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إن فكرة القدس وفلسطين هي محل إجماع، لا يضاهيه إجماع آخر، لأن مكة والمدينة والقرآن والنبي ﷺ وإن كان عليهم إجماع فهو إجماع المسلمين فقط، أما الإجماع على أحقيتنا بالقدس وفلسطين فهو أوسع ويشمل المسلمين والمسيحيين وبعض اليهود.

هذا الاعتقاد يدعمه ثلاثة أشياء مهمة:

١ - المعتقد الديني الذي يعطي الأشياء قداسة.

٢ - الاستحقاق بقوة التاريخ.

٣- بقاء صاحب الحق حيًّا فاعلًا.

وقد يقول قائل: إن الصهيوني لديه نفس الاعتقاد سواء كان متدينًا يؤمن بوعد الرب لإبراهيم ويعقوب عليهما السلام، أو كان انتهازيًّا يؤمن بالحق المكتسب، والذي تأكد بالتراكم.

وأقول: نعم لدى الطرف الآخر اعتقاد، ولكن هذا الاعتقاد يرد عليه ما يضعفه، ومن ذلك:

١ - أن هذا الاعتقاد مركب متعدد، فدوافع المتدين غير دوافع العلماني، ودوافع اليهودي الغربي غير دوافع السفارد أو المزراحي، ودوافع السياسي غير دوافع الاقتصادي غير دوافع الاجتماعي، وهذا وإن كان يعني التنوع إلا أنه يعني الضعف في ذات الوقت، بخلاف المعتقد عند العرب والمسلمين، فهو يعتمد على الحق الأصلي الذي تؤكده الديانة.

٢ - أن الجماعات اليهودية ليست متفقة تمامًا على مسألة الحق الإلهي أو حتى التاريخي، يدلل على هذا أن أغلبية اليهود لم تهاجر إلى أرض الميعاد، وما زال العدد الأكثر يعيش في حياة الشتات كما يسميها التراث اليهودي، وفي هذه الحالة فهو شتات اختياري، وهذا يرد على مسألة قوة المعتقد.

٣- أن الواقع العملي يقول إن الذي يقع على الأرض هو عملية استيطان لأسباب اقتصادية واجتماعية أكثر منه معتقد، بدليل أن عددًا كبيرًا من أبناء مستوطنة إسرائيل يحمل جنسيات متعددة، بل ويسعى لتحصيلها، فهو يعيش على شرط الرحيل في أي وقت، وإذا تغيرت الظروف أو شروط العقد

الاجتماعي، وهذا لا يكون مع صحة الاعتقاد.

٤- أن تطاول الأجيال في الحالة اليهودية يضعف المعتقد، فنحن الآن نواجه الجيل الثالث، وهو في مجمله، لم يعايش فترة النشأة والتكوين التي قام بها جيل لديه اعتقاد قوي في الحق الإلهي، وموعود الرب، أما الجيل الثالث فليس لديه مثل هذه الأسباب، حتى مع عمليات التشريب الفكري التي مروا بها في صغرهم، وهذا ما تثبته الاستفتاءات في العشرين سنة الأخيرة.

على حين أن قضية القدس في قلوب المسلمين وعقولهم تبقى مركزية رغم تطاول الزمن نسبيًّا حتى صارت حقًّا عامًّا، وليست حقًّا فلسطينيًّا.

ولمحاولة تخطي هذه العقبة في الاعتقاد، جاءت الصهيونية المسيحية كي تعطي حياة لفكرة المعتقد، ولكنه في ذات الوقت وعند تأمله هو معتقد يعطي الحق لليهود في فلسطين، ليس رغبة فيهم ولكن لمعاقبتهم بعد نزول المسيح وقيام الألفية، فهو فيما يخص اليهود ظاهره خير وباطنه شر.

وبالجملة يخسر المشروع الصهيوني معركة الاعتقاد.

## ثانيًا: طبيعة المجتمع اليهودي:

في موسوعته «اليهود واليهودية والصهيونية» تكلم المسيري عما سماه الجماعات اليهودية، وهو مصطلح ابتدعه ليخرج من الارتباك والخلاف في تحديد من هو اليهودي، فهل اليهودي هو يهودي الديانة؟ أم أن اليهودي هو يهودي التدين؟ أم أن اليهودي هو يهودي المولد[1]؟ أم أن اليهود هم أبناء الأسباط فقط؟

الأمر مختلف تمامًا في الإسلام حيث إن الإسلام لا يهتم بهذه الأمور بل يحاسب فقط على المعتقد، فمن اعتقد الإسلام هو المسلم، ولا يهم كونه

(١) أي المولود لأم يهودية حتى وإن كان أبوه من الأغيار.

قرشيًّا أو عربيًّا أو أعجميًّا، ولا يهم إن كانت أمه مسلمة أو غير ذلك، ولذلك انتشر الإسلام وتطور مع تأخره في الزمن، وتقوقعت اليهودية مع تقدمها في الزمن.

إن من ينظر إلى طبيعة المجتمع اليهودي الآن، ويقيسه بذات المجتمع في وقت إنشاء دولة الاستيطان هذه، سيعرف الفرق الواضح والذي كما هو من عوامل التنوع، هو من عوامل الضعف.

وأنا هنا لن أعيد كثيرًا مما كتبه المهتمون والباحثون في الشأن اليهودي من أعدائهم المسلمين، أو من يهود أو غيرهم، ولكني سأشير إلى عناوين هامة كلها تضعف الكيان الصهيوني مع الوقت.

**أ) قسمة الشعب الإسرائيلي جغرافيًّا:**

لعله من الملاحظ أن آثار الهجرة والجغرافيا في المجتمع الإسرائيلي واضحة المعالم ولها آثار اجتماعية ودينية وثقافية.

فهناك اليهود الذين هاجروا من الغرب وهم الإشكناز.

وهناك اليهود الذين هاجروا من بلاد شرقية وهم السفارد.

وهناك اليهود الذين هاجروا من بلاد عربية وهم المزراحيون.

وداخل هذه الأقسام الثلاثة أقسام أخرى، تخضع أيضًا للتقسيم الجغرافي لبلد المنشأ، وعلى هذا الأساس تكونت الحقوق الاجتماعية، حتى وإن حاولت إسرائيل إعطاء صورة أخرى.

والشعور العام أن اليهود الإشكناز هم من تولوا كبر إنشاء الدولة في الوقت الذي كانت تعيش فيه الطوائف الأخرى جزءًا من البلاد التي كانت فيها، ومن له فضل البدء له فضل السبق.

لقد حدثت حادثة بسيطة ولكنها كانت مبكرة وكاشفة تعقد الواقع الاجتماعي لدولة إسرائيل، ففي سنة ١٩٥٩ قامت أعمال شغب ومظاهرات كبيرة في حيفا في حي وادي الصليب، وذلك إثر قتل رجال الشرطة مهاجر مغربي، والذي عده الضمير الجمعي تمييزًا ضد المزراحيين، ومثله ما وقع مع الشاب سولومون تيكاه من يهود الفلاشا الذي قتل على يد الشرطة أيضًا.

هذه الحوادث وغيرها كاشفة وليس منشئة لهذا الشعور الموجود والمستمر حتى الآن، ولعل بعض تجلياته كانت في الخلاف الدائم بين جولدا مائير وموشيه دايان، والذي كان في أصله خلافًا اجتماعيًّا وليس سياسيًّا، فجولدا تمثل اليهود الإشكناز، ودايان يمثل اليهودي الوطني «الصابرا» الذي ولد في فلسطين ولم يهاجر إليها فقد ولد في طبريا سنة ١٩١٥.

كتب مستوطن يهودي في دورة مياه في الجامعة العبرية هذه المقالة التي تعبر عن هذا الجمع غير المتناغم:

ليذهب السفارد إلى إسبانيا.

والإشكناز إلى أوربا.

والعرب[١] إلى الصحراء.

ولنعد هذه الأرض إلى الخالق.

فقد سبب لنا من المتاعب الكفاية بوعده هذه الأرض لكل الناس[٢].

لقد رصد المسيري في بعض كتاباته التناقض بين الجماعات اليهودية بسبب الموطن، وفي ذلك يقول: «رغم أن كلا من السفارد والإشكناز يشار

---

(١) يقصد الفلسطينيين.

(٢) الدولة الصهيونية بين المأساة والملهاة: مقال لعبد الوهاب المسيري - منشور في الجزيرة نت بتاريخ ١٤/ ٩/ ٢٠٠٨.

إليهم على أنهم يهود بشكل عام ورغم أن كلا الفريقين تبنى التلمود البابلي (وليس الفلسطيني) مرجعًا وحيدًا في الأمور الدينية، فقد ظلت بينهما نقاط اختلاف، بعضها سطحي والآخر عميق، وتعود إلى اختلاف البيئات الحضارية التي يعيش في كنفها أعضاء الجماعات اليهودية السفاردية والإشكنازية»[(١)]، ويعدد المسيري بعض هذه الاختلافات الاجتماعية والدينية على أساس المنشأ الجغرافي:

**١- اختلاف المستوى الثقافي:**

١) يعتبر السفارد نموذجًا مثقفًا ثقافة عالية لديهم سعة أفق نسبي في تأويل النصوص قياسًا بالإشكناز الذين غلب عليهم تفكير الجيتو.

٢) لم يحاول الإشكناز جمع الشريعة وتقنينها بخلاف السفارد الذين تأثروا بالحضارة الإسلامية في ذلك.

٣) تأثر الإشكناز بالتراث المسيحي الذي كان يحوطهم، وذلك مثل ظاهرة «قيدوش هاشيم»[(٢)]، على حين تأثر السفارد بالمارانية، وهي شيء يشبه التقية في الفكر الشيعي.

**٢- اختلاف المصطلحات الدينية بين الطائفتين:**

إن انعكاس الفروق الاجتماعية والجغرافية سيؤدي بلا شك مع الزمن إلى اختلاف الأولويات، وسيؤدي إلى تصدع مجتمعي، عانينا منه نحن المسلمين، وما زلنا نعاني منه، ولكنه يكون أسوأ وأسرع أثرًا في المجتمعات الصغيرة مثل دولة الاحتلال.

---

(١) التناقض بين السفارد والإشكناز: مقال لعبد الوهاب المسيري منشور في الجزيرة نت بتاريخ ١٣/ ١٢/ ٢٠٠٧.

(٢) تعني تقديس الاسم.

**ب) قسمة الشعب الإسرائيلي طبقيًّا:**

إذا نظرنا إلى دولة الاحتلال باعتبارها كيانًا واقعيًّا، سنجد أنها على صغر حجمها وتعداد السكان الذين يخضعون لقانونها، قد ضمت عددًا مميزًا من الأقليات، لا يتناسب مع صغر الحجم والسكان، وهذا العدد ليس إضافة إيجابية في مثل هذه الحالة، فمن هذه الأقليات:

١) الأقلية العربية: وقد ذكرنا من قبل أن تعدادها يبلغ حوالي ٢ مليون، ولكن هذه الأقلية تنقسم إلى:

- عرب الحضر، وهم الأغلب، ويسكنون في مدن وحواضر ١٩٤٨.

- عرب البدو، وهم حوالي ثلاثون عشيرة يتوزعون بين الجنوب والشمال.

٢) الأقلية العربية المسيحية: وهي وإن كانت متضمنة في العدد السابق إلا أنها أقلية نوعية أخرى ويسكنون في مدن الناصرة وشفا عمرو وحيفا كما أنهم لديهم جماعات دينية مثل الأرثوذكس والروم الكاثوليك واللاتين وغيرهم.

٣) الأقلية الدرزية: وهؤلاء يقطنون في الشمال في قرى ومجتمعات خاصة كما يفعلون في سوريا ولبنان، وهم وإن أظهروا الاندماج في المجتمع الإسرائيلي بالخدمة العامة في مؤسسات الدولة، إلا أن التاريخ يقول إنهم لا ولاء لهم إلا لأنفسهم، كما أن المجتمع اليهودي لن يقبلهم باعتبارهم مواطنين لهم حقوق اليهود.

٤) الأقلية الشركسية: وهؤلاء وإن كان عددهم قليلًا نسبيًّا إلا أنهم يضيفون لعدد المسلمين في داخل الكيان المحتل إذ كلهم من المسلمين السنة.

٥) الأقلية السوداء: وهم يهود أفريقيا، وهؤلاء وإن كانوا يعدون جماعة

يهودية مجازًا، إلا أنهم بعاداتهم وتقاليدهم التي هي خليط ومزيج من الإسلام والمسيحية واليهودية وحتى الوثنية، يعتبرون جنسًا مختلفًا.

كل هذه الطوائف السابقة يقع ضدها تمييز عنصري واضح من قبل المجتمع اليهودي.

يظهر هذا جليًّا في المستوى التعليمي، والاجتماعي، وطبيعة الأعمال، ونظرة المجتمع.

وإذا ما جئنا إلى القسم اليهودي سنجد أنه مع انحسار تيار اليسار في المجتمع أخذت الطبقية الاجتماعية في الظهور، لا سيما مع تسيد الأحزاب اليمينية القائمة على التمايز أصلًا سواء كان لبعد ديني أم بعد اجتماعي.

ومن ينظر إلى نوعية المستوطنات المعطاة لليهود الإشكناز مقابل نظيرها من السفارد أو من الفلاشا سيعرف الفرق، وكذلك منذ نشأة هذه المستوطنة بدأ التمييز فيمن يذهب إلى الكيبوتس، ومن يذهب لأعمال الإدارة والصناعة والتجارة، بل إن توزيع القوات العسكرية على خطوط المواجهة لا يخلو من نظرة طبقية.

والمجتمع الإسرائيلي يقوم بمظاهرات مثلًا لاستعادة أسير إشكنازي من يد الآسر، ولا يأبه بعشرات من الفلاشا أو الدروز أو غيرهم ممن يمثلون طبقة أقل في هذا المجتمع.

وفي دراسة قام بها الباحثان صلاح هاشم أستاذ التخطيط والتنمية بجامعة الفيوم وياسر نعيم أستاذ علم الاجتماع بجامعة الاستقلال بفلسطين تحت عنوان «التشكيلة الطبقية في المجتمع الصهيوني (إسرائيل نموذجًا)»، بينت الدراسة كيف غير الإشكناز قانون العودة سنة ١٩٧٠ ليساهم في هجرات أكثر من أوربا وأمريكا، وكيف سمح هذا التعديل بهجرة غير اليهود والتزاوج

المختلط كل ذلك ليبقى الصوت الإشكنازي هو القوة الأكبر في المجتمع، وهو ما كان بالفعل.

وفي الوقت الذي وقع فيه التساهل مع هجرة مئات الآلاف من الروس، وقع التشدد في قبول هجرة بضعة آلاف من أفريقيا.

ومن الأدلة الواضحة على الطبقية في المجتمع الإسرائيلي التوزيع الجغرافي للسكان فبينما تركز الإشكناز في منطقة الوسط والساحل، وزعت النوعيات الأخرى على خطوط التماس في الشمال مع لبنان وسوريا، وفي الجنوب مع غزة ومصر.

ولعل فضيحة عدم قبول السود كمتبرعين بالدم للعنصر اليهودي الخالص تعطي صورة لهذه العنصرية والطبقية.

**جـ) قسمة المجتمع دينيًّا:**

إذا أغفلنا حقيقة أن ربع من يعيش ويخضع للقانون الإسرائيلي هم من العرب المسلمين والمسيحيين، سنجد أن فروقًا كبيرة ما زالت تمثل تهديدًا قويًّا لتماسك الفكرة الصهيونية التي قامت عليها دولة إسرائيل.

فبالإضافة إلى الانقسام الطبقي والجغرافي، هناك انقسام على أساس الدين والتدين.

فأما أساس الدين فإننا نجد أن هجرة أعداد كبيرة من روسيا وأفريقيا والتساهل في اعتبارهم يهودًا مثلت تحديًا تظهر آثاره، لأن حقيقة الأمر تعكس أن هذه الهجرة ليست لذات السبب الذي أنشئت من أجله إسرائيل باعتبارها وطنًا موعودًا من الرب لأبناء يعقوب، ولكن باعتبارها فرصة لحياة ربما تكون أفضل، وفي سبيل ذلك لا يمتنع أن يظهر المهاجر ما يريده صاحب المكان، فرأينا هجرة مجموعات أرثوذكسية روسية، ومثلها أفريقية، بل وهجرة بعض

المسلمين أيضًا، وكل هذه تمثل تصدعات في الفكرة، ومع طول الوقت ستحتاج أن تتخلى إسرائيل عن فكرة كونها دولة يهودية، وهي الأساس الذي تحيا به.

وأما أساس التدين فهناك الصراع الرئيسي بين المتدينين، والذين يشبهون بعض الحركات السلفية المتشددة في العرف الإسلامي، وبين المجتمع العلماني الغالب في إسرائيل.

إن التشدد الديني هو من أخطر ما يهدد المجتمعات بصفة عامة، ويكفي أن ننظر في التاريخ لنعلم خطورة ذلك.

- فالخوارج هم من أسقطوا ملك بني أمية في واقع الحال وليس بنو العباس؛ فالحروب الطويلة في العراق والمغرب والأندلس التي قام بها الخوارج أضعفت الدولة الأموية، وجعلتها في غفلة مما يحاك بها من قبل بني العباس في خراسان، حتى إن والي بني أمية في العراق يزيد بن عمر بن هبيرة لم يستطع نجدة خراسان وتركها تسقط في يد العباسيين؛ لأنه كان مشغولًا بحرب الخوارج.

- والخوارج هم من أضعفوا الدولة الأموية في المغرب العربي وأدى ذلك لانفصال هذه المنطقة والأندلس عمليًّا عن سلطان الدولة.

- وفرسان المعبد بتشددهم وغلوهم قياسًا ببقية صليبي المشرق هم من أودوا بالصليبيين أن يهزموا في حطين هزيمة منكرة، حيث انهزم المعتدلون في أول المعركة وتركوا ساحة القتال نكاية بفرسان المعبد.

- أما ما فعلته داعش في سوريا والعراق فهو واضح وظاهر في أسبابه ونتائجه.

يعيش في إسرائيل طوائف دينية هي أقرب لداعش في التصورات

والسلوك وعلى رأسها التيار الديني القومي أو ما يسميه البعض الحريليديم، وهؤلاء صار منهم وزراء في الائتلاف الديني اليميني والذي يشبه في تصرفاته تحالف فرسان المعبد مع رينو دي شاتيون الملحد مع جاي لوزينيان ملك بيت المقدس والذي نتج عنه هزيمة حطين الشهيرة.

وكذلك هناك طائفة الحريديم بطوائفها والتي تجمع بين التشدد والتصوف والخرافات، وهي وإن بدأت معزولة لصغر العدد، إلا أنها بدأت تأخذ شكلًا آخر بعد حرب ١٩٧٣م، وصار لها أحزاب تمثلها في الكنيست، وصاروا جزءًا من صناعة القرار، ولكنه لصالح الطائفة قبل الدولة، ويكفي أن نعرف أن الطالب الحريدي يكلف الدولة ثلاثة أضعاف الطالب العادي، كما أن أبناء الطائفة يتقاضون إعانات ورواتب من مؤسسة التأمين الوطني، وهم لا يخدمون في الجيش ولا الشرطة.

هذا الأمر أدى وسيؤدي إلى صراع مع المجتمع العلماني الإسرائيلي، تبدى بعض صوره في حملات التأديب المجتمعي التي تقوم بها الطائفة الحريدية ضد من يخالفون التوراة علانية في المأكل والمشرب والاحتفالات.

والحق أن هذا العامل إن استمر بهذه الطريقة سيكون معولًا كبيرًا في هدم التجمع الاستيطاني الإسرائيلي، وهذه سنة بشرية، عانينا منها نحن، فقد سقطت دولة المرابطين لوجود جماعات تشبه جماعات الحريديم، وذلك في فترة وجيزة جدًّا.

في تحقيق لصحيفة هآرتس رصدت فيه الخلافات الدينية بين الطوائف في إسرائيل، رصدت في حالات كثيرة أن اليهودي الشرقي لا يصلي مع اليهودي الغربي لاختلاف صيغ الصلاة، مع أن الصلاة هي عماد الدين في كل الأديان.

وهناك حادثة شهيرة مفادها أن الجنود في الجيش لم يكن سهلًا عليهم مع التدريبات والحروب الصلاة على حسب طوائفهم، فاقترح الحاخام الأكبر بالجيش شلومو جورن فرض صلاة موحدة من كل الطوائف، ومن بعد انتقل الخلاف إلى الحاخام الإشكنازي الأكبر والسفاردي الأكبر حول هذه الصيغة الموحدة، والتي قال عنها حاخام السفارديم أنها لا تصلح لصلاة السفارديم، وطالب الجنود بالصلاة بالصيغة القديمة، ونشر صيغة الصلاة السفاردية بطريقة سرية بين الجنود.

ومن مواطن الاختلاف مسألة الزواج فيحرم على الحريدي السفاردي الزواج من إشكنازية، والعكس على حسب هآرتس، بل إن الصحيفة تذكر أن كتابًا وزع كفتوى في مدينة القدس وبني براك التي يقطنها الحريديم مفاد هذه الفتوى أن أبناء من يتزوجون سفارديم هم أبناء «حيض» أي أبناء نجاسة(١).

وتذكر الصحيفة في تحقيقها أن زواج الإشكنازي لا يعتبر مسجلًا إلا إذا وقع عند حاخام إشكنازي، ومثل ذلك عند السفارد، ومثل ذلك في مسألة تعدد الزوجات والذبح الشرعي، وتركيبة الخمر وغيرها من الأمور(٢).

فإذا أضفنا لذلك الممارسة الدرزية، والفلاشية، والاختلاف في تحديد من هو اليهودي الحقيقي سنجد أن التنازع الديني عامل قوي في إضعاف هذه المستوطنة؛ لأن المجتمع اليهودي في الغرب هو مجتمع إباحي إلى حد بعيد، وهو علماني في التصور والتطبيق، ولن يستطيع التعايش مع سطوة الفكرة الداعشية التي تكبر كل يوم في المستوطنة.

---

(١) أصل المسألة الاختلاف في تحديد أطول مدة الحيض، ومن ثم الطهر وجواز المعاشرة الجنسية، وهو يشبه الخلاف بين الأحناف والجمهور في شكله وليس في أثره.

(٢) التناقض بين السفارد والإشكناز: مقال للدكتور المسيري، منشور في الجزيرة نت بتاريخ ١٣/ ١٢/ ٢٠٠٧.

وفي نهاية هذا الفرع والذي تحدثنا فيه عن طبيعة المجتمع الإسرائيلي أنقل ما ذكره ماجد الكيلاني في كتابه «هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس» بشأن قوانين التغيير.

«في فترات الازدهار أو الانحطاط التي تمر بها الأمم تتساوى مستويات الأداء والإنجاز عند الأفراد والجماعات في ميادين الحياة المختلفة، وهذا يعني أن النجاح في فترات الازدهار وما يصاحبه من صفات الإخلاص والإتقان والأمانة والمسئولية والتعاون والتواصل لا تقف عند الميادين السياسية والعسكرية، وإنما تمتد إلى ميادين الثقافة والتدين والاجتماع والاقتصاد وغيرها، وهي لا تقتصر على طبقة القيادة الناجحة، وإنما تمتد لتشمل الهيئات الرسمية والشعبية سواء.

وفي المقابل لا يقف الفشل في فترات الانحطاط وما يصاحبه من صفات العجز والكسل والتفريط والخيانة والتقاطع والشح عند الميادين السياسية والعسكرية، وإنما يمتد إلى ميادين الحياة كلها، وهو لا يقتصر على القيادات الفاشلة المهزومة، وإنما يصيب مختلف قطاعات الأمة وجماعاتها»[(١)].

**ثالثًا: ضعف حبل الناس:**

لقد عبر القرآن عن أسباب رفع المذلة عن بني إسرائيل، ومن ثم وقوع النصر لهم، بحبلين: حبل اللَّه الذي غالبًا ما يكون في عصر أنبيائهم كموسى وداود وسليمان عليهم السلام، وحبل الناس وهو الدعم الخارجي الذي يكون به نصرهم أو رفع المذلة عنهم.

**فمثال الأول:** هزيمة الجيش المصري وغرقه، وهزيمة جيش جالوت، وهزيمة أهل أريحا.

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين (ص ٤٠٣).

**ومن الثاني**: رفع المذلة عن بني إسرائيل بانتصار الفرس على البابليين، أو دعم فرعون مصر لمملكة يهوذا ضد الآشوريين، أو دعم الفرس لهم ضد الرومان، ومنه أيضًا رفع المسلمين المذلة التي وضعها عليهم القوط في إسبانيا، أو إعطاؤهم ملاذًا في بلاد المسلمين زمن محاكم التفتيش.

ومع أن الفكرة اليهودية الصهيونية تقول أنهم شعب اللَّه، وأنهم موعودون بأرض كنعان، إلا أنهم هذه المرة لم يقع لهم حبل الرب، بل اعتمدوا على حبل الناس منذ تبلور الفكرة الصهيونية الحديثة.

لقد اعتمدت الصهيونية على ثلاثة أشياء في تسويق فكرة الوطن القومي:

١) فكرة الضحية.

٢) فكرة التخلص من العبء اليهودي في أوربا وروسيا.

٣) قوة مجموعات الضغط اليهودية.

هذه الأمور ناسبت الأوربيين الذين كانوا النواة الأولى لـ «حبل الناس» بريطانيا وفرنسا ومن خلفهما دول أوربية أصغر كهولندا وإيطاليا.

ولما ظهرت أمريكا باعتبارها قوة وارثة للاستعمار الأوربي الاستيطاني[1]، وجدت في المشروع الصهيوني عاملًا مساعدًا في مشروعها الإمبراطوري، فتبنت المشروع بخطوات متدرجة، حتى وصل إلى ذروته في عهود جونسون ونيكسون وريجان وبوش الابن كما بينا من قبل.

هذا بالإضافة إلى الدعم الأوربي، والرضا الروسي، وعدم المبالاة الصينية، كل ذلك أعطى إسرائيل أزهى فترات العلو، للحد الذي ظن فيه الكثير أن هذه الدولة الصغيرة تتحكم في هذه الدول الكبيرة وتوجه سياساتها، والحق

---

(١) تختلف طريقة الاستعمار الأمريكي عن الاستعمار الأوربي، فالأوربي كان يركز على الأرض أولًا ومن ثم الخيرات، أما الأمريكي فلا يعنيه الأرض، ولكن المقدرات والتبعية.

أن إسرائيل ما هي إلا مشروع استيطاني يقوم به رجل الشمال الأبيض في حق غيره من شعوب الجنوب، مستغلين عوامل داخلية في عالم الجنوب.

وما إسرائيل إلا مستوطنة متقدمة لهذا العالم، ومن خلالها تشكل خريطة المنطقة، ولذا حرص الراعي الغربي -أيًّا كان- على أمرين: بقاء المستوطنة قوية، وبقاء أعدائها ضعفاء ومتشاكسين، وقد نجح في ذلك لفترة طويلة.

لكن الذي حدث في الفترة الأخيرة أن الراعي والمستوطنة كليهما أصابهم الضعف الذي يصيب الأمم والممالك، والذي هو سنة قدرية لا فكاك منها ولا انفكاك عنها.

فهذه أوربا تصارع المرض، وهي بالقطع ليست أوربا الاستعمارية التي ساعدت إسرائيل في النشأة والتكوين والتطور.

فبريطانيا راعية الفكرة الصهيونية الأولى جردت من ممتلكاتها الاستعمارية، وقبلت أن تكون تابعًا لأمريكا، ولم يبق لها إلا بعض السلطان السياسي والاقتصادي على دول قليلة.

وفرنسا تواجه مشاكل كبيرة على المستوى الداخلي، وخسرت كثيرًا من مناطق نفوذها في أفريقيا لصالح روسيا والصين وتركيا، هذا بالإضافة إلى المشاكل الاجتماعية التي تؤجج المظاهرات وعمليات التخريب بصورة ملحوظة.

وألمانيا دولة تعاني من مشاكل سكانية، كما أنها في مرحلة تيه حول الهوية، فما بين ألمانيا بسمارك وفيلهم الثاني وهتلر، وألمانيا المدجنة يتيه الشعب الألماني، وفكرة جعله أسدًا بلا أنياب التي قام بها الأمريكان بعد الحرب العالمية، فكرة وقتية، صارت تزاحمها الأفكار اليمينية، وتغيرات الواقع السياسي الأوربي.

وإيطاليا دولة هي أقرب للعالم الثالث منها إلى غيره اقتصاديًّا واجتماعيًّا، وهي لا تملك نفعًا لأحد.

أما باقي الدول الأوربية فهي لا قيمة لها حقيقية في الصراع الإسرائيلي الإسلامي، بل إن منها ما يقف للفكرة الصهيونية في كثير من الأحيان مثل أيرلندا وإسبانيا والنرويج.

وبصفة عامة فأوربا الآن مشغولة بمشاكلها الاجتماعية والسكانية وتحديات الاقتصاد، وتمرد المستعمرات السابقة، بالإضافة إلى الخوف الطبيعي من قوة روسيا، لا سيما بعد الحرب الروسية الأوكرانية، التي استهلكت قدرًا كبيرًا من إمكانات القارة العجوز، وسهلت حركة التمرد عليها.

وإذا استمرت الحركة السكانية بصورتها في الثلاثين سنة الأخيرة، مع اطراد حركة الهجرة، فإن تغيرًا ديموغرافيًّا سيواجه القارة، وسيؤثر في مشاريعها القائمة والمستقبلية، والذي سيؤثر بدوره على دعمهم لإسرائيل.

أما الراعي الأكبر والأب الروحي لإسرائيل وهي الولايات المتحدة والتي ورثت مشروع دعم المستوطنة المتقدمة هذه، فهي ليست في أفضل حالاتها، وهي وإن كانت أفضل من أوربا، لوحدة الأرض، وبعد المسافة عن أعدائها، فإنها تواجه أيضًا تحديات اقتصادية متمثلة في نسبة الدين الذي لم يسبق له مثيل، وكذلك تناقضات اجتماعية، وحركة من التشدد واليمينية تهدد الغالبية المعتدلة.

كما أن التحديات الخارجية والمتمثلة في:

* روسيا الجديدة.
* الصين.
* الهند.

* تمرد بعض دول الباب الخلفي في أمريكا اللاتينية.

* الهزيمة السياسية والعسكرية في بعض مناطق النزاع كالعراق وأفغانستان.

* تحدي دول كانت تابعة يومًا مثل إيران وتركيا وبعض الدول العربية.

* ضعف الاستخبارات الأمريكية واعتمادها على الموساد فيما يخص دول الشرق العربي والإسلامي.

* حالة النفور العالمي من سطوة وتسلط أمريكا على المؤسسات الدولية.

وإذا أخذنا الأمم المتحدة نموذجًا سنجد أن الجمعية العامة قد تحدت الهيمنة الأمريكية في عشرات القرارات لا سيما فيما يخص فلسطين، وصارت أمريكا وإسرائيل لا تجدان إلا دولًا صغيرة ولا يسمع بها أحد تصوت معهما.

فمثلًا في التصويت على وقف إطلاق النار في غزة في ١٢ ديسمبر ٢٠٢٣ وافق على القرار ١٥٣ دولة وامتنع عن التصويت ٢٣ دولة، ولم تعارضه إلا عشرة دول منهم أمريكا ودولة الاحتلال ومن دول أوربا فقط النمسا والتشيك، وهذه كلها هزائم للسياسة الأمريكية، وعوامل ضعف في التأثير.

كما أن الولايات المتحدة تعاني من تحلل شديد في القضايا الأخلاقية واندفاع أعمى في اتجاه الليبرالية الانحلالية، والتي تتناقض مع قيم طوائف كثيرة مجتمعية.

إن نظرية الحكم في أمريكا نظرية انتهازية براجماتية، والوقت الذي ستجد فيه كلفة تأييد مستوطنة إسرائيل أكبر من نفعها ستتخلى عنها بلا شك، كما أن الاندفاع في تأييد المستوطنة ضد أعدائها سيأخذ أمريكا من القضايا الكبرى، وهو ما تسعى إليه روسيا والصين والهند وغيرهم، وما حرب أوكرانيا ببعيد عن

هذا، فما أن بدأت حرب غزة حتى سحب البساط من تأييد أوكرانيا إلى دعم المستوطنة الإسرائيلية، مع ما في هذا من تهديد للحرب في أوكرانيا، كما أن كلفة متابعة كل أعداء المستوطنة سيستهلك من قوة أمريكا.

هذا في الجانب السياسي والعسكري، أما في الجانب الشعبي فسنجد أن مستوطنة إسرائيل تخسر داعمين كل يوم، والرأي العام ينقلب ضدهم، ولم تعد بكائية الهولوكوست تأتي بنتيجة، بسبب الإجرام الصهيوني والذي فاق الهولوكوست، وبسبب سهولة المعرفة، ويكفي أن نعرف أن ما من مواجهة بين العرب وإسرائيل في العشرين سنة الماضية إلا وكان التعاطف الشعبي مع العرب.

المظاهرات التي تخرج ضد الاحتلال، والتصويت في الجمعية العامة، والجامعات التي تتمرد على سطوة جماعات الضغط، وخسارة الرأي العام في أجيال الشباب في أنحاء العالم، مع التعاطف مع الفلسطينيين واللبنانيين، وغيرهم من الضحايا، تجعل حبل الناس يضعف ويخسر خيوطه الرئيسة، يساعد في ذلك غباء حكام المستوطنة، واستعلاؤهم الذي أودى بهم طول التاريخ، وهو ما سيؤدي بهم في الكرة الثانية أيضًا.

أما آخر عناصر حبل الناس فهو مدد الهجرة، وقد كان هذا المدد قويًّا في بداياته، فعلى حسب صحيفة ذا تايمز أف إسرائيل، كان عدد سكان إسرائيل ١٩٤٨ حوالي ٨٠٦ آلاف نسمة، وهاجر إليها حوالي ٣.٣ مليون مهاجر وكانت حركة الهجرة الكبيرة في التسعينيات من القرن الماضي والتي مثلت حوالي ٤٥٪ من إجمالي المهاجرين بهجرات كبيرة للروس والأفارقة، ولكن في العشرين سنة الأخيرة بدأت وتيرة الهجرة تقل بنسبة كبيرة، وذلك على حسب إحصائيات دولة الاحتلال نفسها، ليس هذا فقط بل بدأت الهجرة

العكسية بأرقام كبيرة، وما كان خافيًا في الماضي صار معلنًا الآن، وعمد كثير من المواطنين في إسرائيل لمحاولة الحصول على جنسيات دول أخرى أوربية وآسيوية، وعلى حسب مقال في الجزيرة نت فإن عدد من هاجر من إسرائيل حتى عام ٢٠٢٢ حوالي ٩٠٠ ألف[١].

ووفق القناة ١٢ الإسرائيلية فإن عدد من تقدم بطلب تأشيرات للبرتغال زاد بنسبة ٦٨٪، وإلى فرنسا بنسبة ١٣٪، وألمانيا بنسبة ١٠٪، وبولندا بنسبة ١٠٪.

ودون حبل الناس لن تصمد إسرائيل أمام أعدائها بالقطع للأسباب التي ذكرناها، والتي يعوض حبل الناس بعضًا من آثارها السلبية.

**رابعًا: صحوة أعداء بني إسرائيل:**

بعد إنشاء مستوطنة إسرائيل تحول العداء اليهودي ليكون بين العرب والمسلمين واليهود بصفة عامة، مع وجود بعض الاستثناءات التي لا تجعل من العداوة محل شك.

وقد أفادت إسرائيل كثيرًا من ظروف أعدائها السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

فمثلًا في فترة النشأة كانت معظم الدول العربية محتلة من استعمار غربي فكان البريطانيون ما زالوا في مصر والأردن ومعظم دول الخليج، وكان لهم نفوذ كبير في العراق، وكانت فرنسا تحتل الجزائر، وتضع المغرب تحت الحماية، أما الدول الإسلامية فلم تكن أحسن حالًا؛ فقد استقلت باكستان سنة ١٩٤٧، وخرجت تركيا من معادلة القوة منذ الحرب العالمية الأولى، وإيران كانت تحت النفوذ البريطاني، لا سيما بعد عزل الشاه رضا بهلوي سنة ١٩٤١، ومن بعد سنة ١٩٤٦ صارت تحت النفوذ الأمريكي الذي تبدى جليًّا في

(١) الجزيرة نت: الهجرة العكسية للإسرائيليين، ١٤/ ١٢/ ٢٠٢٣.

الانقلاب على محمد مصدق ١٩٥٣، والذي قامت به المخابرات الأمريكية والبريطانية.

لقد كان ميزان القوة العالمية يميل لصالح الغرب المؤسس لمستوطنة إسرائيل، بل إن الاتحاد السوفيتي الذي كان مضادًّا للغرب كان على رضا من إسرائيل لأسبابه الخاصة، ومن ثم لم يكن لأعداء إسرائيل من العرب والمسلمين نصيب في ميزان القوة.

بعد استقلال الدول العربية والإسلامية كانت هناك منازلات مع المستوطنة الإسرائيلية، ولكن الغرب كان يضمن أمرين:

١ - التفوق الكاسح لإسرائيل في كل المجالات.

٢ - الضعف البين لأعداء إسرائيل، لا سيما دول الطوق.

كما أن الدول العربية والإسلامية انشغلت بحروبها الداخلية، فحرب مصر في اليمن، وخلاف سوريا مع الأردن، وحرب إيران مع العراق، وحرب العراق مع الكويت، وخلاف المغرب مع الجزائر، وحرب الأردن مع المنظمات الفلسطينية، وحرب سوريا في لبنان، إلى آخر ما سطره التاريخ وأزهقت فيه الأرواح، واستنفذت المصادر.

ومن ثم جاءت الطامة الكبرى بمعاهدات عربية وإسلامية إسرائيلية تحت ضغوط غربية، فرقت الصف العربي والإسلامي، وأضاعت معظم الحقوق، بل وحاولت التأثير على الرأي العام، والضمير الجمعي العربي والإسلامي، من خلال وسائل إعلام موجهة ومركزة.

ولكن الذي حدث أن فساد الحكم في أكثر البلاد العربية والإسلامية، مع استذلال العرب والمسلمين من قبل الغرب والشرق وإسرائيل، أدى إلى صحوة ذات موجات، منها ما هو معرفي، ومنها ما هو سياسي، ومنها ما هو

اجتماعي، ومنها ما هو أخلاقي، هذه الصحوة وإن مرت بحالات صعود وهبوط في مستواها وطريقتها إلا أنها وبفضل صمود الشعب الفلسطيني في أرض الرباط، ما زالت هذه الصحوة حية وتزداد حياة كل يوم؛ بل المتوقع أنها حتى وإن أخذت وقتًا إلا أنها لن تغير واقع المستوطنة الإسرائيلية فقط، بل ستغير نموذج الحكم والتحاكم في المنطقة.

وبغض النظر عن المدة التي ستأخذها الصحوة، والتحديات التي تقف في طريقها، لكنها صارت أمرًا واقعًا، وقدرًا كونيًّا مقدورًا، يفيد من ضعف أعدائها كما يفيد من قوتها الداخلية.

**ولعل من تجليات هذه الصحوة ما يلي:**

١- سقوط دكتاتوريات عربية وإسلامية كما حدث في إيران ١٩٧٩، وفي العراق، وديكتاتورية العسكر في تركيا.

٢- هزيمة الاتحاد السوفيتي في أفغانستان، ومن بعده أمريكا والحلف الغربي.

٣- الموجة الأولى من ثورات الربيع العربي، والتي تنبئ بموجة ثانية أكثر رشدًا وعقلانية.

٤- بطولة حركات المقاومة الصغيرة في عدد من الدول الإسلامية.

٥- تمرد أجيال الشباب على مخلفات العبودية والاستعمار الخارجي والمحلي.

٦- صعود قوة الجيوش الإسلامية مقارنة بعشرين سنة مضت، هذا الصعود المتمثل في العدة والعدد، والذي بدأ يقترب من نظائره الغربية.

٧- افتضاح وانكشاف الكثير من المؤسسات والجماعات والهيئات، بل والأفراد الذين كانوا أداة في إضعاف الأمة جملة، سواء كان ذلك في مجال

السياسة أو الدين أو السلوك الاجتماعي، والتوجيه المجتمعي، وسواء كان في صورته المغالية أم في صورته المفرطة، ولعل السنوات التي تلت فشل الموجة الأولى من الربيع العربي كانت كاشفة ومعرية للكثير من هذه المخدرات السياسية والدينية والاجتماعية.

٨- فشل مشاريع التطبيع مع المستوطنة الإسرائيلية، أو مع الأمر الواقع، مع ما بُذل حتى الآن من إسرائيل والغرب في هذا الاتجاه، لا سيما في جانب التطبيع مع الشعوب، والتي ما زالت تولد على كراهية فكرة المستوطنة وكراهية من يدعمها.

ولعل هذا هو أسوأ ما يواجه المشروع الصهيوني والفكر الأمريكي الذي استطاع أن يدجن قوى كبيرة مثل اليابان وألمانيا ويجعل منهما نموذجًا غريبًا من الكفر بالماضي، ومع ذلك فقد فشل فشلًا ذريعًا في حالة السياق العربي والإسلامي.

**خامسًا: هزيمة إسرائيل في المعارك الصغيرة:**

خاضت الدول العربية معارك خمسة كبيرة حتى الآن مع إسرائيل:

- حرب ١٩٤٨.
- حرب ١٩٥٦.
- حرب ١٩٦٧.
- حرب ١٩٧٣.
- حرب ١٩٨٢.

هذا بالإضافة إلى معارك كثيرة صغيرة، بعضها اتصل بالحروب الكبيرة، وبعضها كان منفصلًا عنها.

وللأسف في معظم الحروب السابقة انتصرت إسرائيل بصورة كلية أو جزئية، ويستثنى من ذلك حرب ١٩٧٣، التي هزمت فيها إسرائيل هزيمة كادت

تذهب بمعظم قوتها، لولا تدخل الولايات المتحدة وأوربا، وتداخل السياسي بالعسكري من قبل الجيوش العربية.

ركزت إسرائيل في حروبها مع أعدائها على الطريقة الألمانية في الحرب العالمية الثانية «الحرب الخاطفة»، وتعتمد هذه الحرب على عناصر المفاجأة والسرعة والتفوق في قوة النيران، وسهولة المناورة مع المواجهة الشاملة، حيث نجحت هذه الطريقة في حرب ١٩٦٧ بصورة مثالية، لم يكن يتوقعها أكثر المتشائمين من العرب، أو المتفائلين من إسرائيل ومن خلفها.

ولذلك تحاول إسرائيل دائمًا أن يكون في يدها زمام المبادرة، فتختار مكان وزمان وطريقة الحرب.

أما إذا اختلت هذه الشروط فإن الجيش الإسرائيلي لا يثبت ذات النجاح، بل في أحيان كثيرة يصاب بالفشل والهزيمة.

وهناك نماذج كثيرة للمعارك التي خسرها الجيش الصهيوني بسبب تغير ظروف المعركة، أو فقدان المبادئة، وأنا هنا لن أذكر حرب ١٩٧٣ التي كانت الهزيمة الأكبر في تاريخ إسرائيل منذ إنشائها، حتى وإن حاولوا أن يغطوا على هذا بما وقع بعد يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣، إلا أن الواقع العملي يثبت أنها هزيمة وكبيرة، ونتيجتها كانت ستكون كارثة لو لم يتدخل الغرب وأمريكا بصورة مباشرة.

لقد دارت معارك صغيرة في حجمها بين العرب وإسرائيل خلال سنوات النزاع والحرب، وفيها كان الانتصار للعرب والمسلمين بخلاف المتوقع، وذلك لأسباب على رأسها فقدان المبادرة وصورة الحرب الخاطفة، وسأذكر هنا فقط بعض الأمثلة:

**١- معركة جنين ١٩٤٨:**

وهذه كانت إحدى المعارك في حرب ١٩٤٨ بين القوات العراقية

والفلسطينية، وقوات الهاجاناه، حيث هاجمت الهاجاناه القوات العراقية بقوات أكثر عدة وعتاد، فاضطر الفوج العراقي المكلف بالتراجع إلى قلعة المدينة، وحاصر الصهاينة القلعة حتى أشرفت ذخيرة القوات المحاصرة على النفاذ، وهنا تحرك اللواء الخامس مشاة العراقي ومعه متطوعون فلسطينيون ووصل إلى المرتفعات المشرفة على جنين وضرب العدو من الخلف فأحدث به خسائر كبيرة، ومن ثم وصل الفوج الأول من لواء المشاة الرابع العراقي ودارت معركة كبيرة، انهزم فيها الهاجاناه وانسحبوا من جنين وخلفوا عددًا كبيرًا من القتلى يقدر بحوالي ٣٠٠ قتيل وجريح وخسارة الكثير من المعدات.

**٢- معركة تل النيرب ١٩٦٢:**

بعد حرب ١٩٤٨ سيطرت القوات الإسرائيلية على بحيرة طبريا باستثناء الجزء الشرقي الذي بقي تحت سيطرة القوات السورية بعد اتفاقية الهدنة سنة ١٩٤٩، وفي فترة لاحقة فكرت إسرائيل في تحويل مياه بحيرة طبريا ونهر الأردن لتستصلح بها الجزء الشمالي من صحراء النقب.

ونهر الأردن يتكون من عدة روافد مائية هي نهر الحاصباني اللبناني، ونهر بانياس السوري مرورًا ببحيرة الحولة، ثم بحيرة طبريا، ثم نهر اليرموك.

وبسبب هذا المشروع وكذلك بسبب الاعتداءات الإسرائيلية على المخافر السورية قامت القوات السورية بعمل خطة نفذت في يومي ١٦-١٧ من شهر مارس سنة ١٩٦٢، حيث قامت القوات السورية باستدراج القوات الإسرائيلية إلى قرية النقيب السورية، حيث زرعت المنطقة بالألغام المضادة للأفراد وللآليات، مع تمركز القوات السورية في مناطق إستراتيجية، وباندفاع القوات الإسرائيلية تم تدميرها بواسطة الألغام والقصف المدفعي المركز والشديد، وانتهت المعركة بهزيمة كبيرة، حتى لما حاول الجيش الإسرائيلي

بعد ذلك المهاجمة عن طريق قوارب من بحيرة طبريا تم تدميرها.

ويصف العقيد عبد الكريم النحلاوي ما حدث في برنامج شاهد على العصر وأن إسرائيل حركت لواء مدرعًا من مستعمرة عين كيف باتجاه الشمال في سهل طبريا، ولواء مدرعًا من الشمال مع زوارق حربية من البحيرة لاحتلال المرتفعات شرق بحيرة طبريا، واستدرجت تلك القوات لمنطقة حقول الألغام، وفتح الجيش السوري نيران المدفعية على القوات المتقدمة وعلى المستوطنات الشمالية بطول سبعين كم من حدود لبنان إلى حدود الأردن، ونتيجة للخسائر الكبيرة طلبت إسرائيل لثلاث مرات وقف القتال وقبل الجيش السوري ذلك في المرة الثالثة.

**٣- معركة رأس العش ١٩٦٧:**

بعد ثلاثة أسابيع من الهزيمة الكبرى للجيوش العربية في حرب ١٩٦٧ بسبب الحرب الخاطفة التي قامت بها إسرائيل، وفي الأول من يوليو ١٩٦٧، تقدمت قوة مدرعة إسرائيلية على امتداد الضفة الشرقية لقناة السويس محاولة الوصول لبور فؤاد ومن ثم بورسعيد أكبر مدن وموانئ المنطقة، وعندما وصلت إلى منطقة رأس العش جنوب بور فؤاد، كانت هناك قوة مصرية من ثلاثين فردًا من قوات الصاعقة ومعهم أسلحة خفيفة، وكانت القوة الإسرائيلية مكونة من عشر دبابات وعدد من العربات المجنزرة وقوات مشاة ميكانيكية.

استطاعت قوات الصاعقة بالأسلحة الخفيفة أن تأخذ المبادرة ودمرت ثلاث دبابات في الجولة الأولى من الهجوم، وبعد أن حاولت القوات الإسرائيلية أخذ المبادرة والمهاجمة مرة أخرى من الأجناب وبالمواجهة، تكبدت خسائر فادحة، وانتهت المعركة بهزيمتها، بل إن الجيش الإسرائيلي لم يحاول احتلال بور فؤاد من الجهة الشرقية مرة أخرى.

### ٤- معركة الكرامة ١٩٦٨:

جرت معركة الكرامة يوم ٢١ مارس ١٩٦٨ على الأراضي الأردنية بين القوات الأردنية والفلسطينية والجيش الإسرائيلي، وقد جاء الهجوم الإسرائيلي ردًّا على تصاعد هجمات المقاومة الفلسطينية.

وعلى العكس من الهجوم الخاطف المباغت فقد أعلن ليفي أشكول في ٢٠ مارس ١٩٦٨ أمام الكينيست نية الجيش للهجوم كما أنه أعلم عن السبب الظاهر للهجوم، وهو الرد على هجمات المقاومة، ولكن السبب الحقيقي هو محاولة السيطرة على المرتفعات الشرقية والاقتراب من العاصمة الأردنية، واستعمال ذلك للضغط والمساومة في المستقبل.

هاجمت إسرائيل بقوة لواء مدرع، ولواء دروع، ولواء مشاة، ولواء مظليين، بالإضافة إلى خمسة كتائب مدفعية، وأربعة أسراب طائرات، ومروحيات للنقل والإغاثة، وهذه بلا شك قوات كبيرة.

وقعت المعركة عند بلدة الكرامة الموجودة بين الحدود الفلسطينية والأردنية على نهر الأردن، وانتهت بهزيمة كبيرة للقوات الإسرائيلية فقتل ما لا يقل عن ٢٥٠، وجرح ٤٥٠، وتم تدمير ٤٧ دبابة و١٨ ناقلة جند، و٢٤ سيارة مسلحة، و١٩ سيارة شحن، وتم إسقاط ٧ طائرات، على حين سقط ١٨٥ شهيدًا أردنيًّا وفلسطينيًّا، و٢٠٠ جريح، ودمر عدد قليل من الدبابات والمدرعات.

لقد كانت معركة الكرامة أكبر هزيمة لحقت بإسرائيل منذ إنشائها وحتى هذا التاريخ (١٩٦٨)، وقد دفعت فيها ثمن الغرور، كما أنها فقدت عنصر المبادرة التي كانت تنتصر به، ومن يراجع شهادات الجنود والقادة الإسرائيليين يعلم فداحة الهزيمة، لدرجة أن إسرائيل طلبت وقف إطلاق النار في الساعة الحادية عشرة والنصف صباحًا، ولم يقبل الأردن ذلك إلا بعد ساعات، بل إن

القوات الإسرائيلية كانت تحت الحصار الكامل حتى مساء ذلك اليوم، ولولا خشية تدخل قوى خارجية لكانت الخسائر أكبر وأقسى بكثير.

**٥- معركة لبنان الثانية ٢٠٠٦:**

هذه المعركة استمرت ٣٤ يومًا، وبدأت بأسر حزب اللَّه اللبناني الشيعي عددًا من الجنود الإسرائيليين لمبادلتهم بالأسرى اللبنانيين في سجون إسرائيل، الأمر الذي أدى لأن تقوم إسرائيل بهجوم كبير على جنوب لبنان والضاحية الجنوبية في بيروت، والنتيجة أن إسرائيل خسرت المعركة، وانسحبت القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان، ونتيجة لذلك استقال وزير الدفاع الإسرائيلي، ورئيس الأركان، وعدد من الضباط، هذا بالإضافة إلى مئات القتلى، وآلاف الجرحى وخسارة في العتاد.

ومع أن أعداد الشهداء في لبنان كان أكثر إلا أن موازين القوى اعتدلت لصالح العرب والمسلمين، ولم تقم إسرائيل بعدها بهجمات ذات أهمية في لبنان، بل باتت تحسب حسابًا للجبهة الشمالية.

**٦- معركة طوفان الأقصى ٢٠٢٣:**

وهي هجوم قامت به المقاومة الفلسطينية انطلاقًا من غزة يوم ٧ أكتوبر ٢٠٢٣، وجاءت ردًّا على اعتداءات الإسرائيليين على الأقصى وخصوصًا على النساء.

وبدأت بهجوم صاروخي كبير وواسع النطاق طال كل مناطق فلسطين حتى الشمال، وتبعه مباشرة اقتحام بري بالسيارات والدراجات النارية والطائرات الشراعية لمنطقة غلاف غزة، وهاجم المقاومون فرقة غزة الإسرائيلية، وهي من المفترض أن تكون من أقوى الفرق.

وكذلك هاجموا مستوطنات سديروت ونتيفوت وأوفاكيم، وانتهى اليوم

بعدد كبير من القتلى والجرحى، وعدد كبير من الأسرى الذين عادت بهم المقاومة لغزة، وتم تدمير عدد كبير من أسلحة العدو، بل وأخذ بعضها غنائم.

ولكن أهم ما وقع هو الحصول على معلومات استخبارية كثيرة ومهمة تخص الجيش الإسرائيلي، وقائمة بعملائه في الأراضي الفلسطينية، كما تم أسر ضباط كبار في الجيش لمبادلتهم بأسرى فلسطينيين.

يعد هجوم طوفان الأقصى نموذجًا عمليًّا لعملية الحرب الخاطفة حيث تكاملت كل الأسلحة في وقت واحد، وعلى الرغم من ضعف الإمكانات العسكرية، إلا أن النجاح في العملية كان علامة فارقة من الناحيتين التكتيكية والإستراتيجية، والهجوم يعطي الأمل في نجاح العمليات الصغيرة والقريبة من الكتلة السكانية الكبرى لمستوطنة إسرائيل، ولأهمية وخطورة هذا الهجوم فقد هبت الدول الغربية لتدافع عن المستوطنة الإسرائيلية لدرجة أن الولايات المتحدة حركت حاملتي طائرات للمنطقة وعدة سفن حربية، وأقامت جسرًا جويًّا لتقديم المساعدات لإسرائيل.

هذه فقط بعض النماذج لمعارك صغيرة كان لها أثر كبير في الصراع على فلسطين وهي مؤسسة وكاشفة.

مؤسسة لطريقة حرب تناسب الواقع الذي تورط فيه الشرق بوجود مستوطنة متقدمة للاستعمار الغربي.

وكاشفة لهشاشة القوة الإسرائيلية والغربية في مواجهة قوى صغيرة ذات إرادة وتخطيط وتسليح مناسب لميدان المعركة.

**سادسًا: خسارة إسرائيل معركة الوعي:**

لقد كان التأثير في الرأي العام أحد أسلحة إسرائيل الرئيسية، مستغلين في ذلك عدة عوامل، على رأسها مأساة الهلوكوست التي قام بها النازيون في

الحرب العالمية الثانية، والتي صورت بطريقة مؤثرة جدًّا من خلال أفلام توثيقية تعرض معاناة الجماعات اليهودية والغجر في معسكرات الاعتقال من الجوع والبرد والمرض وسوء المعاملة، وكذلك من خلال تصوير أفران الغاز، وأجران القتلى من الرجال والنساء والأطفال، وخنادق الدفن الجماعية.

يضاف إلى ذلك ما قامت به الرواية اليهودية السردية والتي تظهر معاناة اليهودي في بلاد الغرب في العصور الوسطى، وذلك من خلال روايات وأفلام روائية، ومقالات دعائية، أدت إلى التعاطف الإنساني في بعض الأحيان، والذي كنا نحن المسلمين جزءًا منه لدرجة أن فتح المسلمون بيوتهم وأسواقهم واقتسموا حواضرهم وقراهم، مع الجالية اليهودية، وصار الحي اليهودي في المدن الكبيرة علامة معروفة، وسمح لهم بالسيطرة على أسواق كثيرة كأسواق الذهب والأقمشة.

استطاعت الدعاية الصهيونية في إشعار المواطن الغربي العادي بالذنب، وتوافق هذا مع مصلحة سياسية لدى حكام هذا المواطن، ومن ثم فازت الصهيونية في معركة الوعي في مرحلة النشأة.

وفي مرحلة التطور استطاعت إسرائيل أن تعطي نموذجًا متفردًا في محيطها الإقليمي، يمثل قدرًا كبيرًا من الديمقراطية، والتعددية، وقدرًا أكبر في حرية الصحافة، وقدرًا جيدًا في نموذج التطور الصناعي والتجاري في كافة المجالات، لا سيما في مجال التكنولوجيا والإبداع.

على حين أن أعداءها على العكس من ذلك في الأعم الأغلب، فهي مجتمعات لا تمارس الديمقراطية، ولا العدالة الاجتماعية، ونسبة الفقر المادي والتعليمي فيها كبيرة، ولم تقدم منذ نشأة إسرائيل -مقارنة بها- شيئًا مهمًّا للبشرية سوى بعض المواد الأساسية كالبترول.

هذا بالإضافة إلى النزاعات الداخلية وتفشي ظواهر الجنوح الفكري فتارة تتبنى الماركسية، وتارة تتبنى الرأسمالية، وتارة تتبنى التشدد الديني، وتارة تتبنى العلمانية الجاهلة.

استطاعت أيضًا إسرائيل أن ترسم صورة أعدائها في أذهان المتابعين، فهم أصحاب الجمال، الذين يمتلئون أموالًا ينفقونها على ملذاتهم في باريس ولندن ولاس فيجاس، وهم أيضًا المتخلفون علميًّا الذين يتعيشون على المنتج الغربي ولا يحسنون استعماله، وهم أيضًا البرابرة الذين يعادون الحضارة، ويقهرون المرأة في التعليم واللباس، وهم الذين يعادون الغرب ويسعون في تدميره بالأصولية والهجرة، وهم القتلة الذين يحرقون ويذبحون ويستحلون كل شيء غنيمة، ولو جاءتهم الفرصة لعادوا لعهود العبودية والاسترقاق.

كل هذا وغيره شكل جزءًا من الوعي الغربي بل والعالمي، ولكن هذه الصورة النمطية للتفوق الإسرائيلي الحضاري والمادي والتخلف العربي والإسلامي، انكسرت واستحالت إلى صورة عكسية، رفعت الغطاء وكشفت المستور لدى الكثير، منهم الشعوب الجنوبية المقهورة بذات الأدوات التي تستعملها إسرائيل مع العرب والفلسطينيين، ومنها أجيال جديدة من الشعوب الغربية، لا سيما من جيل الشباب، الذي صار يرى ويسمع خارج منظومة الفساد والإفساد الإسرائيلي والغربي الذي يتبناه أهل الحكم.

ولقد ساعد في رفع الغطاء عن الوجه القبيح لمستوطنة إسرائيل عدة عوامل منها:

١ - صلف وعنجهية الاحتلال، النابع من عقلية «لا نسأل عما نفعل وهم يسألون» فالكل يقف في القفص، ويحاكم بالميزان، إلا إسرائيل، فالعرب والمسلمون يمنع عليهم امتلاك الأسلحة النووية، ويسمح لإسرائيل بامتلاك

ما يفوق احتياج قارة كاملة مثل أستراليا، ويصير هذا منطقيًّا ومقبولًا وسائغًا، فالحلال والحرام، والمباح والمحظور هنا ليس له معيار واحد، وقاعدة مطردة، بل معايير مختلفة يضعها المحرم والمحلل، وهذا لعمري إن قبل من جيل العجائز الذين ما زالوا يذهبون إلى الكنيسة الغربية الإنجيلية أو الكاثوليكية وينتظرون المسيح المخلص لتبدأ الألفية المسيحية، أو الذين يذهبون إلى المعبد اليهودي ويطربون لسماع آيات العهد القديم وأسفار الأنبياء التي تبشر بالمشيح الذي سيربط ملكوت السماء بملكوت الأرض لصالح بني يهود، أقول: إن هذا يعتبر من الخرافات عند الكثير من أجيال الشباب المسيحية، واليهودية، التي لا تقنع بالموروث، وإنما تسأل وتتساءل وتشك في كل شيء مع حالة تمرد على السياسيين المتاجرين بالمبادئ أيًّا كانوا.

هؤلاء الشباب لا يتسامحون مع الصلف الصهيوني، ونحمد اللَّه أنه ما زال يحكم العقلية الحاكمة في إسرائيل وفي أمريكا بطبيعته الصهيونية.

٢- حالة الكذب البواح التي تحكم السياسة الإسرائيلية، وهذه وإن كانت هي الأصل عند المجتمع الصهيوني الذي يفعل مبدأ التقية بكل أشكاله، إلا أنه كان مستورًا لفترات كثيرة، فما كان يصدق من قبل منهم صار مفضوحًا الآن، ساعد في هذا الانفتاح الإعلامي العالمي.

ولنقارن مثلًا بين ردة الفعل على مجزرة بحر البقر في ٨ أبريل ١٩٧٠، وبين الهجوم على مستشفى المعمداني في غزة ٢٠٢٣، ففي الأول كذبت إسرائيل وادعت أن المدرسة كانت مستودعًا للأسلحة، ومكان تدريب لعناصر المقاومة في حرب الاستنزاف، ولم تقع حتى إدانة في مجلس الأمن، أما في الثانية ومع انكشاف الغطاء فقد هوجمت إسرائيل من الجميع، وقامت مظاهرات في جميع أنحاء العالم، وطلبت إسرائيل من رعاياها مغادرة بعض

البلدان وتقييد الحركة في بعضها، وانتشرت الصور في كل وسائل الإعلام في غضون ساعات.

حالة الكذب البواح الإسرائيلي دفعت الجميع إلى انتظار بيانات المقاومة سواء في فلسطين أو لبنان أو غيرها، ولم تعد بيانات الجيش الإسرائيلي أو الحكومة ذات مصداقية حتى لدى المجتمع الاستيطاني في فلسطين.

٣- البربرية الإسرائيلية في مقابل الأخلاق الإسلامية:

لقد استفادت إسرائيل من قبل من بعض الحوادث التي كانت تقع من بعض فصائل المقاومة ضد المدنيين، لا سيما حوادث خطف الطائرات أو مهاجمة الباصات، وكانت تصدر ذلك على أنه تصرفات بربرية عربية وإسلامية ضد مدنيين.

لكن في الفترة الأخيرة ومع سيطرة اليمين القومي واليمين الديني، تحولت تصرفات إسرائيل لما يشبه داعش، لا سيما مع أمن العقوبة، لدرجة أنها لم تعد تعبأ حتى بمصالح أمريكا الأب الروحي، ومدى الضرر الذي يمكن أن يقع عليها.

والحقيقة أن التصرفات البربرية بعد فترة تتحول إلى شهوة وطريقة حياة، وهذه التصرفات هي التي أودت بممالك يهوذا وإسرائيل من قبل، وحولتهم لحالة الشتات والمهانة لقرون.

لقد بدأ جيش نابليون بصورة منضبطة، وبعد أن جرب البربرية في الشرق، رجع واستعملها في الغرب حتى كانت نهايته، ومثله جيش هتلر بعد أن جرب البربرية في بولندا صارت سمة له في روسيا ويوغوسلافيا واليونان وغيرها، ومثل ذلك الفرق بين أول القتال في فيتنام من قبل القوات والمدربين الأمريكان، وما آل إليه من بربرية وهمجية، ومثله في العراق كما رأينا في

الفلوجة والرمادى، وغيرهما.

تحول السلوك الصهيوني إلى حالة من البربرية، وهي مكشوفة يراها ويسمعها القاصي والداني، وهذه البربرية تتم ضد نساء وأطفال وعباد في المساجد، وضد مدارس وطرق وجسور وحقول ومستشفيات، وضد أفراد ومبانٍ، حتى صار سلوكهم نازيًّا، ومن كان سلوكه نازيًّا فلن يفلت بالضرورة التاريخية من مصير النازية أو النابليونية.

وفي مقابل ذلك نجد المظهر الإسلامي والعربي الذي صار أكثر انضباطًا، حتى إن الأسير لدى المقاومة جلعاد شاليط مثلًا يبقى في الأسر خمس سنوات وفيها قتل الآلاف من الفلسطينيين دون أن يضايقه أحد، ولعل شهادات الأسرى المفرج عنهم بعد الأسر بعد طوفان الأقصى تؤكد ذلك، وسأنقل فقط شهادة أحدهم كما جاءت في القناة الإسرائيلية، قالت: «إن الحراس كانوا يحموننا بأجسادهم من القصف»، وقالت: «عندما كنا نسألهم عما إذا كانوا سيقتلوننا، كان ردهم: نموت نحن قبل أن تموتوا». وفي ردها على سؤال: كيف كانت تقضي وقتها في الأسر؟ قالت: «كنت ألعب مع أبنائي، وابنتي كانت تمارس الرياضة طوال الوقت، حتى إن أحد الحراس قام بمبارزة الأيدي معي، لكنه وضع منشفة قبل ذلك على يده»، وعندما سئلت عن السبب قالت: «لقد كانوا يحترمون المرأة، المرأة عندهم مقدسة ولا يجوز لمسها، بالنسبة لهم ملكة»[1].

٤- اعتماد إسرائيل في إيصال صورتها وفي تواصلها مع العالم العربي والإسلامي على مجموعة من المنبوذين والفاسدين، سواء كانوا حكامًا أم كانوا من الإعلاميين، وهذا الأمر وإن خدم إسرائيل أمنيًّا لبعض الوقت، إلا أنه

(١) الجزيرة نت، بتاريخ ٢٤/ ١٢/ ٢٠٢٣ مقابلة مع تشين جولد شتاين.

الآن صار مما يفضح المشروع الصهيوني، وتحول إلى عبء عليه.

فهؤلاء الحكام بفسادهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي، بل والأخلاقي أحيانًا، يصنفون على أنهم عملاء لإسرائيل، وحلفاء لها، وسينال إسرائيل إثم الحلف حتى لو لم تفد منه، ومثل ذلك عن الإعلاميين الذين يتأكَّلون على موائد التطبيع، لا تجد فيهم لا حصيفًا ولا حتى مخلصًا لفكرة التطبيع مع إسرائيل، بل مجموعة من المرتزقة، وأبناء كل العصور، وهذه خيبة إسرائيل والغرب بصفة عامة، فتبقى صورة إسرائيل والغرب ذات الصورة القبيحة، ويزيد عليها جريمة دعم الفاسدين، فتتأكد العداوة بين إسرائيل وبين الضمير الجمعي العربي والإسلامي، ويصير القرب من إسرائيل والبعد عنها هو معيار القبول والرد.

**سابعًا: فشل مشروع التطبيع:**

من ينظر في التاريخ البشري ويراجع تجارب التطبيع بين الشعوب المتعادية لا سيما بعد فترات الحروب، يجد أنها في الأعم الأغلب لا تأخذ زمنًا طويلًا سواء في مستواها الرسمي أو الشعبي.

فإذا أخذنا مثلًا الدول المتحاربة في الحرب العالمية الثانية باعتبارها من أشد الحروب في التاريخ البشري، نجد أن ألمانيا قد طبعت مع فرنسا على الرغم من تاريخ الحروب الطويل من عهد نابليون الأول والتي ولدت العداوة الألمانية الفرنسية والانتقام المتبادل، والتي أكدتها الحرب البروسية الفرنسية (تعرف بحرب السبعين)، ومرورًا بالحرب العالمية الأولى ومعاهدة فرساي، وإذلال الفرنسيين للألمان في العشرينيات من القرن الماضي، وصولًا لاحتلال فرنسا من قبل ألمانيا سنة ١٩٤٠، ولمدة خمس سنوات.

بعد هزيمة ألمانيا بدأت عمليات التطبيع، بل صارت فرنسا وألمانيا

عضوين في حلف واحد لمواجهة روسيا، والآن هناك تعاون ألماني فرنسي في معظم المجالات تقريبًا.

ومثل ذلك يقال عن بريطانيا وفرنسا والتي استمرت الحروب بينهما لقرون في الأراضي والبحار وفي المستعمرات، بل إن بريطانيا هي التي قادت الحلفاء في حربهم ضد فرنسا النابليونية، ومع ذلك فقد طبع الفرنسيون والبريطانيون العلاقات على المستوى الشعبي والرسمي، وصاروا حلفًا واحدًا في الحربين العالميتين الأولى والثانية، ومن بعد جزءًا من حلف شمال الأطلسي والاتحاد الأوربي، حتى خرجت منه بريطانيا، وما زال التطبيع قائمًا.

ومثل ذلك قل عن إيطاليا من جانب واليونان وألبانيا ويوغوسلافيا، كل على حدة من جانب، فقد خربت إيطاليا موسيلني الكثير من هذه البلاد، ومع ذلك طبعت العلاقات بينهم، وبعضهم صار حلفًا واحدًا.

حتى بين الدول التي ما زال بينها اختلاف مصالح سياسي مثل روسيا ودول أوربا الغربية، لا نجد هذه الكراهية الشديدة بين الشعوب، كما أن العلاقات الاقتصادية متواصلة بينهم، ونفس الأمر نجده بين الصين وأمريكا.

أما في حالة مستوطنة إسرائيل والدول العربية والإسلامية، فالأمر مختلف، فعلى المستوى الشعبي هناك إجماع على كراهية المستوطنة تتوارثه الأجيال، بل يزيد مع الزمن، ولا يقتصر على جيل الحروب الكبيرة، إجماع لا يرد عليه طنطنة قلة معزولة شعبيًّا هنا وهناك، مع اتهام مستقر ودائم لها بالعمالة.

وعلى المستوى السياسي فمنذ إنشاء دولة إسرائيل قوطعت إسرائيل إسلاميًّا وعربيًّا، ومع أن تركيا الأتاتوركية قد أقامت علاقات مع إسرائيل سنة ١٩٤٩ أي في مرحلة مبكرة وبينهما تعاون اقتصادي، إلا أن هذا لم يؤثر مع طول المدة على الرفض الشعبي والذي يمثل أغلبية الأتراك.

أما عربيًّا فقد طبعت مصر مع إسرائيل سياسيًّا سنة ١٩٧٩م، ومع ذلك فالرفض الشعبي بعد عشرات السنين ما زال بقوته رغم محاولات إسرائيل وأمريكا اختراق هذا الإجماع، يظهر ذلك جليًّا في الصحافة والفن وفي النقابات والرياضة وغير ذلك.

وطبعت الأردن بعد اتفاقية أوسلو ومع ذلك فالمجتمع الأردني يزداد كرهًا لهذه المستوطنة، ولا يترك فرصة إلا وعبر عن ذلك.

ومثل ذلك قل عن الدول التي أقامت علاقات مع إسرائيل وجمدتها مثل موريتانيا وعمان وتونس، أو تلك التي أقامت علاقات مؤخرًا مثل المغرب والسودان.

لقد استثمرت الولايات المتحدة وإسرائيل في محاولة التطبيع الكثير من الوقت والمال والمساعدات العسكرية وغيرها، ولكن النتيجة تظهر جليًّا، وبصورة تلقائية عند أبسط الأشياء مثل رؤية العلم الإسرائيلي مثلًا، أو حتى ذكر كلمة إسرائيل، وهذه أبسط الأشياء، حينها تجد كل مخزون السخط والكره قد خرج، وكل يعبر عنه بطريقته.

لقد وقفت الإمبراطورية الأمريكية خلف ما يعرف بصفقة القرن، وهي عملية تطبيع شاملة وقتل للقضية الفلسطينية والعربية في فلسطين، وحشدت لذلك كل قواها، بما فيها صنائعها في البلاد العربية والإسلامية، مستغلة في ذلك لحظة ضعف تاريخي، لا نكاد نرى مثله على مر التاريخ على المستوى العربي والإسلامي، حيث الهزيمة في أغلب الجبهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ومع ذلك فشل هذا المشروع، وسبب الفشل واضح جدًّا وهو يتلخص في كلمة «إسرائيل» فهذه الكلمة كفيلة بتنفير كل عربي وكل مسلم، والأفضل لأمريكا وإسرائيل أن يكفا عن المحاولة وأن يتمثلا قول حيي بن

أخطب «من يغالب اللَّه يغلب»(١).

إن من يقارن بين حالة أمريكا وفيتنام والحرب المدمرة التي قضى فيها البشر والزرع والضرع بالملايين، وما تبع ذلك من عملية تطبيع، بل واستثمارات متبادلة، من يقارن هذا وحالة الرفض العربي والإسلامي المستمرة لمستوطنة إسرائيل رغم الإغراءات، لا بد أن يعرف المستقبل جيدًا، وأنه لا مكان لإسرائيل في عقل أو قلب عربي أو مسلم مهما حاولت أو حتى تغيرت.

وفي نهاية هذا المبحث أود أن أقرر وبصورة واقعية وليست حالمة أو رجائية، أن مستقبل الصراع لصالح صاحب الأرض، ولصاحب العدد ولصاحب الاعتقاد.

ليس هذا فقط باعتباره وعدًا دينيًّا مثل فتح فارس والروم والقسطنطينية والذي تحقق، وإنما أيضًا لأنه يقوم على أسس وسنن التدافع والتغيير، وسنن النصر وأسبابه.

ستهزم فكرة مستوطنة إسرائيل قطعًا.

وسيتخلى عنها الغرب حين يحين الوقت قطعًا.

وستئول الأرض وما عليها لمالكيها الأصليين قطعًا.

وسيتحقق وعد الآخرة بتفاصيله القرآنية قطعًا.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾(٢).

***

(١) قالها حيي حين نفذ فيه حكم الإعدام جزاء خيانة ميثاق المدينة، فقال للنبي: «أما واللَّه ما لمت نفسي في معاداتك، ولكن من يغالب اللَّه يغلب» ثم قال: «يا أيها الناس لا بأس قدر اللَّه وملحمة كتبت على بني إسرائيل».

(٢) سورة الإسراء: ٥١.

# فهرس المصادر والمراجع


١- إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، شمس الدين السيوطي المنهاجي، تحقيق/ أحمد رمضان أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ١٩٨٢م.

٢- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، لشهاب الدين البنا الدمياطي، تحقيق/ أنس مهرة، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

٣- أحكام القرآن، لأحمد بن علي الرازي الجصاص، تحقيق/ محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤٠٥هـ.

٤- إخبار العلماء بأخبار الحكماء، لجمال الدين القفطي، تحقيق/ إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

٥- أخبار مكة، لأبي الوليد الأزرقي، تحقيق/ عبد الملك دهيش، مكتبة الأسدي، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

٦- الإخطبوط الصهيوني وخيوط المؤامرة لابتلاع فلسطين، السيناتور الأمريكي جاك تني، علق عليه وقد له/ هشام عوَّاض، دار الفضيلة- القاهرة، ٢٠٠١م.

٧- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، دار المصحف- مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد – القاهرة.

٨- الأصمعيات، لعبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الأصمعي، تحقيق/ أحمد محمد شاكر - عبد السلام محمد هارون، دار المعارف-

مصر، الطبعة السابعة، ١٩٩٣م.
٩- الأصول الخمسة، المنسوب إلى القاضي عبد الجبار بن أحمد الأسد آبادي، د. فيصل بدير عون، مطبوعات جامعة الكويت، لجنة التأليف والتعريب والنشر، مجلس النشر العلمي، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
١٠- إعراب الجمل وأشباه الجمل، للدكتور فخر الدين قباوة، دار القلم العربي – حلب، الطبعة الخامسة، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.
١١- إعراب القرآن، لأبي جعفر النحاس، تحقيق/ عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ.
١٢- إعراب القراءات السبع وعللها، لأبي عبد اللَّه الحسين بن أحمد بن خالويه، تحقيق/ د. عبد الرحمن العثيمين، مكة المكرمة - جامعة أم القرى، مكتبة الخانجي – القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.
١٣- إعراب القراءات الشواذ، لأبي البقاء العكبري، تحقيق/ محمد السيد أحمد عزوز، عالم الكتب- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
١٤- أمالي ابن الشجري، لضياء الدين أبي السعادات هبة اللَّه بن علي بن حمزة، المعروف بابن الشجري، تحقيق الدكتور/ محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي- القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ-١٩٩١م.
١٥- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، لعبد الرحمن العليمي الحنبلي، تحقيق/ عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس - عمان، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
١٦- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين عبد اللَّه بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، تحقيق/ محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار

إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ.
١٧- إيجاز البيان عن معاني القرآن، لمحمود بن أبى الحسن بن الحسين النيسابوري، تحقيق/ د. حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.
١٨- إيضاح الوقف والابتداء، لأبي بكر الأنباري، تحقيق/ محيي الدين رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية- دمشق، ١٣٩١- ١٩٧١م.
١٩- بحر العلوم، لأبي الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي، تحقيق/ د. محمود مطرجي، دار الفكر – بيروت.
٢٠- البحر المحيط، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق/ عادل أحمد عبد الموجود - علي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ- ٢٠٠١ م.
٢١- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لأبي العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني، تحقيق/ أحمد عبد اللَّه القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، ١٤١٩هـ.
٢٢- البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق/ د. عبداللَّه بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ- ١٩٩٧ م.
٢٣- بنو إسرائيل، للدكتور محمد بيومي مهران، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩م.
٢٤- بنو إسرائيل في القرآن والسنة، للدكتور محمد سيد طنطاوي، القاهرة، ١٩٦٨م.
٢٥- تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمّد مرتضى الحسيني الزَّبيدي، تحقيق/ جماعة من المختصين، من إصدارات: وزارة الإرشاد والأنباء

في الكويت - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، أعوام النشر: (١٣٨٥ - ١٤٢٢ هـ) = (١٩٦٥ - ٢٠٠١ م).
٢٦- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق/ د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
٢٧- تاريخ بيت المقدس، لابن الجوزي، تحقيق/ محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة.
٢٨- تاريخ دمشق، لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة اللَّه المعروف بابن عساكر، تحقيق/ عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
٢٩- تاريخ الرسل والملوك، لأبي جعفر الطبري، دار التراث - بيروت، الطبعة الثانية - ١٣٨٧ هـ.
٣٠- تاريخ القدس، لعارف باشا العارف، دار المعارف - القاهرة، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.
٣١- تاريخ الكعبة المعظمة، لحسين بن عبد اللَّه باسلامة، تعليق يوسف بن علي الثقفي، طبعة خاصة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
٣٢- تاريخ اليعقوبي، لأحمد بن أبي يعقوب بن جعفر المعروف باليعقوبي، دار صادر - بيروت، الطبعة السادسة، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
٣٣- التبيان في تفسير القرآن، لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق/ أحمد حبيب قصير العاملي، مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ.
٣٤- التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤ م.

٣٥- التسهيل لعلوم التنزيل، لأبي القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد اللَّه بن جزي الكلبي، تحقيق/ د. عبد اللَّه الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ.
٣٦- تفسير الجلالين، لجلال الدين محمد بن أحمد المحلي، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الحديث – القاهرة، الطبعة الأولى.
٣٧- تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل)، لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، تحقيق/ محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.
٣٨- تفسير السمعاني، لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد المروزي السمعاني، تحقيق/ ياسر بن إبراهيم - غنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض– السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
٣٩- تفسير الشعراوي، لمحمد متولي الشعراوي، راجع أصله وخرج أحاديثه د. أحمد عمر هاشم، أخبار اليوم، إدارة الكتب والمكتبات،١٩٩١ م.
٤٠- تفسير الطبري، تحقيق د/ عبد اللَّه بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
٤١- تفسير غريب القرآن، المنسوب لزيد بن علي بن الحسين، تحقيق/ محمد جواد الحسيني الجلالي، منشورات دار الوعي الإسلامي- بيروت.
٤٢- تفسير القرآن، لأبي بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، قدم له الأستاذ الدكتور: عبد اللَّه بن عبد المحسن التركي، تحقيق/ د. سعد بن محمد السعد، دار المآثر - المدينة النبوية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

٤٣- تفسير القرآن، لعبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق/ د. مصطفى مسلم محمد، الناشر مكتبة الرشد – الرياض، ١٤١٠هـ.
٤٤- تفسير القرآن العظيم، لابن أبي زمنين، تحقيق/ حسين بن عكاشة – محمد بن مصطفى الكنز، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر – القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م.
٤٥- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق/ سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.
٤٦- تفسير القرآن العظيم، لأبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، تحقيق/ أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة – الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
٤٧- تفسير القرآن العظيم، لعز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي، تحقيق د. عبد اللَّه بن إبراهيم الوهيبي، دار ابن حزم- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦م.
٤٨- التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم يونس الخطيب، دار الفكر العربي – القاهرة.
٤٩- تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق/ أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م.
٥٠- تفسير كتاب اللَّه العزيز، لهود بن محكم الهواري، تحقيق/ بالحاج بن سعيد شريفي، دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
٥١- تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، لمحمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي تحقيق/ د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية -

بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
٥٢- تفسير الماوردي (النكت والعيون)، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، تحقيق/ السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية – بيروت.
٥٣- تفسير المراغي، لأحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م.
٥٤- تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، لأبي البركات عبد اللَّه ابن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
٥٥- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، لمحمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧ – ١٩٩٨م.
٥٦- تفسير مقاتل بن سليمان، لأبي الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى، تحقيق/ عبد اللَّه محمود شحاتة، دار إحياء التراث – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ.
٥٧- تفسير يحيى بن سلام، ليحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، التيمي البصري ثم الإفريقي القيرواني، تحقيق/ الدكتورة هند شلبي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.
٥٨- تلبيس إبليس، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٥٩- التناقض بين السفارد والإشكناز: مقال لعبد الوهاب المسيري منشور في الجزيرة نت بتاريخ ١٣/ ١٢/ ٢٠٠٧.
٦٠- تهذيب اللغة، لمحمد بن أحمد، أبي منصور الأزهري الهروي، تحقيق/ محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
٦١- توراة اليهود، لحسين ذي الفقار صبري، مقال بمجلة المجلة، العدد ١٥٧، ص ٣ – ٢١، سنة ١٩٧٠.
٦٢- توراة اليهود، مقال بمجلة المجلة، العدد ١٥٧، ص ٤٥، سنة ١٩٧٠.
٦٣- جامع البيان في تفسير القرآن، لمحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد اللَّه الإيجي، تحقيق/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٤ م.
٦٤- جامع الترمذي، طبعة دار إحياء التراث العربي، تحقيق: أحمد محمد شاكر.
٦٥- الجامع الصغير في علم النحو، لمحمد بن شرف الزبيري، تحقيق/ محمد هلال، كلية الدعوة – طرابلس، ١٩٨٦ م.
٦٦- جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، تحقيق/ علي محمد البجاوي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع. بدون تاريخ.
٦٧- الجنى الداني في حروف المعاني، لأبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم ابن عبد اللَّه بن علي المرادي المصري المالكي، تحقيق/ د. فخر الدين قباوة – محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م.
٦٨- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن

مخلوف الثعالبي، تحقيق/ محمد علي معوض - عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ.
٦٩- حجة القراءات، لعبد الرحمن بن محمد بن زنجلة، تحقيق/ سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.
٧٠- حروف المعاني والصفات، لعبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي،تحقيق/ علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.
٧١- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق د. أحمد محمد الخراط، دار القلم – دمشق.
٧٢- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي، تحقيق/ عبداللَّه بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ- ٢٠٠٣ م.
٧٣- دلائل النبوة، للبيهقي، تحقيق/ د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية- بيروت، دار الريان للتراث- القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ م.
٧٤- الدولة الصهيونية بين المأساة والملهاة: مقال لعبد الوهاب المسيري - منشور في الجزيرة نت بتاريخ ١٤/ ٩/ ٢٠٠٨.
٧٥- ديوان أبي طالب، جمعه وشرحه محمد التونجي، دار الكتاب العربي- بيروت، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.
٧٦- ديوان عنترة بن شداد، بنفقة خليل الخوري صاحب المكتبة الجامعة، بمطبعة الآداب لصاحبها أمين الخوري- بيروت، الطبعة الرابعة، ١٨٩٣م.
٧٧- ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق إبراهيم السامرائي - أحمد المطلوب،

مطبعة العاني - بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٨١ - ١٩٦٢م.
٧٨- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي، إدارة الطباعة المنيرية، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، مصر – درب الأتراك.
٧٩- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، لأبي القاسم عبدالرحمن بن عبد اللَّه بن أحمد السهيلي، تحقيق/ عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
٨٠- زاد المسير في علم التفسير، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق/ عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ.
٨١- زهرة التفاسير، لمحمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.
٨٢- السبعة في القراءات، لأبي بكر بن مجاهد البغدادي، تحقيق/ شوقي ضيف، دار المعارف – القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.
٨٣- سنن أبي داود، طبعة دار الرسالة العالمية، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.
٨٤- السنن الصغرى للنسائي، طبعة مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، تحقيق: عبد الفتاح أبي غدة، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦.
٨٥- سير أعلام النبلاء، لشمس الدين أبي عبد اللَّه محمد بن أحمد بن عثمان ابن قَايْماز الذهبي، تحقيق/ مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.

٨٦- السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق/ مصطفى السقا - إبراهيم الأبياري - عبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥ م.
٨٧- شرح نهج البلاغة، لعبد الحميد بن هبة اللَّه بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه - القاهرة.
٨٨- شعب الإيمان، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق/ محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
٨٩- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، لأبي الطيب الفاسي، عيسى البابي الحلبي - القاهرة، ١٩٥٦م.
٩٠- صحيح ابن حبان، طبعة مؤسسة الرسالة - بيروت: تحقيق شعيب الأرنؤوط، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
٩١- صحيح ابن خزيمة، لمحمد بن إسحاق بن خزيمة أبي بكر السلمي النيسابوري، تحقيق/ د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، ١٣٩٠ - ١٩٧٠.
٩٢- صحيح البخاري: طبعة دار طوق النجاة، تحقيق/ محمد زهير بن ناصر الناصر، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.
٩٣- الطبقات الكبرى، لأبي عبد اللَّه محمد بن سعد بن منيع المعروف بابن سعد، تحقيق/ محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.
٩٤- العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق/ د. مهدي المخزومي - د.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

٩٥- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، تحقيق/ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية –بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ.
٩٦- فتح البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي القِنَّوجي، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه عبد اللَّه بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
٩٧- فتح القدير، لمحمد بن علي بن محمد بن عبد اللَّه الشوكاني اليمني، دار ابن كثير - دار الكلم الطيب / دمشق – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
٩٨- فلسطين، لحسن صبري الخولي، الإسكندرية، ١٩٦٦م.
٩٩- في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق – بيروت / القاهرة، الطبعة السابعة عشر، ١٤١٢ هـ.
١٠٠- قصة الحضارة، ول ديورانت، تقديم/ د. محيي الدين صابر، ترجمة/ د. زكي نجيب محمود وآخرين، دار الجيل - بيروت، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – تونس، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
١٠١- الكتاب العزيزي أو المسالك والممالك، للحسن بن أحمد المهلبي العزيزي، تحقيق/ تيسير خلف، التكوين للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
١٠٢- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق/ عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
١٠٣- كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي، لعبد العزيز بن أحمد

ابن محمد، علاء الدين البخاري، دار الكتاب الإسلامي، بدون طبعة وبدون تاريخ.

١٠٤- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، لأحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، تحقيق/ أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق/ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

١٠٥- اللباب في علوم الكتاب، لسراج الدين عمر بن علي بن عادل، تحقيق/ عادل أحمد عبد الموجود - علي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ-١٩٩٨م.

١٠٦- مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري، تحقيق/ محمد فواد سزكين، مكتبة الخانجى - القاهرة، ١٣٨١ هـ.

١٠٧- مجلة الأزهر، المجلد الثامن والعشرون، عدد جمادى الآخرة ١٣٧٦هـ/ ٢ يناير ١٩٥٧.

١٠٨- مجمع البيان في تفسير القرآن، للطبرسي، دار العلوم للطباعة والنشر - دار المرتضى، بيروت، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.

١٠٩- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق/ عبد اللّه محمد الدرويش، دار الفكر - بيروت، ١٤١٢ هـ.

١١٠- مجمل اللغة، لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، تحقيق/ زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

١١١- محاسن التأويل، لجمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم القاسمي، تحقيق/ محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ.

١١٢- المحاسن والأضداد، لعمرو بن بحر الجاحظ، الناشر: دار ومكتبة الهلال – بيروت، ١٤٢٣ هـ.
١١٣- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لأبي الفتح عثمان بن جني الموصلي، وزارة الأوقاف - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
١١٤- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، تحقيق/ عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ.
١١٥- المحلى بالآثار، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، دار الفكر – بيروت، بدون تاريخ.
١١٦- المختصر في أخبار البشر، لأبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي، تحقيق/ د. محمد زينهم محمد عزب – الأستاذ يحيى حسين - د. محمد فخري الوصيف، تقديم/ د. حسين مؤنس، دار المعارف – القاهرة، الطبعة الأولى، سلسلة ذخائر العرب (٦٩).
١١٧- مسائل نافع بن الأزرق عن عبد اللَّه بن عباس، تحقيق/ محمد أحمد الدالي، الجفان والجاني للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.
١١٨- المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد اللَّه الحاكم، تحقيق/ د. يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة – بيروت.
١١٩- مسند أحمد، للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق/ شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
١٢٠- مسند البزار، لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن

عبيداللَّه العتكي المعروف بالبزار، تحقيق/ محفوظ الرحمن زين اللَّه - عادل بن سعد - صبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (بدأت ١٩٨٨ م، وانتهت ٢٠٠٩ م).

١٢١- معالم التنزيل، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق/ محمد عبد اللَّه النمر - عثمان جمعة خميرية - سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض، ١٤١١ هـ.

١٢٢- معاني القرآن، لأبي زكريا يحيى بن زياد بن عبد اللَّه بن منظور الديلمي الفراء، تحقيق/ أحمد يوسف النجاتي - محمد علي النجار - عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الدار المصرية للتأليف والترجمة - مصر، الطبعة الأولى.

١٢٣- معجم الشعراء، لأبي عبيد المرزباني، تحقيق/ فاروق أسليم، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.

١٢٤- معجم القراءات، للدكتور عبد اللطيف الخطيب، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢م.

١٢٥- المعجم الكبير، لسليمان بن أحمد بن أيوب أبي القاسم الطبراني، تحقيق/ حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة الثانية.

١٢٦- المعرفة والتاريخ، ليعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي الفسوي، تحقيق/ أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

١٢٧- مغني اللبيب، لابن هشام، تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.

١٢٨- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، لأبي عبد اللَّه محمد بن عمر بن

الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠ هـ.
١٢٩- مقابلة مع تشين جولد شتاين (إحدى الأسيرات المحررات من المقاومة الإسلامية في غزة)، الجزيرة نت، بتاريخ ٢٤/ ١٢/ ٢٠٢٣.
١٣٠- مقدمة ابن خلدون، تحقيق/ علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر – القاهرة، الطبعة الثالثة.
١٣١- الملل والنحل، لمحمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، تحقيق/ محمد سيد كيلاني، دار المعرفة – بيروت، ١٤٠٤هـ.
١٣٢- من وحي القرآن، لمحمد حسين فضل اللَّه، دار الملاك – بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م.
١٣٣- موافقة الخبر الخبر في تخريج أحاديث المختصر، لابن حجر العسقلاني، تحقيق/ حمدي عبد المجيد السلفي – صبحي السيد جاسم السامرائي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع – الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م.
١٣٤- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، لعبد الوهاب المسيري، دار الشروق – القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.
١٣٥- الميزان في تفسير القرآن، لمحمد حسين الطباطبائي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧ م.
١٣٦- النحو الوافي، للدكتور عباس حسن، دار المعارف – القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٤م.
١٣٧- النشر في القراءات العشر، لشمس الدين ابن الجزري، تحقيق/ علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى [تصوير دار الكتاب العلمية].
١٣٨- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين أبي الحسن

إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق/ عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م.

١٣٩- الهجرة العكسية للإسرائيليين، مقال منشور في الجزيرة نت بتاريخ ١٤/ ١٢/ ٢٠٢٣.

١٤٠- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه، لمكي بن أبي طالب، تحقيق/ مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

١٤١- هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، لماجد عرسان الكيلاني، دار القلم - دبي، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

١٤٢- هيميان الزاد إلى دار المعاد، لمحمد بن يوسف إطفيش، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.

١٤٣- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد ابن علي الواحدي، تحقيق/ صفوان عدنان داودي، دار القلم - الدار الشامية/ دمشق – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.

١٤٤- اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، جوستاف لوبون، ترجمة عادل زعتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة - القاهرة، ٢٠١٢م.

***

# فهرس الكتاب


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| المقدمة | ٥ |
| التمهيد | ٩ |
| أولًا: سورة الإسراء وبني إسرائيل | ٩ |
| علاقة الصهيونية ببني إسرائيل واليهودية | ١٣ |
| ثانيًا: الأمتان في سياق سورة الإسراء | ١٥ |
| ثالثًا: الدول الأيدلوجية وعقدة الجيل الثالث | ٢٠ |
| المثال الأول: دولة المرابطين | ٢٤ |
| المثال الثاني: الاتحاد السوفيتي | ٢٤ |
| **المبحث الأول: «من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى»** | ٢٦ |
| أولًا: المسجد الحرام | ٢٦ |
| ثانيًا: المسجد الأقصى | ٣٤ |
| ثالثًا: الجمع بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى في القرآن والسنة | ٤٧ |
| رابعًا: الذي باركنا حوله | ٤٩ |
| خامسًا: لفظ المسجد وزمن الوحي | ٥١ |
| **المبحث الثاني: «وآتينا موسى الكتاب... وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب»** | ٥٦ |
| أولًا: وآتينا موسى الكتاب | ٥٦ |
| ثانيا: وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب | ٦١ |
| أولًا: «وقضينا» | ٦١ |
| ثانيًا: «في الكتاب» | ٦٧ |

**المبحث الثالث: «لتفسدن... مرتين»** ..... ٧٦
أولًا: الإفساد الأول وعقوبته ..... ٧٦
ثانيًا: الإفساد الثاني وعقوبته ..... ٨٠
**المبحث الرابع: «في الأرض - من الأرض - اسكنوا الأرض»** ..... ١٠٠
أولًا: ﴿لَنُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ..... ١٠٠
ثانيًا: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ .....١٠٢
ثالثًا: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ .....١٠٤
**المبحث الخامس: «ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرًا»** ..... ١١٤
أولًا: ما جاء في كتب التفسير ..... ١١٤
ثانيًا: فقه الآية في ضوء أحداث التاريخ ..... ١١٧
١ - ثم رددنا لكم الكرة عليهم ..... ١١٧
٢ - «وأمددناكم بأموال وبنين» ..... ١٢٣
اليهود الخزر ..... ١٣٠
اليهود الفلاشاه ..... ١٣٢
٣- «وجعلناكم أكثر نفيرًا» ..... ١٣٩
حرب سنة ١٩٤٨م ..... ١٤٣
حرب سنة ١٩٦٧م ..... ١٤٤
حرب لبنان ١٩٨٢م ..... ١٤٥
**المبحث السادس: «وعد الآخرة»** ..... ١٦٩
١ - وعد الآخرة هنا هو يوم القيامة ..... ١٧٣
٢- وعد الآخرة المقصود هو نزول عيسى بن مريم ..... ١٧٤
٣- وعد الآخرة هو الكرة الآخرة المذكورة في أول السورة..... ١٧٤

**المبحث السابع: «ليسوءوا، وليدخلوا، وليتبروا»** ..... ١٧٩
أولًا: ليسوءوا وجوهكم ..... ١٨١
الثاني: دلالة اللام في «ليسوءوا» ..... ١٨٨
الثالث: القراءات الواردة في كلمة «ليسوءوا» وتعلقها بالمعنى ..... ١٩٢
ثانيًا: وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ..... ١٩٥
ثالثًا: وليتبروا ما علوا تتبيرًا ..... ٢٠٥
**المبحث الثامن: مستقبل الصراع** ..... ٢١٢
أولًا: معركة الجغرافيا والسكان والعقيدة ..... ٢١٣
ثانيًا: طبيعة المجتمع اليهودي ..... ٢٢٦
ثالثًا: ضعف حبل الناس ..... ٢٣٦
رابعًا: صحوة أعداء بني إسرائيل ..... ٢٤٢
خامسًا: هزيمة إسرائيل في المعارك الصغيرة ..... ٢٤٥
١- معركة جنين ١٩٤٨ ..... ٢٤٦
٢- معركة تل النيرب ١٩٦٢ ..... ٢٤٧
٣- معركة رأس العش ١٩٦٧ ..... ٢٤٨
٤- معركة الكرامة ١٩٦٨ ..... ٢٤٩
٥- معركة لبنان الثانية ٢٠٠٦ ..... ٢٥٠
٦- معركة طوفان الأقصى ٢٠٢٣ ..... ٢٥٠
سادسًا: خسارة إسرائيل معركة الوعي ..... ٢٥١
سابعًا: فشل مشروع التطبيع ..... ٢٥٧
فهرس المصادر والمراجع ..... ٢٦١
فهرس الكتاب ..... ٢٧٨

***

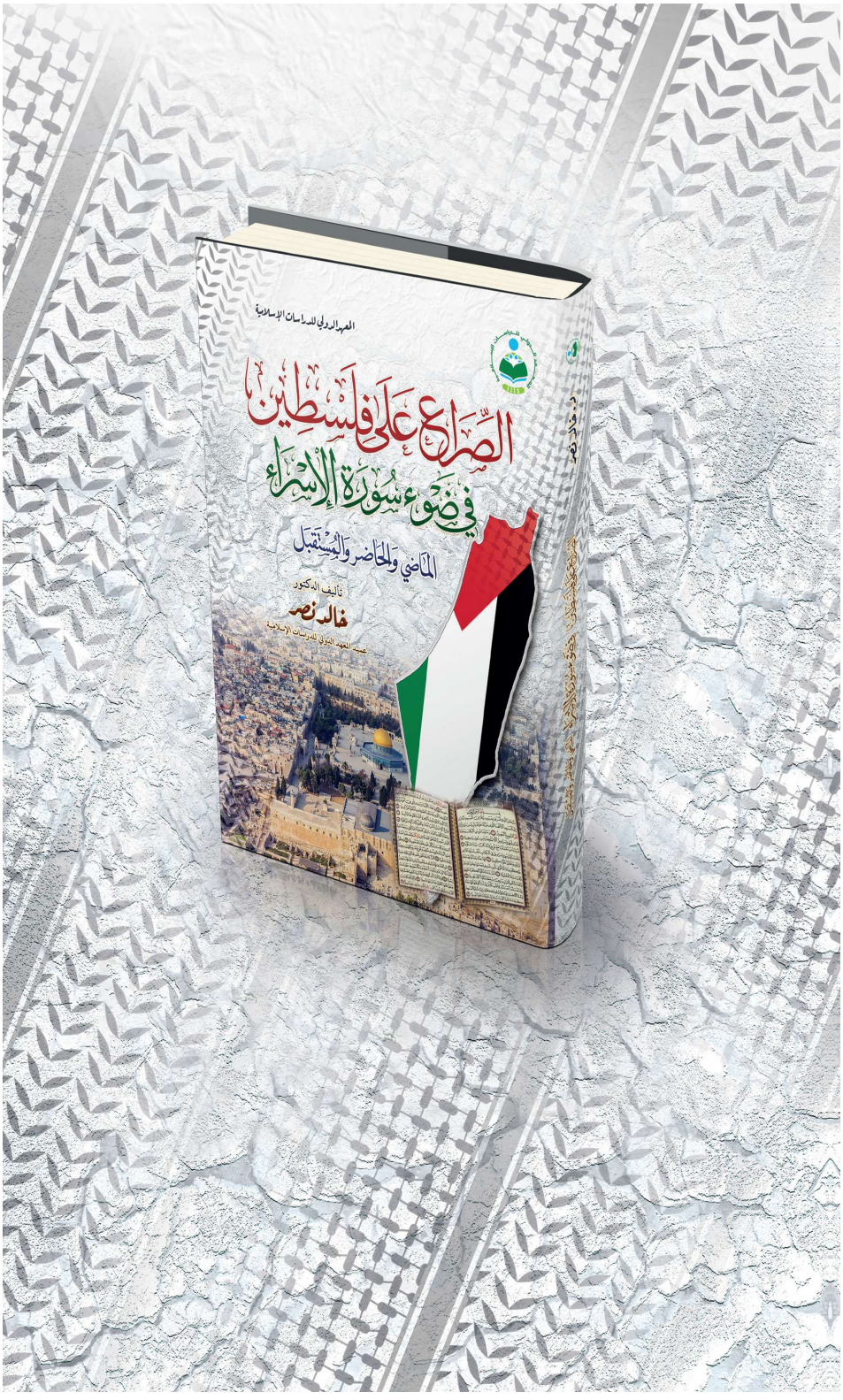
المعهد الدولي للدراسات الإسلامية
الصراع على فلسطين
في ضوء سورة الإسراء
الماضي والحاضر والمستقبل
تأليف الدكتور
خالد نصر
عميد المعهد الدولي للدراسات الإسلامية